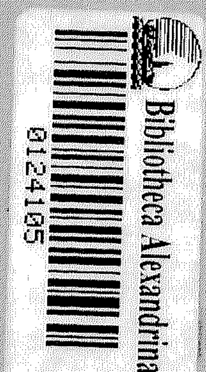
الأخلاق في الإسلام

مع المقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية

تأليف
الدكتور يعقوب المليجي
أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم بالمملكة العربية السعودية

مؤسسة الثقافة الجامعية
ت ٣٥٢٢٤ - الإسكندرية



الأخلاق في الإسلام

مع المقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية

تأليف

الدكتور يعقوب المليجي

أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بكلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم بالمملكة العربية السعودية

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

مؤسسة الثقافة الجامعية
(الإسكندرية ت ٣٥٢٢٤٠)

فهـــرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

تقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله محمـــد الصادق الأمين ، ذى الخلق العظيم ، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديهم إلى يوم الدين وبعـــد :

فإن موضوع الأخلاق فى الإسلام هو قسم من مادة : « الثقافة الإسلاميـة » التى أقوم بتدريسها لطلابى فى جامعـة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم فى المملكة العربية السعودية وقـد بدا لى أن موضـوع الأخلاق هو أهم موضوعات مادة الثقافة الإسلامية وأولاها بالعناية ، بل ولقد تمنيت أن لو اقتصرت الثقـافة الإسلامية على علم الأخلاق فذلك أنفع للطلاب وأجـــدى للمجتمع ، لأنهم لا يجدونها فى أقسام الشريعة وفروع الفقـه التى يدرسونها خـلال سنى الدراسة الأربع بكليات الجامعة ، أما ما عدا « الأخلاق » من موضوعات الثقافةالإسلامية فإنهم يجدونه فى أكثر من منهج من مناهج العلوم الإسلامية وهذا ما حدا بالبعض إلى الدعوة إلى إلغاء تدريس مادة الثقافة الإسلامية فى الـكليات التى تدرس فيها العلوم الشرعية أى كليات الشريعة وأصول الدين وأن يصبح تدريسها قاصرا على الكليات التى لا تدرس فيها العلوم الشرعية كالكليات العمليـة وكليـات العـــلوم الاجتماعية .

ولا يكاد المرء يجد نقدا ذا بال يوجه إلى ذلك الرأى أو يعيب إتجاهه ، وإنما النقد كله يوجه إلى مناهج مادة الثقـافة الإسلامية والتى أوصلتها إلى هـذا المظهر الذى ينم عن كلل وجمود ...

فقد جاء منهجها على مدار سنى الدراسة الأربع آخذا من كل أقسام الشريعة : أى من العقـــائد والمعاملات والأخلاق بينما كان الأولى أن يسلك المنهج أحد سبيلين :

(١) فإما أن يأخـذ موضوعات من كل أقسام الشريعة على أن تكون مما لا تتناوله مناهج المواد الأخرى ، مثل موضوع الأخلاق .

(٢) وإما أن يأخذ موضوعات تتصل بعلوم الشريعة دون أن تكون جزءا منها ، مـــثل القيم والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية والسياسية الإسلاميــة والثقافة والحضارة ولكنها — أى مادة الثقافة الإسلامية — بعدت عن هـــذا وذاك ، وامتلأت بموضوعات من هنا وهناك لا تكاد تربطها رابطة ، أو حتى تجمعها صلة ، فمن الطبيعى أن تقصر بعد بضع سنين عن النمو والإثراء وأن تمتد إليها اليد بالتقليص والتحديد .

وحين كنت أعد هذا المؤلف للطبع ، طالعت ما تقرر فى جمهورية مصر العربية من تدريس مادة الثقافة الإسلامية فى جامعاتها وكلياتها ، وتمنيت حرصا على الإسلام وعلى مصلحة شباب المسلمين الباحثين — أن تتلافى مناهج تلك المادة عوامل الخلل والقصور التى تحولها إلى مادة لا يتجاوز مسارها صفحات المؤلفات والمذكرات ثم أوراق الامتحانات ، دون أن تترك أثرا فى فكر الطالب ودون أن تمس وجـــدانه وتثير شعوره وتغير شخصيته إلى الأحسن . وتمنيت أن يتذكر واضعو مناهجها أختا لها من قبل ، هى مادة المجتمع العربى وما لحق بها وما آلت إليه ...

وبالنظر إلى ما أشرت إليه فيما سبق ، فقد أرجأت طبع كتاب : الثقـــافة الإسلامية بعض الوقت ، وآثرت أن أقدم هذا المؤلف عن الأخلاق فى الإسلام،

أولا على أن يعقبه مؤلف الثقافة الإسلامية حين يشاء ربي .

والله أسأل أن ينفع بكتابي هذا وأن يجزيني خيرا ، وأن يجنبني الخطأ والزلل ، أنه سبحانه أكرم مسئول وخير مجيب .

دكتور يعقوب المليجي
أستاذ مساعد بكلية الشريعة وأصول الدين
بالقصيم — جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الفصل الأول

فى التعريف بالأخلاق
وعلاقتها بالشريعة الإسلامية والعلوم الأخرى

الشريعة هى الأحكام التى شرعها الله لعباده على لسان رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتنقسم الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما يتعلق بالعقائد الأساسية مثل الأحكام المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته وبالإيمان به وبرسله وباليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، وقد تكفل بهذا القسم « **علم الكلام** » .

الثانى : ما يتعلق بتهذيب النفوس وإصلاحها كالأحكام التى تبين الفضائل المختلفة مما ينبغى أن يتحلى به الإنسان مثل الصدق والأمانة والإيثار والوفاء بالعهد والشجاعة ، وكذلك بيان الرذائل التى ينبغى أن يتخلى عنها الإنسان كالكذب والخيانة والاثرة (الأنانية) وخلف الوعد والجبن وغير ذلك مما تكفل به « **علم الأخلاق** » .

الثالث : ما يتعلق ببيان ما للناس من أعمال كالصلاة والزكاة والحج والصوم والبيع والهبة والاجارة والرهن والزواج والطلاق والنفقة والميراث وغيرها ، وقد انفرد بهذا علم خاص يسمى **علم الفقه** وهو العلم بالأحكام الشرعية **العملية** المكتسبة من أدلتها التفصيلية . ويشمل الفقه مجموعة الأحكام العملية المشروعة فى الإسلام سواء كانت شرعيتها من نص صريح من القرآن الكريم أو السنة أو من الاجماع أو باستنباط المجتهدين من النصوص والقواعد العامة .

ومن ذلك يتضح أن الشريعة أعم من الفقه الذى هو جزء منها ، ثم أن الفقه بدوره ينقسم إلى قسمين : هما العبادات والمعاملات ، فما كان الغرض منه التقرب إلى الله وشكره وابتغاء رضوانه وحسن ثوابه فى الدنيا والآخرة فهو من قسم العبادات وذلك مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة والجهاد لتكون كلمة الله هى العليا والنذر فى القربات .

وأما ما كان الغرض منه تحقيق مصلحة الفرد والمجتمع وتنظيم العلاقات التى تربط الأفراد والجماعات ، وتنفع الناس فى حياتهم ومعاشهم فهو من القسم الثانى أى المعاملات (١) .

فإذا أردنا أن نحدد موقع الأخلاق فى الشريعة الإسلامية فيمكننا القول أنها ليست قسما كبيرا مستقلا من أقسام الشريعة الإسلامية فحسب ، بل أنها فى جملتها تعد أحد أصول الدين الإسلامى الحنيف ، بل أنها تعد أهم وأخطر أركان دين الله فى مختلف الشرائع وعلى مر العصور / فالشرائع السماوية تتعاقب ويتم فيها النسخ والتبديل والتغيير بحيث يجىء كل شريعة مناسبة للعصر الذى نزلت على يد رسول الله فيه ، يقول تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » أى جعل الله تعالى لكل قوم من أهل الملل المختلفة طريقا يسلكونه يتناسب مع حالهم وبيئتهم فى أسلوب واضح بلغتهم وطرائق إستعمالهم والمنهاج هو الطريقة التى اختصت بها كل شريعة والأسلوب الذى يتم به إبراز أحكامها .

/ أما الدين فإنه يعنى الأصول العقائدية الثابتة بالبراهين القطعية التى لا يمكن وقوع النسخ والتبديل فيها ولا يمكن أن تختلف فى حقائقها ملة عن ملة ولا شريعة

---

(١) المدخل فى التعريف بالفقه الإسلامى وقواعد الملكية والعقود فيه للدكتور محمد مصطفى شلبى طبعة ١٣٧٩ - ١٩٧٩ صفحة ١٣ .

عن أخرى ويلحق بتلك الأصول العقائدية الثابتـــة فى كل الشرائع والديانات. الأمر بأمهات الفضائل الخلقية التى لا اختلاف بين العقول على حسنها مثل العـدل. والإحسان والصدق والبر والعفة والشجاعة والنهى عن أضدادهـا التى لا تختلف العقول على قبحها وذمها مثل الظلم والإيذاء والكذب والجبن ، كما يشمل إصطلاح الدين إلى جانب تلك الفضائل الخلقية الثابتة دعائم العبادات الأساسية مثل الصلاة والزكاة والصوم . وهذا القسم من الدين الإسلامى لا يختلف عمـا جاء فيما سبقه من الأديان ، ولا فرق فيه بين شريعة وأخرى ، لأنه دعـــوة جميع الأنبياء والمرسلين ، وهذا المعنى هو المراد بالإسلام الذى هو دين جميع الأنبياء والرسل لأنه دين الله الذى لا يقبل من أحد غيره .

يقول تعالى : إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الـكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم (١) .

ويقول تعالى : ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهـو فى الآخرة من الخاسرين (٢) .

وهذا المعنى للدين الموحد لجميع البشر وفى كل العصور ، والذى سماه الله تعالى بالإسلام هو الذى وصى به خليل الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام بنيه كما وصى به حفيده يعقوب عليه الصلاة والسلام بنيه كذلك وقص علينا الله تعالى هـذه

---

(١) آل عمران آية ١٩ .
(٢) آل عمران آية ٨٥ .
هذا ويلاحظ أن لفظ الدين لا يعنى الدين السماوى فحسب بل هو يستعمل للدلالة على أى دين سماوى أو وضعى فللكافرين والمشركين بينهم . يقول تعالى فى سورة الكافرون : لكم دينكم ولى دين .

الوصايا فى القرآن الكريم فيقول فى سورة البقرة : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وأنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه إسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين . فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وآله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق آلها واحداً ونحن له مسلمون »

وقد علم من هذه الآيات أن لفظ الإسلام والمسلمين فى كلام إبراهيم وإسماعيل ويعقوب يراد به ذلك المعنى الذى تقدم ذكره فمن لم يكن متحققاً بهذا المعنى فليس بمسلم أى ليس على دين الله القيم الذى كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين . روى الطبرى عن قتاده فى تفسير قوله : إن الدين عند الله الإسلام ، قال : والإسلام أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء به رسول ﷺ من عند الله دين الله الذى شرعه لنفسه وبعث به رسوله ودله أولياءه ، لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به (٢) .

وإذا كان قد إتضح لنا مما سبق أن الأخلاق أحد أقسام الشريعة الإسلامية الثلاثة الكبرى ، وإنها فى نفس الوقت أحد أقسام دين الله المنزل على كافة أنبيائه ورسله وأصل من أصوله لم يتخلف فى واحد منها ، فإننا سوف نعجب لإنصراف علماء المسلمين وفقهائهم عن علم الأخلاق وعدم العناية بالبحث والتأليف فيه مثلما فعلوا فى قسمى الشريعة الباقيين : أى علم الكلام وعلم الفقه ، فهذان العلمان

---

(١) البقرة ١٣٠ — ١٣٤ .

(٢) الموسوعة : فى سماحة الإسلام . محمد الصادق عرجون . المجلد الأول . ص ٢١٤ .

كان حظها من النظر والبحث والإجتهاد حظاً عظيما ، فوضع الإمام الشافعى لعلم الفقه علماً يضبط قواعده وينظم تناوله ويؤصل أحكامه هو علم أصول الفقه ، كما أفاض الفقهاء والمحدثون والعلماء فى تبويب مسائل الفقه وجمع موضوعاته فى أبواب مستقلة مرتبة ، كما أن علماء الكلام صالوا وجالوا فى ميدانه واستعانوا فى أبحاثهم بأفكار وآراء بعض فلاسفة اليونان ، حتى نشأ مع علم الكلام علم مناظر ومعاون له هو علم الفلسفة ، وقد ظهر ميل العرب إلى الفلسفة بعد الفتوح الإسلامية خاصة للعراق والجزيرة حيث كان العنصر الآرامى فيهما منذ بضعة قرون يأخذ بنصيب من علوم اليونان ، وكان مجىء الدولة العباسية وإتخاذها العراق مقراً للخلافة ، عاملا ذا أثر بعيد فى ذيوع الفلسفة وإنتشار مبادئها ونظرياتها ، لأنها فتحت الباب للأعاجم للدخول فى مناصب الدولة ثم التدخل فى شؤونها بعد ذلك ، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من فتح باب الترجمة إلى العربية فنقل إبن المقفع بعض كتب المنطق لارسطو ثم جاء الخليفة المأمون فأنشأ دار الحكمة عام ٢١٧ ﻫ وجعل رئاستها لحنين بن إسحق الذى امتدت رئاسته بعد المأمون فى عهود حكم المعتصم والواثق والمتوكل وكان يعاونه فى الترجمة إبنه إسحق وإبن أخته إبن الحسين وطائفة من المترجمين، وكان حنين بن إسحق قد نقل فيما نقل عن أرسطو كتاب الاخلاق ... وهكذا كانت الفلسفة اليونانية باباً دخلت منه نظريات الفلاسفة اليونانيين فى الأخلاق إلى الفكر الإسلامى وأثرت فيها آثاراً ظاهرة ، وكذلك وجدنا أبا نصر محمد الفارابى الفيلسوف الإسلامى المعروف ، يشرح كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس الذى ألفه أرسطو وهذا العصر الذى شاهدنا فيه تأثير الفلسفة اليونانية على الفكر الإسلامى هو نفسه العصر الذى ولد فيه علم الأخلاق لدى مفكرى المسلمين وعلمائهم ، فلم يتمتع بنقاء المنشأ ولا بصفاء المنهج بل خالطته وشابته آراء وأفكار لفلاسفة ومفكرين عاشوا

قبل الإسلام بعشرات القرون ، بل نشأت مدرستان كانت كلتاهما معبراً للفلسفة اليونانية إلى الفكر العربي والإسلامى الأولى فى الشرق إشتهر منها يعقوب الكندى وحنين بن إسحق وثابت بن قرة وأبو زيد البلخى ويحي بن عـــدى وفلاسفة البصرة أو أخوان الصفا وأبو نصر الفارابى والرئيس إبن سينا والرازى والجرجانى وتلاميذهم وأما المدرسة الثانية فكانت فى الغرب الإسلامى وقد حمـــل لواءها إبن رشد الذى قام بتلخيص كتاب الأخـــلاق وتلخيص كتاب النفس لأرسطو (١) .

وفيما عدا ذلك لا نكاد نعثر على مؤلفات كافية فى علم الأخلاق الإسلامية ، أى أننا ليس لدينا سوى هذا التراث من علم الأخلاق الذى تأثر بالفلسفة اليونانية تأثراً عميقاً ، وحتى أولئك النفر القليل من المفكرين والعلماء المسلمين الذين حاولوا أن يصوغوا علم أخلاق إسلامى مستقل فإنهم لم يستطيعوا التخلص تماماً من سيطرة الفكر الأرسطاطاليسى على الأخلاق ونظريته فيها خاصة آرائه فى الفضيلة ومعناها وفكرة الوسط العدل فيها وأنواع الفضائل الخلقية ومسألة الضمير ... ولعل هذا التأثير يبدو واضحاً فى كتابات إبن مسكويه فى الأخلاق .

وقد يبدو لنا أمراً غريباً حقاً هذا العزوف عن علم الأخـــلاق فى الفكر الإسلامى ولدى علماء المسلمين وعدم قيام علم أخلاق إسلامى أصيل نقى المصادر يرجع بجذوره إلى الشريعة الإسلامية وحدها ولا تخالطه أفكار وفلسفات اليونان ، وحتى إبن خلدون فى مقدمته حين تكلم عن العلوم وتقسيماتها لم يذكر من بينها علم الأخلاق ...

---

(١) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ـ تأليف أرسطوطاليس ـ نقله إلى العربية أحمد لطفى السيد ـ الجزء الأول ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ - ١٩٢٤ ـ تصدير الترجمة .

على أن أخطر ما جناه الفكر الإسلامى من تأثره فى مجال علم الأخلاق بالفلسفات اليونانية وغيرها من الفلسفات الشرقية، هو إنفلاته من نطاق الشريعة الإسلامية واتجاهه إلى أن يصبح أحد العلوم الوضعية، ونقطة الخطر فى هذا الإتجاه تكمن فى أن الأخلاق فى الإسلام هى مجموعة أحكام سماوية ولا تستند إلى العقل المجرد وحده، وحتى فيما يتعلق بالفضائل الخلقية التى يتفق فيها الفكر الوضعى مع نظائرها فى الشريعة الإسلامية، فإن البون يبدو شاسعاً بين النوعين، لافتقار الأخلاق الوضعية إلى ركن النية فى العمل الأخلاقى، وهو ركن تصل أهميته وخطورته إلى حد تجريد الأفعال الأخلاقية من كل قيمة فى ميزان الشريعة الإسلامية. ثم أن محاولة الإقدام على أن نصنف أى مؤلف فى الأخلاق على أساس المنهج العلمى الوضعى هى محاولة ترتبط بالفشل والتناقض فى خطواتها الأولى، ويمكن إرجاع ذلك إلى منهجية البحث العلمى وعدم جدواها فى مجال الأخلاق الإسلامية، فإننا يمكن أن ننظر إلى كل ظاهرة أو موضوع بحث فى أى علم وضعى، من ناحيتين متباينتين: ناحية نراعى فيها الشىء كما هو، كيف يتكون وكيف يرتبط بباقى الأشياء، أى أن تناوله يتم من الناحية الوصفية، وهذا ما نجده فى علم النبات أو الحيوان أو الطبيعة أو الكيمياء أو الجغرافيا أو الجيولوجيا وغيرها. أما الناحية الثانية التى يمكن بها تناول موضوعات العلم فهى التى تتم فيها مقارنة الشىء الكائن بما يجب أن يكون عليه، أى النظر فى مدى إقترابه من المثل الأعلى، أو بعبارة أخرى النظر إلى مسائل العلم من ناحية القيمة التى يضيفها الباحث فيه على المسألة أو الظاهرة موضوع البحث. وحين نطبق هذين المنهجين فى دراسة العلوم نجد أمامنا قسمين أو نوعين من العلوم:

١ — علوم وصفية تنظر إلى الأشياء كما هى.

٢ — وعلوم معيارية أو تقديرية يحكم فيها على الأشياء بالآراء الشخصية

وهذا النوع من العلوم يمكن أن يطلق عليه كذلك العلوم النقدية أو المعيارية وعلم الأخلاق هو من هذا النوع الأخير فهو يدرس الخلق الفردى والتصرفات الشخصية لا من حيث وصف أسبابها والاكتفاء بذكر علاقاتها بالتصرفات العامة أو تحليلها كظواهر طبيعية بل هو يدرسها من حيث أن لها قيمة معينة ، أو علاقة بمستوى معين أو مثل أعلى خاص .

وهكذا سوف نجد أن علم الأخلاق الوضعية ، مثله كمثل العلوم المعيارية الأخرى ، لا يحمل فى ذاته أحكاما كلية عامة بل يعتمد على عوامل ذاتية توجد فى نفس الفرد الذى يصدر الأحكام الخلقية ولما كان الأفراد يختلفون فى آرائهم وتقديراتهم وتقييمهم للأمور ، فإن ذلك يؤدى إلى تباين الآراء الخلقية الواحدة، وهكذا وجدنا اختلاف آراء المفكرين فى الأخلاق الوضعية ، ليس بالنسبة للوسائل أو المسالك الخلقية فحسب بل وبالنسبة للغايات النهائية للسلوك الخلقى كذلك ، أو المثل العليا التى ينبغى توجه الأفراد إليها ، فلو فرضنا اتفاق المفكرين على أن الغاية من السلوك الخلقى هى الخير فإننا نجد اختلاف وجهات النظر حول طبيعة الخير وتحديد ماهيته فهناك من يرى أن الخير هو الفضيلة وهناك من يرى الخير فى اللذة ويراه ثالث فى المنفعة ويتصوره غير أولئك فى أداء الواجب للواجب ، وهكذا نجد تضارب الآراء بحسب المثل الأعلى الذى يعتنقه الفرد وبحسب المعنى الذى يضعه الفرد لكلمة فعل خلقى (١) ...

هذا بالنسبة للفشل فى الإتفاق على أحد المسائل أو المبادىء الخلقية ، أى الاخفاق فى تحديد دراسة موضوعية يتفق على صوغها المفكرون الأخلاقيون ،

---

(١) مبادىء الأخلاق تأليف الدكتور ماهر كامل والدكتور عبد المجيد عبد الرحيم — الطبعة الأولى ١٩٥٨ مكتبة الانجلو المصرية ص ٧ .

يبقى أن نبرز الفشل فى منهجية البحث الخلقى الوضعى نفسه ، وهو فشل يصل إلى حد نفى صفة العلم عن موضوع الأخلاق ، بحيث لا يمكن إعتباره علما من العلوم بحسب المقاييس المتعارف عليها فى تحديد ما يعتبر من العلوم وما لا يمكن اعتباره داخلا فيها، فإن من أهم مباحث علم الأخلاق ما يتعلق بالضمير وهو مما لا يمكن ملاحظته ومشاهدته والحكم عليه ، وكذلك الأمر بالنسبة للبواعث والنوايا التى تسبق الأفعال أو تقارنها والآثار النفسية التى تترتب على التصرفات الخلقية وتعقبها مثل الشعور بالحزن أو الأسف أو الندم أو الرضى .

وبذلك لا نجد أمامنا للبحث فى الأخلاق الوضعية إلا التأملات الذاتية والآراء الشخصية للفيلسوف أو المفكر الأخلاقى ، وهو ما حدا ببعض المفكرين إلى إنكار أن الأخلاق علم مستقل والذهاب إلى أنها مجرد فن العيش الهانىء أو صنعة أو تطبيق للعلم ومن دعاة ذلك الرأى فيكتور بروشار : وقد ظهر فى مقالاته التى نشرت عام ١٩٠١ و١٩٠٢ بعنوان الأخلاق القديمة والأخلاق الحديثة وكذلك ما كتبه عن الأخلاق التوفيقية ومنهم أيضاً مؤلفات السيد / جول دى جوتييه ذات العناوين المختلفة مثل تبعية الأخلاق وإستقلال السلوك ، وقد إنتهى ذلك كله بعلم الأخلاق الوضعية إلى أن يصبح علماً يحاول العلماء إقامته على قدميه مستقلا دون جدوى وإستمرت المحاولات لفترة طويلة تحاول إقامته معتمداً على غيره من العلوم التى ثبت وجودها فى مجال الدراسات الإنسانية والإجتماعية ، لكى يستفيد من أبحاثها ، فحاول البعض إستنباط علم الأخلاق من علم الحياة وحاول البعض الآخر أدماجه فى علم الإجتماع ، وعند أولئك وهؤلاء، مهما أختلفوا ، يبدو علم الأخلاق الوضعية وكأنه تطبيق بحت وتبسيط لمبادىء تقررت فى واد آخر أو وضعت وصيغت فى حرية بواسطة الإرادة الفردية ، ومعنى هذا أن علم الأخلاق قد أختفى وتوارى خلف معارف منهجية فى علم النفس

أو علم الإجتماع أو علم الحياة (١) وسيتضح لنا فيما يلى أن علم القانون لا يمكنه أن يغنى عن علم الأخلاق وسوف نبين فيما يلى ما بينهما من أوجه الشبه وما بينهما من أوجه الخلاف .

علم الاخلاق والقانون :

قامت القوانين منذ قيام المجتمعات الإنسانية وعرفت "الخضوع للنظام الإجتماعى ، وقد تضمنت القوانين منذ نشأتها مجموعة قواعد عامة تطبقها الهيئة الحاكمة التى بيدها السلطة وتملك توقيع الجزاء على من يخرج عليها ، والغاية من وضع القوانين هى تنظيم العلاقات المختلفة بين أفراد المجتمع بما يحفظ مصلحته ومصلحة أفراده ويحافظ على الإستقرار والنظام فيه .

وقد يكون القانون من وضع المجتمع نفسه ، عن طريق جماعة يختارها من بين أفراده ويفوضها فى سلطة التشريع ، وقد يكون من وضع السلطة الحاكمة سواء كانت جماعة أو بضعة أفراد، وقد يضعها فرد واحد يحكم المجتمع ويستبد بالسلطة ويستقل بحق التشريع فيه ، وأخيرة فقد يكون القانون نابعاً عن الأعراف والعادات والتقاليد التى سار عليها المجتمع وألف أفرادها الخضوع لها والامتثال لأحكامها ويتمثل ذلك على وجه الخصوص وبصورة أوضح فى المجتمعات القبلية والبدوية وإن كان العرف له دوره الظاهر فى إيجاد القواعد القانونية فى كافة المجتمعات بل أن له دوره الذى لا ينكر فى مجال الفقه الإسلامى وفى أحكام المعاملات على وجه خاص وذلك طالما أنه عرف غير فاسد ولا يتعارض مع قاعدة شرعية .

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر - تأليف د. بارودى وترجمة محمد غلاب - ص ٣ .

وقد ظل القانون والأخلاق متداخلين لم تتحدد معـــالم التفرقة بينهما بشكل واضح منذ القرن الثامن عشر ، حيث استقر الأمر على التفرقة بينهما تفرقة تقوم على أساس اختلافهما من حيث الموضوع أو المجال الذى يتناوله كل منهما ثم من حيث الأثر أو الجزاء الذى يترتب على مخالفتها وأخيرا من حيث الغاية التى ينشد كل منهما تحقيقها ، وسوف نشير إلى هـذه الأنواع الثلاثة من الفروق بينهما فيما يلى :

أولا : من حيث موضوع القانون والأخلاق ومجالهما :

يرى البعض أن القانون مجاله الحكم على الأعمال الظاهرة من سلوك الإنسان ، والتى يتم تنفيذها فعلا أو يبدأ الشروع فى هذا التنفيذ ولذلك يعاقب القانون على جرائم القتل والسرقة والغش إذا تم تنفيذها من قبل الجانى أو إذا شرع فى ذلك التنفيذ شروعا كان يمكن أن يؤدى إلى تمام الجريمة لولا أنه أوقف أو خاب أثره بسبب لا يد للجانى فيه .

ولكن القانون لا يعاقب على مجرد النوايا فى تلك الجرائم وغيرها ولا يؤاخذ من يفكر ويتمنى تنفيذها طالما أنه اقتصر على مجرد التفكير والشعور ولم يصل إلى مرحلة التنفيذ أو البدء فيه ...

أما الأخلاق فإن مجالها أوسع بكثير من مجال القانون فى هذا الأمر،فالأخلاق من أهم موضوعاتها الجوانب الباطنية فى النفس وما يتصل منها بالشعور والضمير وتهتم الأخلاق بالنوايا والنية فى الإسلام أهم من العمل نفسه ، لأن العبرة بها والمعول عليها وليس على العمل الظاهر وحده ، وفى ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« نية المرء خير من عمله » ويقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى »

فالقانون لا يحاسب الأفراد على الحقد والكراهية والحسد والبغض والتشفى وعدم الرحمة وغير ذلك من المشاعر السيئة والقبيحة ، ولكنها مما يخضع للتجريم والتأثيم فى مجال الأخلاق .

ثانيا : الجزاء فى القانون والأخلاق :

تقترن كل قاعدة قانونية بجزاء يوقع على من يخالفها أو يخرج عليها ويتفاوت هذا الجزاء بحسب تقدير الواقعة وخطورة الفعل وآثاره ، وقد يكون هذا الجزاء عقوبة توقع على مخالف القانون فى بدنه كالحبس أو السجن أو الاعدام أو يعاقب فى ماله بالغرامة أو المصادرة أو الاتلاف (كما فى الأغـــذية الفاسدة) أو قد تكون العقوبة بمجرد حرمان من الحقوق والمزايا التى كان يمكن له الحصول عليها لولا ما ارتكبه من جرم كالمنع من السفر أو الحرمان من الوظيفة أو بطلان التصرف فى ماله إذا كان سفيها لا يحسن التصرف فيه .

وهكذا تدور العقوبة مع نصوص القانون وجودا وعدما ، فإذا وجد القانون وجد معه الالزام به والجزاء الذى يرتبه على مخالفته ، ثم أن ذلك يعنى أنه لا عقوبة ولا جزاء بغير نص من القانون ، مهما كان وصف الفعل وتقدير قيمته وآثاره بالنسبة للفرد أو المجتمع .. فالقوانين لا تعاقب من يتعرى ويظهر ما يعد عورات فى جسمه تبدو للناس فى الطرقات أو على الشواطىء ، أو أماكن اللهو أو العمل ، فى الكثير من المجتمعات ، والعديد من الدول الأوربية لا تعاقب القوانين على الزنا أو شرب الخمر أو لعب الميسر أو الاجهاض ، ولا يشعر الأفراد الذين يقترفون تلك الافعال بأى شعور من الاثم أو الألم أو الحرج أو مخالفة النظام العام والآداب لأن القوانين لا تجرمها ولكن الأمر فى الأخلاق يختلف عن ذلك ، فإن كل فعل أخلاقى ليس له جزاء واحد فحسب بل له ثلاثة أنواع من الجزاء :

الجزاء الاول : ينتظره المرء من الله تعالى ثواباً حسناً فى الدنيا والآخرة ، يقول تعالى : « فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » ويقول سبحانه : من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (١) .

ويقول تعالى : أن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات **لعنوا فى الدنيا** والآخرة ولهم عذاب عظيم (٢) .

ويقولى تعالى : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم **فى الدنيا** والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٣) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان فى قلبه لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم فإن من اتبع عورات أخيه المسلم تبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته .

بل أن المؤمن ليخشى أن يحرم الرزق بالذنب يصيبه كما جاء بالحديث الشريف .

وقال عليه الصلاة والسلام : مكتوب فى التوراة من أحب أن يزاد فى عمره ويزاد فى رزقه فليصل رحمه .

وقال أيضاً : من سره أن يمد له فى عمره ويوسع له فى رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه .

---

(١) سورة النحل — آية ٩٧ .
(٢) سورة النور — آية ٢٣ .
(٣) سورة النور — آية ١٩ .

وقال عليه الصلاة والسلام : أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغى وقطيعة الرحم .

وقال عليه الصلاة والسلام : كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات .

وقال عليه الصلاة والسلام : بروا آباءكم تبركم أبناؤكم .

والحقيقة أن المسلم يبتغى بحسن الخلق ثواب الله وحسن جزائه فى الآخرة أكثر مما يريده فى دنياه ، لأن متاع الدنيا قليل وزائل أما الآخرة فثوابها وجزاؤها عظيم خالد

والجزاء الثانى : على العمل الخلقى يجده المرء فى نفسه وفى صدره ويشعر به قلبه وفؤاده ويتأثر به ضميره ووجدانه ، طمأنينة ورضى وسكينة تغمر القلب وتملأ النفس ، أو حيرة وقلقاً وضيقاً وحرجاً وشقاء يضيق به الصدر وتنقبض له النفس ويهلع منه القلب والفؤاد .

أن راحة النفس وطمأنينة القلب والشعور بالرضى والسعادة كلها ثمرات الإيمان الصادق الذى يقترن بحسن الخلق ، لأن الغم والنكد والشقاء والخوف والحزن إنما تنجم عن أحد أمور ثلاث :

الاول : إرتكاب الآثام وأتيان الفواحش وفعل السيئات من النوايا والأقوال والأفعال، كالحسد والبغض والغيرة والزنا وظلم الضعيف وأكل أموال الناس بالباطل والغش والغيبة والوشاية وعقوق الوالدين ومعصية المرأة لزوجها وإيذاء الجار والإساءة إليه ، فكل إثم أو جرم يرتكبه الإنسان يؤدى إلى ظلمة القلب وتأنيب الضمير وقد يظن البعض أن من الناس من يرتكبون الآثام ويفعلون الفواحش وهم مع ذلك يبدون ولا أثر عليهم لحزن أو ضيق بل قد يبدون

مرحين فرحين . ولكن ما ينساه هؤلاء أنهم في غفلة عن أنفسهم وغفوة في مشاعرهم قد نامت ضمائرهم أو ماتت ولكن إلى حين ، ولكنهم حين تستيقظ فيهم الضمائر سيألمون ويتعذبون، وحين يعجزون عن الإستمرار فيما كانوا فيه من غى وفساد يقنطون ويتحسرون ، فالشباب لا يدوم والأيام والليالى يتغير فيها بإرادة الله كل شىء ، والصحة لا تظل على حالها ثم أن القلوب والضمائر يجىء الوقت الذى تتنبه فيه ...

وتكرار الذنوب يطبع القلب ويختم الله عليه ويصبح على البصر غشاوة وفى القلب عمى لقوله تعالى : فإنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، ويقول تعالى عن تأثير الخطايا والآثام على القلوب « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (١) ومن العجيب أن الضالين يعتقدون أن سبيلهم المعوج هو خير سبيل ، وأن ما يقترفون من فاحش الذنوب هو باب للسعادة والغبطة والسرور ، مع أن اللذات والشهوات يعقبها دائماً الندم والحسرات ، كما أنه من الأمور التى تلفت النظر أن المجتمعات التى تنتشر فيها الأباحية وتعمها الخلاعة والفجور لا ترى السعادة أو الهناء أو راحة البال وإنما ترى الاكتئاب النفسى والقلق والتوتر والأمراض العصبية وكثرة حوادث الإنتحار ...

والامر الثانى : الذى يسبب تعاسة الإنسان هو الخوف من المستقبل والتحسب لما ينتظر المرء ولو بعد ساعات أو أيام ، كالخوف من إنقطاع رزق أو نقصانه والخوف من المرض أو الموت ، والخوف من فقد كل عزيز وغال ، والخوف من الفشل وعدم تحقيق ما يتطلع إليه الإنسان ، وهذا الخوف يؤدى إلى إنعدام الطمأنينة وفرار السعادة والضيق بالحياة . والخوف والجبن من رذائل الأخلاق ومن علامات ضعف الإيمان واليقين لأن المؤمن الحق يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ،

وهو يتمثل دائماً قول الحق سبحانه وتعالى : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

وقد تجد غنياً فى هم وخوف على ماله ، فيشغل بتدبيره ونمائه ويخشى على نقصانه وضياعه وقد تصيبه الأمراض بسبب ذلك، بينما قد تجد فقيراً قانعاً هادىء النفس مرتاح البال ، لا يحمل للغد هما ولا ينشغل بأمر قبل وقوعه ولا يزعجه مرور الليالى والأيام .

وأما الامر الثالث الذى يشقى الإنسان فى حياته فهو الحزن والألم الذى يشعر به ويمكن إرجاع أسباب الحزن إلى ثلاثة أسباب :

(١) فهو قد يكون بسبب داء الحسد الذى يصيب القلب فيجعل صاحبه دائم الحسرة والحزن، لان كل نعمة تصيب أحد عباد الله تنمه وتسود الدنيا فى عينيه، والله تعالى يداه مبسوطتان آناء الليل وأطراف النهار ونعمه لا تنفد يغمر بهما من يشاء من عباده ونعم الله متنوعة فمنها نعمة العقل والحكمة وقل من يحسد عليها أصحابها ، ولكن الحسد يشتد أواره على النعم المادية كالمال والبنين والمتاع والدور والأثاث والسيارات ، والزروع والثمار ، ولهذا فإنه لا راحة لحسود .

(٢) وقد يكون الحزن بلا سبب ظاهر او خفى وإنما هو حزن ينتاب النفس دون معرفة مصدره ، وهنا قد يكون الأمر عارضا لا يلبث أن يزول طالما أنه لا ينجم عن مرض فى القلب أو خلل فى التفكير .

(٣) وأما السبب الثالث للحزن فهو التحسر والندم على ما فات ، كضياع مال أو فرار فرصة ثمينة ، أو موت عزيز ، أو خسارة مودة وصداقة أو فقد الصحة ، أو الجاه والمركز الوظيفى ، مع التعلق بكل ذلك والحرص على الاستمتاع به والتباهى به بين الناس .

وقد جعل الله تعالى عباده المؤمنين لا يأسون على ما فاتهم ولا يحزنون على ما يصيبهم فقال تعالى . ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها أن ذلك يسير على الله . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور (١) فهم يؤمنون بأن كل ما يصيبهم فيما يملكون وفى أنفسهم من مرض أو حدث إنما هو مسطور فى أم الكتاب من قبل أن يبرأ الله تعالى الأنفس ويخلقها ، وبين لنا سبحانه وتعالى الحكمة فى ذلك بأنها طمأنينة قلوب المؤمنين ورضاهم بكل ما يأتى به الله العليم الحكيم .

ويمكن لنا أن نجمع كل ما سلف فى كلمة واحدة فيها طمأنينة القلب ورضى النفس ألا وهى **الرضى** .. فشقاء الإنسان يكمن فى عدم رضاه ، فهو يشقى حين لا يرضى بما قسم الله له أو بما قسمه لغيره ، فيكون فى الأول ساخطا وفى الثانية حاسدا .

واخيرا فالجزاء الثالث الذى يترتب على مخالفة القاعدة الخلقية فهو سخط الناس وعدم رضاء المجتمع ، بل وازدراءهم لمن فسدت أخلاقه حتى ولو كانوا من ذوى قرباه أو جيرانه أو اخوانه ، وقد يقول قائل أن بعض المجتمعات لا تستنكر المنكر بل تسكت عنه وقد تستحسنه ، وهذا فى الحقيقة من أكبر الكبائر وعلامة فساد المجتمع واستحقاقه النقمة والغضب من الله .. ويجب على من يتمسك بدينه ويحرص على خلقه أن يعتكف أن ابتلى بالعيش فى مثل هـــذا المجتمع الفاسد وليحاول أن يبذل وسعه فى بذل النصيحة وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهنا تبدو الحكمة فيما أمر به الله تعالى من وجـــوب التواصى بالحق والتواصى بالصبر وأن يكون المؤمنون والمؤمنات أولياء بعض يتناصرون ويتوادون .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٣ .

ويتعاونون ، قال تعالى : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (١) .

ثم أن ذا الخلق الحسن ، المؤمن المستمسك بدينه ، لا يحفل برأى السفهاء والجاهلين فيه ولا يسعى إلى رضائهم عنه ولا ثنائهم عليه ، فإنهم لن يرضوا عنه أبدا ما داموا فى ضلال مقيم ، وانما حسب المؤمن صاحب الخلق أن يحبه الأخيار ويرضى عن خلقه الأبرار .

وإذ تكلمنا ونحن نقارن بين الأخلاق والقانون عن الفروق بينهما من حيث مجال كل منهما ثم من حيث الجزاء الذى يترتب عليهما نتناول أخيرا الفرق الثالث بين الأخلاق والقانون والذى يتمثل فى الغاية التى يتوخاها كل منهما .

الغاية من الأخلاق ومن القانون :

أهم ما يميز الأخلاق إتجاهها إلى تحقيق غايات وأهداف معنوية ، فهى تحث الفرد على الارتفاع بنفسه إلى ما ينبغى لها من سمو وكمال يحقق خيرها وأمنها الداخلى ، بينما يقوم القانون على أساس تحقيق قيم اجتماعية نفعية (٢) .

أن النقطة الأساسية فى الأخلاق هى أنها تبين للإنسان أن قانونه وغايته هو فعل الخير دائما مهما وقفت فى طريقه من العقبات التى يسببها تعقد الحياة الاجتماعية وتناقض المصالح والقيم والأهداف فيها ، أن عمل الخير بباعث خلقى إنما هو طاعة غير محدودة ولا تقترن بالتذمر والضجر وإنما تقترن بالإستسلام لله تعالى والثبات

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠ .

(١) المدخل إلى القانون للدكتور حسن كيرة الطبعة الخامسة ١٩٧٤ صفحة ٢٩ .

والبسالة إذا اقتضى الحال ذلك . أنه يجب على المتمسك بالقيم الأخلاقية أن ينكر المنفعة التي تتناقض مع تلك القيم ويحاربها على أي صورة كانت ؛ أي سواء كانت ثروة أو لذة أو شعورا بالسعادة والراحة ، والصراع النفسي الذي يثور في نفس المؤمن بالقيم الخلقية يجب أن ينتهي دائما إلى الانتصار للقيم والتضحية بكل ما يتعارض معها ، وهذا موقف يتعرض له كثيرا أصحاب المبادىء الخلقية، حين تضطرهم ظروف الحيـــاة إلى الاختيار بين المصلحـــة والواجب والمنفعة والأخلاق (١) ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال : من أحب آخرته أضر بدنياه ومن أحب دنياه أضر بآخرته .

ويقول تعالى : لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه (٢) فالكذب والخداع والغش والنفاق يشترى بها الفاسدون والضالون بعض متاع الدنيا القليل ويتناسون ما كان ينبغي لهم التمسك به من قيم الأخلاق ..

فالطالب قد يغش لينجح والتاجر قد يكذب ليربح والرجل قد يتغاضى عن ضياع القيم الخلقية في بيته حتى لا ينهار والموظف قد يرتشي ليشبع بالمال رغباته، وكل أولئك وغيرهم هم في الحقيقة قد استبدلوا المادة بالقيم المعنوية والخلقية ، وباعوا الخير بالشر ، وآثروا المنفعة على الأخلاق . بل أننا نلمس في كثير من دول العالم أن قوانينها تنحو هذا المنحى، فتكون الغاية منها تحقيق المنافع المادية

---

(١) منهج جديد للدراسات الانسانية تأليف هـ. ب ريكمان ترجمة دكتور علي عبد المعطي محمد ودكتور محمد علي محمد الطبعة الأولى ١٩٧٩ صفحة ١٠٧ .
(٢) سورة المجادلة آية ٢٢ .

على حساب القيم الخلقية ، فتتغاضى عن الأخلاق فى سبيل ما تربحه من السياحة ، وتتعامل بالربا فى سبيل ما تؤمله من رواج إقتصادى وتقر قوانينها الأعـــراف الفاسدة والعادات القبيحة لتحقيق رغبات المجتمع وإرضاء أفراده .

والحقيقة أن ذلك كله نظر فاسد ، وتفكير سقيم ، فالقلوب العمياء والنفوس المريضة تنظر إلى قيم ومبادىء الأخلاق على أنها قاسية ثقيلة ، وأنها تقف فى طريق سعادة الفرد والمجتمع وأن الغاية من الحياة ليست إلا تحقيق ما تصبو إليه النفوس من القيم المادية والمنافع الذاتية ، وهذا كله وهم يجر الكثيرين إلى الجرى وراءه والتعلق به ، ليس الأمر كما يظن هذا البعض إذن ، وليس صحيحاً على الإطلاق ما قاله الفيلسوف « كنت » من أنه يوجد فى هذه الدنيا تنــــافر ظالم بين الفضيلة والسعاده ، فإن فى هذه الدنيا على العموم بالحالة التى يسيرها الله تعالى بها ، العدل الكافى والراجح أن ضعف الإنسان لا عقله هو الذى يشكو قلة العـدل وعدم كفايته . (١) أن قانون الأخلاق لا يحرم الإنسان من الثروة التى هى ثمرة عادية يستحقها لعمله وجهده المشروعين ، ولا يحرمه من اللذة وهى حاجة طبيعية ، ولا من السعادة التى هى هدفه فى دنياه وآخرته ولكنه يهديه إلى أنه يجب عليه فى بعض الحالات أن يضحى للخير بالثروة وباللذائذ وبالسعادة بل وبالحياة ذاتها ، وأنه إذا لم يعرف كيف يقرب هذا القربان فإنما هو يعبد الطـــاغوت ولا يعبد الله الحق أن الله تعالى لم يحرم على الإنسان طيبات الرزق ولا المتعة والزينة ، بقوله تعالى : قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبـــاده والطيبـــات من الرزق . أن الإنسان الذى لا يتلذذ إلا اللذات المحرمـــة ولا تطيب نفسه إلا بالرغبات

---

(١) علم الأخلاق لارسطو (مقدمة المترجم) ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦ .

والشهوات غير الأخلاقية ، هو الحقيقة إنسان مريض قلبه ، زاغ عن طريق الفضيلة واستمرأت نفسه الخروج عليها والعمل بضدها . ثم تنبغى الإشارة إلى أن الشهوة واللذة ليسا متلازمين ولا مترادفين ، ونحن نجد القرآن الكريم يصف المجرمين بأنهم يتبعون الشهوات والأهواء ، فإن من عجائب النفس الإنسانية أنها تتعلق تعلقاً شديداً بشهوات لا تؤدى إلى اللذة ، بل قد تسبب المشقة والألم ، ولكن النفس قد اعتادتها وسارت عليها ، وإلا فأى لذة حقيقية يشعر بها شارب الخمر أو آكل لحم الخنزير أو المغتاب لأخيه ، أو الشامت فى مصيبة تنزل بغيره أو المتلذذ بتعذيب غيره وتنغيص عيشه ؟ أليست هذه كلها شهوات تجر أصحابها إلى تجاوز القيم الخلقية إلى مجال غير أخلاقى ؟ أليس مثل هؤلاء كمثل الكلاب أو آكل لحوم البشر ؟ أترضى لنفسك لحظة أن تكون واحدا من هؤلاء ؟ وأهم ما ننبه إليه إذن أن الأخلاق هى فى حد ذاتها غاية ، لأن الكمال الإنسانى هو المثل الأعلى الذى ينبغى على كل من يعقل أن يتجه إليه ، ولا يمكن أن تكون الغاية فى الحياة هى مجرد تحقيق بعض المنافع واللذات التى يختلف الناس دائما على تحديدها وتقدير أولوياتها ، والقانون إذا كان ينظم حياة الأفراد فى المجتمع ويضع لهم من القواعد الملزمة ما يحقق لهم المنافع المادية والرغبات المعيشية وحدها بغير النظر إلى أى اعتبار خلقى فهو قانون غير أخلاقى وهو قانون غايته والهدف منه الافساد لا الاصلاح واعتبار الإنسان جسدا بغير روح والحياة الدنيا حياة بغير آخرة ، وان قام القانون على خلاف ذلك فجعل غايته القيم الخلقية وتحقيق مكارم الأخلاق والسمو بالفرد والمجتمع إلى مدارج الكمال والمثل الرفيعة فهو قانون أخلاقى بل هو الأخلاق ذاتها ولا ينبغى أن تضيع الحياة ابتغاء لوسائل الحياة .

الاخلاق وعلم الاجتماع :

إذا كان الضمير هو محور علم الأخلاق وهو الرقيب على الإنسان فى سلوكه الخلقى ، فإن علماء الإجتماع يصطدمون بتلك الحقيقة الاولى عن الضمير وأهميته ودوره ، ويذهب بعضهم إلى أن الضمير لا يخرج عن كونه مجموعة من العناصر الإجتماعية المستمدة من صميم بيئتنا فليس الشعور الخلقى - فى رأسهم - سوى صدى يتردد فى أعماق نفس الفرد لاوامر العقل الجمعى ونواهيه ومعاييره وقيمه ومعنى هذا أن الضمير هو نتيجة لتأثير البيئة والوراثة والتربية أو التنشئة ، وإذن فكل مخالفة للقاعدة الأخلاقية لابد فيما يقول دوركايم (١٨٥٨—١٩١٧) أن تستثير الضمير الجمعى الذى يخضع له فى العادة كل ضمير فردى .

وهذا الرأى يحمل فى طياته أدلة تناقضه وخطئه ، لأن الضمير الخلقى إذا كان مجرد صدى للضمير الجمعى لترتب على ذلك تماثل كل أفراد المجتمع فى ضمائرهم ولما ظهر بينهم من يخالف الضمير الجمعى كما يسمونه .

ثم أن المشاهد أن الأسرة الواحدة وهى وحدة إجتماعية صغيرة ، يجمعها وحدة الاصل والنشأة ويسودها نمط واحد من الحياة المشتركة والتربية ، ومع ذلك فمن المشاهد أنه يوجد بين أفراد الأسرة الواحدة أشقاء تتباين شخصياتهم وتختلف ضمائرهم فمنهم ذو الخلق والذى لا خلق له وذو الضمير اليقظ ومن ماتت مشاعره ، ثم أن هذا الرأى يسلب الفرد حريته وإستقلاله فى إختيار مسلكه فى الحياة والقيم والمثل التى يرتضيها لنفسه ويسعى إلى تحقيقها وبلوغها ، فليس المجتمع إذن مجرد قطيع ينصاع لأغلبية أفراده ، وليس الفرد مجرد عجينة يشكلها المجتمع كما يشاء ، وإذا كان فى كل مجتمع جماعة تضل السبيل وتنأى عن المنهج الخلقى ولا يلتقى أفرادها على خير أو معروف ، فإن فى كل مجتمع دائماً طائفة

تخالف تلك الجماعة وتقف أمامها كالسد الثابت ، تدافع عن قيم الخير والحق والأخلاق » وأخيراً فإن هذا القول يدخلنا فى حلقة مفرغة وجدل عقيم ، فإنه إذا كان العقل الجمعى أو فكر الجماعة هو ضميرها وهو المسيطر على أفراد المجتمع ، فهل نشأ هذا الضمير الجمعى إلا من إجتماع ضمائر الأفراد ؟ وهل يمكن أن نتصور أن ضمير الجماعة قد نشأ من غير أفرادها » فأى الجانبين قد أثر فى الآخر وسيطر عليه إذن ؟

أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد هدانا إلى هذا ونبهنا إليه ودعا إلى إستقلال كل فرد بفكره وضميره ، فقال عليه السلام : لا يكن أحدكم أمعة يقول أن أحسن الناس أحسنت وأن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم أن أحسن الناس أن تحسنوا وأن أساءوا أن تجتنبوا أساءتهم وليس معنى ما تقدم أننا ننكر تأثير أفكار المجتمع وعاداته على أفراده ولكن ما ينبغى التنبيه إليه أن هذا التأثير الإجتماعى ليس هو وحده ما يصوغ بناء الإنسان النفسى والعقلى ، وإنما تشارك معه عوامل أخرى فى هذه الصياغة ، منها الوراثة والميول والاستعدادات الذاتية والأمراض الجسمية والنفسية والعصبية ، ثم ما هو أكبر من ذلك : إرادة الله تعالى ومشيئته فى الهداية أو الضلال ..

الاخلاق والعلوم الأخرى :

بداية يجب أن نفرق بين علم الأخلاق الاسلامية وبين علم الأخلاق الوضعى ونحن نتصدى للبحث فى علاقة كل منها بالعلوم الأخرى ..

ثم علينا أن نقسم العلوم الأخرى إلى قسمين :

الاول : يشمل العلوم التى تعتبر مصادر للعلم وأصولا يستمد منها مكوناته ويقيم عليها بناءه »

والثانى : يشمل العلوم التى تعتبر مساعدة أو معاونة لعلم الأخلاق وسوف نتناول القسمين فيما يلى :

أولا : بالنسبة للأخلاق فى الإسلام :

١ — المصادر والاصول :

أن مصادر علم الأخلاق فى الإسلام ترجع إلى أربعة مصادر هى :

أ — القرآن الكريم وفيه الكثير من الآيات التى تأمر بمكارم الأخلاق وتدعو إلى التمسك بالقيم الخلقية العظيمة مثل الصبر وكظم الغيظ والإيثار والعفو وبر الوالدين والإحسان إليهما وحسن القول واجتناب الكثير من الظن ، وترك التجسس والغيبة والنميمة والشح والبخل والنفاق والرياء والكذب والإختيال والفخر والغرور .

ب — السنة الشريفة : وقد جاءت السنة الشريفة تحمل كل ما يتعلق بجوانب الحياة الإنسانية بالنسبة للفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات التى يمكن أن تقوم بين الأفراد فى داخل المجتمع وبين المجتمع الإسلامى والمجتمعات الاخرى غير الإسلامية وتشمل من بين ما تتضمنه قواعد الأخلاق والقيم الخلقية التى ينبغى لكل من الفرد والمجتمع المحافظة عليها والسعى لبلوغها ونجد ذلك فى السنة القولية أى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلاة وفى السنة الفعلية أى سلوكه وأفعاله عليه الصلاة والسلام والتى تعتبر منهاجاً كاملا للحياة الإنسانية كلها .. فى السفر والإقامة والتحدث والكلام والزيادة والضيافة وتناولى الطعام والتعامل مع الناس فى البيع والشراء والرهن ومعاملة أزواجه وذوى قرابته وصحابته ومن كان يقوم بخدمته .

عن أنس رضى الله عنه قال : ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال قط : أف ، ولا قال لشىء فعلته ، لم فعلته ولا لشىء لم أفعله إلا فعلت كذا . ؟ (متفق عليه) .

وتعد السنة التقريرية مصدرا للأخلاق كذلك ، وهى ما أقره الرسول عليه الصلاة والسلام من أفعال وأقوان وأقوال وقعت أمامه أو أبلغت إليه ، فوافق عليها أو أظهر رضاه عنها واستحسانه لها أو سكت عنها لأنه عليه الصلاة والسلام لا يسكت على خطأ أو باطل . .

ومن ذلك ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء فقال رسول الله ﷺ : دعه فان الحياء من الإيمان (متفق عليه) .

وعن جندب بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث بعثا (جيشا) من المسلمين إلى قوم من المشركين وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله وإن رجلا من المسلمين قصد غفلته وكنا نتحدث أنه أسامة بن زيد فلما رفع عليه السيف قال : لا إله إلا الله فقتله فجاء البشير إلى رسول الله ﷺ فسأله وأخبره حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع فدعاه فسأله فقال : لم قتلته ؟ فقال : يا رسول الله أوجع فى المسلمين وقتل فلانا وفلانا وسمى له نفرا ، وانى حملت عليه فلما رأى السيف قال : لا إله إلا الله ، قال رسول الله ﷺ : أقتلته ؟ قال : نعم قال : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال : يا رسول الله استغفر لى . قال : وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ، فجعل لا يزيد على أن يقول: كيف تصنع بلا إله إلا الله

إذا جاءت يوم القيامة . (رواه مسلم) .

(ج) أخلاق الصحابة :

والمصدر الثالث للأخلاق فى الإسلام هو أفعال الصحابة وأخلاقهم ، لقول الرسول ﷺ : أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . وقال ﷺ : . . وأنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » .

(د) العادات والتقاليد الاسلامية :

وإلى جانب مصادر الأخلاق الإسلامية فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأخلاق الصحابة رضوان الله عليهم فإن أمام المسلم مصدر رابع لمكارم الأخلاق يتمثل فى الصالح من أعراف المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم التى يتوارثونها جيلا بعد جيل ، مثل مشاركة الناس بعضهم بعضا فى الأفراح والأحزان ، ومثل إكرام الأب لبناته وسخائه معهن عند الزواج ، ومثل تقديم الهدايا وقبولها فى مختلف المناسبات ، ومعاونة العروسين بالهدايا والمال ، وقراءة القرآن الكريم بالمآتم والمواقف المختلفة ، والكرم ، والمروءة والشهامة ، والإسراع إلى إغاثة المنكوب أو المحتاج ، والاحتفال بالأعياد الإسلامية ومعاونة المسافر والغريب ، وحسن معاملة غير المسلمين الذين يعيشون بينهم أو يتعاملون معهم ولاشك أن هذه العادات والتقاليد لا تعارض الإسلام ولا تخالف أحكامه ، وأما العادات والتقاليد والاعراف التى تشيع فى المجتمع الإسلامى وتخالف أحكام الشرع الحنيف وتخرج عن حدوده ومعالمه فإنها قيم فاسدة وتقاليد وعادات وأعراف منكرة ، لا ينبغى أن يقتدى بها مسلم أو مسلمة ، بل عليه أن يقاومها ما وسعه الجهد بيده أو بلسانه أو بقلبه وذلك أضعف الإيمان . . .

ومن أمثلتها فى مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة ما يحدث فى المناسبات المختلفة وحفلات الزواج من اختلاط الرجال بالنساء ومشاهــدة الرقص الخليع من راقصات عاريات وسماع الغناء الذى يدعو إلى الانحلال ويساعد على الفساد . . ومنها كذلك إرتداء النساء والفتيات للزى الذى يكشف ماينبغى ستره من أجسامهن وكذلك إرغام الفتيات على الزواج ممن لا يقبلن الزواج به ، وتمييز الذكور على الأناث فى المعاملة وفى الحقوق حتى حق الميراث الشرعى، وأيضا مظاهر الإسراف والتبذير التى تبدو فى تكرار الحفلات ، كأعياد الميلاد والذكريات الهامــة ، والعرس والمــآتم ، ومن فقراء أولئك المسرفين المبذرين من هم فى أمس الحاجة إلى الضروريات .

ولو سرنا نعدد ما نلمسه من قبيح العادات والتقاليد لسردنا الكثير ، ولكن ما ينبغى أن نشير إليه هو أنها كلها أعــراف وعادات غير معتبرة شرعا ، ومن تمسك بها وحرص عليها كان من أهل البدع والضلال .

٢ — العلوم المساعدة :

الإسلام دين يحث على طلب العلم ويجعله فريضة وكل علم ينفع المسلمين فطلبه واجب ، سواء نفعهم فى أمور الدين ، أو فى معاشهم بالدنيا أو فى جهادهم للأعداء . وفى مجال الأخلاق نجد عددا من العلوم التى تساعد فى دراسته واثراء أبحاثه : وذلك مثل علوم السير والتاريخ الإسلامى ، والأدب ، والقصص الذى تتناول حيــاة الأنبياء وأبطال المسلمين . . وتاريخ الأخــلاق وغــير ذلك من العلوم .

ثانيا : بالنسبة لعلم الأخلاق الوضعى :

ليس لعلم الأخلاق الوضعى أية مصادر آلهية أو دينية وإنما هو علم من وضع

البشر ، جاء وأيد أفكار الفلاسفة والمفكرين والعلماء على مر العصور .

وترجع الجذور البعيدة لعلم الأخلاق الوضعى إلى عصر الفلسفة اليونانية وكان لسقراط والرواقيين وأفلاطون وأرسطو سبق لا ينكر فى التأليف فى الأخلاق فى العصر القديم وجاء الفيلسوف كنت مكملا لهم وصاحب مذهب أخلاقى فى العصر الحديث ، فتكلموا عن الغاية من الحياة وعن الفضيلة والنفس والعلم .

ووضعوا منهجهم الأخلاقى على أساس السير على هدى العقل الإنسانى ، وأعظم خطأ يقع فيه الإنسان هو مخالفة أحكام العقل والعلم ، فكأن علم الأخلاق الوضعى يجعل الإنسان يضع قوانين الأخلاق لنفسه . مستهديا بغاية نبيلة هى الخير أو السعادة ووسيلته فى التهذيب الخلقى هى النصح بالاعتدال ، فحمل الجسم على الاعتدال ورياضته إلى حد ما وإيتاؤه حقه من حاجاته وحبسه عن كل ما يتعداها وعلى جملة من القول جعل الجسم آلة ممتثلة وخادما مطيعا ، تلك هى إحدى القواعد الأصلية للحياة الأخلاقية ، وبالنتيجة أحد الأجزاء الكبرى للعلم . إن اجتماع الروح فى الجسم أعنى العقل والمادة هو من المسائل الخفية التى تدخل فى اختصاص علم ما وراء الطبيعة ولهذا لم يكن غريبا أن ينشأ علم الأخلاق فى كنف الفلسفة وأن يكون له حظ وافر من أبحاثها ومؤلفاتها ، فكتب سقراط عن الفضيلة واعتبر الفضيلة علما والرذيلة جهلا ، وهذا الرأى يبدو صحيحا تماما إذا اعتبرنا أن ما يقصده هو العلم الحقيقى اليقينى ، وليس مجرد أن يعلم المرء أن الكذب أو الزنا شر ، وكأنه يقصد أنه لو علم كل إنسان حقيقة الفضيلة وحقيقة الخير لما تردد لحظة فى التوجه إليها بكليته ، ولو علم قبح الرذيلة والشر الكامن فيها لما فكر فى الإقدام عليهما .

أما أفلاطون فلا نجد من الأخلاقيين من فهم الضمير أحسن منه مع أنه لم

يسميه بأسمه الحقيقى إذ كان لا يميز بينه وبين العقل ، غير أنه لا يوجد من عرفه ووصفه أحسن منه .

أما أرسطو فقد ألف فى الأخلاق ثلاثة كتب أحدها علم الأخلاق الكبير وثانيا علم الأخلاق إلى اوديم وثالثها علم الأخلاق إلى نيقوماخوس والظاهر أن الذى ترجمه العرب واشتغلوا به من هذه الكتب الثلاثة هو الأخير أى علم الأخلاق إلى نيقوماخوس وهو أصدقها فى النسبة إليه ، فقد قال الفريد وموريس كروازيه ، فى كتابهما الآداب اليونانية إنه هو الوحيد الذى صحت نسبته إلى أرسطوطاليس (١) .

ولقد ظلت الأخلاق مرتبطة بالفلسفة وداخلة فى موضوعاتها مع غيرها من الموضوعات والعلوم الأخرى ، حيث كانت الفلسفة هى الأم الكبرى لكل العلوم التى إصطلح على تسميتها بالعلوم الانسانية . فلقد كتب أرسطو فى المنطق والسياسة وعلم النفس والبيولوجيا .

على أن إشتغال الفلاسفة بعلم الأخلاق كان أمراً طبيعياً ، تمليه مناهج البحث العلمى فى تلك العصور ، فإن الأخلاق وثيقة الصلة بالنفس ودراسة النفس هى من أهم موضوعات علم ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا ، وهى أهم جوانب البحث الفلسفى .. ولذلك ظلت الأخلاق مندمجة حقباً طويلة ، وتأخر إنفصالها عنها وإستقلالها بذاتها ، وإستمرت داخلة فى إطار البحث الشمولى للمعرفة ، بينما شهدت العصور القديمة والوسطى إنفصال وإستقلال بعض الموضوعات والعلوم مثل : الطب والتشريع والتاريخ ، ولقد شهد التطور التأملى للعلم فيما بين القرنين

---

(١) الأخلاق لارسطو ـ المرجع السابق ـ تصدير « أحمد لطفى السيد » .

السادس عشر والتاسع عشر نمواً مستقلا لأنساق علمية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا ، وخلال هذه الفترة ذاتها بزغت فكرة المنهج العلمى بحيث أصبح لكل نسق من العلوم مناهجه الخاصة به .

وكان أبرز ظاهرة ترتبت على ذلك إنقسام العلوم إلى قسمين رئيسيين هما العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، وكان لابد لهذا التطور الذى لحق بميدان العلوم الطبيعية تأملا جديداً لأسس ومناهج الدراسات الإنسانية . والواقع أن دراسة الإنسان قديمة قدم دراسة الطبيعة ، وفى خلال العصور الوسطى وعصر النهضة تشعبت الدراسات الإنسانية إلى إتجاهات متباينة ، وفيما بين عامى ١٧٥٠ و ١٨٥٠ على وجه التحديد حدثت الثورة العلمية ، فأصبح التاريخ أكثر علمية وابتعد عن الاتجاه الأخلاقى ، وظهر مبدأ الحتمية وارتبط بالوقائع ، وامتد هذا إلى دوائر التاريخ الاجتماعى والاقتصادى وظهرت علوم الاقتصاد والاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا كعلوم مستقلة .

لقد وضع جون استيوارت مل مصطلح العلوم الأخلاقية: «Maral Sciences» لكى يدل به على تلك العلوم التى نمت نموا كبيرا فى القرن التاسع عشر وتمايزت من مجموعة العلوم الطبيعية ، وهذا يعنى أن دراسة الإنسان تختلف عن دراسة الطبيعة ، ولقد أثار هذا المصطلح ودلالاته الكثير من المناقشات المنهجية : ودفع إلى التساؤل عما إذا كان يمكن أن تحاكى العلوم الأخلاقية علوم الطبيعة الفائقة الدقة .. وعما إذا كان يمكن أن تقف العلوم الأخلاقية على أقدامها ..

ورغم أن التصنيف الثنائى للعلوم إلى علوم طبيعية وأخرى أخلاقية له معنى دقيق ومفيد إلا أنه لم يكتب له الذيوع والاستمرار للغموض الذى يكتنف تحديد العلوم الأخلاقية ، ولذلك حل محله مصطلح الدراسات الإنسانية وهو مصطلح

بعداً يذيع وينتشر رغم إشتهار مصطلح العلوم الاجتماعية والإنسانيات كمترادفين لذلك، ويمكن تعريف الدراسات الإنسانية بأنها دراسات تتعلق بالإنسان .

وهناك أيضا رأى فلسفى يرى أن موضوع الدراسات الإنسانية يتمثل فى عالم العقول « The world of minds » فى حين يتمثل موضوع العلوم الطبيعية فى عالم المادة The world of matter .

والواقع أن عبارة « عالم العقول » يمكن أن تكون مقبولة وغير معترض عليها من أحد إذا استطعنا تحديد معناها بالضبط وأشرنا إلى متضمناتها ، أن عالم العقول يشير إلى أى محتوى عقلى : « Mental content » كالأفكار والمشاعر والرغبات والنوايا والمقاصد ، أو إلى أية أفعال تقترن بها أو تصاحبها ، وهذا يشمل علوما مثل الدين ودراسة المؤسسات والأدب والشعر وغيرها (١) .

والخلاصة إذن أن علم الأخلاق الإسلامية هو علم دينى يعتمد على مصادره الثابتة فى القرآن والسنة وسلوك الصحابة المطابق للدين، وعلى الأعراف والعادات والتقاليد الاجتماعية التى لا تخالف أو توافق الشريعة الإسلامية، وموضوعه سلوك الفرد الذى يمثل الجوانب المعنوية فى حياته وعلاقاته بغيره من الأفراد .. وبذلك تخرج عن نطاقه الجوانب المادية والعملية فى المعاملات بين الفرد وغيره كالبيع والشراء والزواج والرهن والإيجار إذا تجردت من النواحى المعنوية ..

أما علم الأخلاق الوضعى ، فإن مصادره وأصوله بشرية عقلية ، وهو يتصل

---

(١) منهج جديد للدراسات الإنسانية ، تأليف هـ.ب ديكمان ترجمة دكتور على عبد المعطى محمد ودكتور محمد على محمد الطبعة الأولى — مكتبة مكاوى — بيروت ص ١٠٥ .

يعدد من العلوم الإنسانية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم البيولوجيا وغيرها .

هذا وتصدر الأفعال الخلقية عن الفرد بجملته أى باعتباره شخصية متكاملة لا بمعنى أنه مجموعة من الصفات يحملها فرد معين بل بمعنى الصورة المنظمة المتكاملة لسلوك فرد يتميز به عن غيره ، فالأخلاق إذن هى شخصية الإنسان بما فيها من مشاعر وأفكار وصفات جسمية ووجدانية وعقلية وخلقية فى حالة تفاعلها بعضها مع بعض وتكاملها فى شخص معين يعيش فى بيئة اجتماعية معينة .

ومما يدل على أن الأخلاق تمثل الجوانب المعنوية فى حياة الإنسان قول الرسول عليه الصلاة والسلام : أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم ، وقوله الله سبحانه وتعالى : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » وقوله تعالى : لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . ونخطىء حين نعرف الأخلاق بأنها مجرد السلوك الخلق للإنسان ، فإن هذا تعريف قاصر ، لا يشمل إلا جزءاً من الأخلاق فحسب ، يضاف إليه كل ما يجول بنفسيه الفرد سواء تجسمت هذه الخواطر فى سلوك خارجى أو ظلت مجرد فكرة خالصة (١) .

وثمة تعريفات أخرى لعلم الأخلاق ووظيفته منها : أن وظيفة علم الأخلاق الأساسية هى البحث فى الاعمال التى يقوم بها الناس وإصدار حكمه عليها بأنها خيرة أو شريرة (٢) .

---

(١) مبادىء الأخلاق تأليف الدكتور ماهر كامل والدكتور عبدالمجيد عبدالرحيم - مكتبة الانجلو المصرية - الطبعه الاولى عام ١٩٥٨ - ص ٧ .

(٢) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق - تأليف أبو بكر ذكرى وعبد العزيز أحمد - طبعة رابعة ١٩٦٥ - ص ٣٥ .

ويعرف كذلك بأنه علم يوضح معنى الخير والشر ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصد إليها الناس في أعمالهم وينير السبيل لما ينبغي.(١) ويعرف البعض الأخلاق بأنها مجموع الخصال التي يشب عليها الإنسان فتميزه عن غيره.

والحقيقة أن هذا التعريف الأخير يقترب من الدلالة على معنى الخلق أكثر مما يحدد معنى الأخلاق كما سيتضح ذلك عند الكلام عن الخلق بعد قليل.

وأرى أنه من الواجب في مجال تعريف الأخلاق أن نفرق بين أمرين: تعريف علم الأخلاق وتعريف الأخلاق ذاتها .. فأكثر ما يجعل التعريفات غير وافية هو عدم النظر إلى تلك التفرقة.

فالأخلاق تشمل القيم السامية التي يؤمن بها الفرد والمجتمع والسلوك الذي يسيرون عليه الوصول إليها وتحقيقها.

أن الأخلاق إذن لا تشمل إلا ما هو حسن وجميل ومحمود عند الله تعالى وعند الناس.

أما علم الأخلاق فإن دائرته ونطاقه أوسع من دائرة ونطاق الأخلاق .. دراسة واسعة تسير على نفس نمط الدراسة المنهجية لمختلف العلوم فتشمل نشأة علم الأخلاق وتاريخه وتطوره، كما تعرض النظريات والمدارس والمذاهب الأخلاقية، المختلفة وتبرز ما بينها من تعارض بل وتناقض أحياناً ولذلك قل أن يخلو كتاب لعلم الأخلاق الوضعية من إبراز مذهب كنت ودوركايم، وتأثيرهما وتأثير فلسفتها الإجتماعية على النظريات الأخلاقية، مع أن الأول يتنكر للروح

---

(١) كتاب الأخلاق للدكتور أحمد أمين - طبعة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م.

والنفس ولمباحثها الأولى والثانى لا يقف من الدين موقفاً يجعله من المدافعين عنه ولو نظرياً .

ولا يترك علم الأخلاق حين يعرض آراء فلاسفة اليونان فى الأخلاق آراء الأبيقوريين التى تقوم على مذهب اللذة ، إلى جانب آراء الرواقيين التى تتسم بالأخلاقية .

ثم إننا نجد خطأ آخر يوشك أن يقع فيه بعض الكاتبين فى الأخلاق الإسلامية، وهو سيرهم على نهج الدراسة الغربية لذلك العلم ، أو بعبارة أخرى إتباعهم منهج علم الأخلاق الوضعية ، ليس فى مجال التعريفات فحسب بل وفى الدراسة المنهجية لموضوعات الأخلاق ، مثل القيم والسلوك والعادات الإجتماعية .

وقد سبق أن أشرنا إلى علم الأخلاق الإسلامية هو علم مستقل بذاته تماماً عن علم الأخلاق الوضعية ، وإلى أن الأخلاق هى قسم من أقسام الشريعة الإسلامية تكون مع العقائد والفقه أحكامها وبنيانها .

وليس ثمة مجال للتغيير أو التحوير فى أحكام الشريعة الإسلامية فى مجال الأخلاق لأى غاية أو تحت أى ظروف إجتماعية أو سياسية أو إقتصادية .. لسبب هام هو أن الأخلاق - حتى عند أصحاب المذاهب الأخلاقية الوضعية - هى غاية تقصد لذاتها وليست وسيلة لتحقيق غاية أخرى .

وبالنسبة لأحكام الأخلاق وقواعده فى الشريعة الإسلامية ، أننا عند التأمل فيها نلاحظ أنها أحكام وقواعد ذاتية وليست موضوعية ، ونقصد بذلك أنها ليست واحدة بالنسبة لجميع الأفراد ولا فى كل المواقف والظروف بل هى تتغير وتختلف من فرد إلى فرد ومن حالة إلى أخرى. بل أنها تختلف بالنسبة للفرد الواحد فى مراحل عمره وفترات حياته .. ويختلف الحكم الخلقى فى كل

حالة وفى كل موقف .. ولتوضيح ذلك الأمر نقول أن أحكام الشريعة الأخرى سواء فى قسم العبادات أو الفقه هى عبادات موضوعية وثابتة بالنسبة لجميع المسلمين ، فالصلاة مثلا تفرض على الإنسان كتاباً موقوتاً منذ صباه حتى شيخوخته وإلى أن يلق ربه ، لا تسقط عنه ولا تتغير كيفية أدائها ، وكذلك الأمر بالنسبة للصوم ، ومشاعر الحج وأركانه ينبغى أداؤها بصورة واحدة لجميع من يقومون به ، وتجد مثل ذلك بالنسبة لأحكام الفقه فى أحكام الزواج والطلاق والميراث والشفعة والبيع والإيجار والقرض والوديعة والعارية ، لا تتغير قواعدها ولا شروطها وأركانها باختلاف مراحل العمر ولا بالنظر إلى حالات الإنسان ، حتى أنه يمكن للطفل الصغير أن يبرم العقود ويجرى كافة المعاملات التى تحقق مصلحته على أن يتولاها عنه وليه ، أما أحكام الأخلاق وقواعده فهى غير ذلك ، أنها ذات طابع ذاتى بمعنى أنها ليست قواعد عامة ثابتة وإنما تتغير كما ذكرنا بالنسبة للوقت والعمر والمواقف والظروف ، والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى بإيراد بعضها بقصد البيان والتوضيح :

فالغضب رذيلة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : لا تغضب ، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان يشتد غضبه إذا انتهكت حرمات الله .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت قدم رسول ﷺ من سفر وقدسترت سهوة(١) لى بقرام (٢) فيه تماثيل ، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه (أفسد الصور التى فيه) وتلون وجهه وقال : يا عائشة : أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله (متفق عليه) .

---

(١) السهوة : جزء فى مدخل البيت .
(٢) القرام : بكسر القاف ستر خفيف .

فالحلم والصبر وعدم الغضب يعتبر رذيلة وإثما إذا كان فى موقف يتطلب من المسلم الغيرة على عرضه أو دينه أو حكام الله تعالى وحرماته ..

والكذب أثم مبين ، ولكنه لا يكون أثما أو جرماً فى بعض الحالات فمثلا إذا إختفى المسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله وأخفى ماله وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه ، وقد استدل العلماء بجواز الكذب فى مثل هذا الحال بحديث أم كلثوم رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى (يبلغ) خيرا أو يقول خيرا (متفق عليه) وقد زاد مسلم فى رواية : « قالت أم كلثوم ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقوله الناس إلا فى ثلاث : تعنى الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها » .

ومن أمثلة ازدياد الاثم وعظم الذنب تبعاً لحالات الآثمين : قوله عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » والعائل هو الفقير ..

والله تعالى يأمر بحسن القول، والرسول ﷺ يوصينا أن نخاطب المسلم بأحب الألقاب إليه ، ولكنه ﷺ نهى عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسيد ونحوه ، فعن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقولوا للمنافق سيدا فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل (١) والمرء حين يكون صغيرا فعليه طاعة من هو أكبر وتوقيره فإذا كبر لقى الطاعة والتوقير ممن هو أصغر منه ، ومن الفضائل الخلقية حسن العشرة وطيب المعاملة

---

(١) رياض الصالحين للنووى ص ٦٠٥ .

وبذل المودة لمن يعاشرهم المرء ولأهل قرابته ، ولكن ذلك ليس حكما عاما يلزم المؤمن مع جميع معاشريه ، فقد حرم الله ذلك على من يحادون الله ورسوله ، أى يخرجون على شريعة الله تعالى وينتهكون حرماته، فلا حق لقريب فاسق أو زوجة فاجرة سيئة الخلق فى مودة ومعونة ، لأن فى ذلك إعانة للظالم ، ومد له فى أسباب الغى والضلال ، ولاحق لأمثال أولئك إلا فى الأمر بالمعروف والنصيحة ، فإن استجابوا فيها وإلا فالهجر والترك والاعتزال .

يقول تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين » قيل لابن عباس رضى الله عنهما : ما كانت تلك الخيانة ؟ فقال: كانت امرأة نوح تقول زوجى مجنون وامرأة لوط تدل النـــاس على ضيفه إذا نزلوا به ..

وأما ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام فقد ود أن ينقـــذه من الغرق فى الطوفان فنادى ربه ودعاه .. يقول تعالى : « ونادى نوح ربه فقال رب أن إبنى أهلى وأن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح أنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين : قال رب أنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين (١) .

فمع أنه كان إبنه فإن النجاة إنما تكون للمؤمن (أنا منجوك وأهلك) وشرط النجاة هو الإيمان بنبوة نوح وشريعته وأن الأهلية الحقيقيه معدومة

---

(١) سورة هود « الآيات : ٤٥ — ٤٧ »

الثمرة مع الكفر ومجانبة الإيمان ومخالفة الداعي إليه (١) .

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل خبزك إلا تقي » وقال عليه الصلاة والسلام: المرء على دين خليله فلينظر كل امرىء . من يخالل . وقال عليه الصلاة : الصاحب رقعـــه في الثوب فلينظر الإنسان بم يرقع ثوبه .

وإذن فليس بذل الود مطلقاً لجميع الناس ، ولا الصداقة متاحة لكل من تميل النفس إليه أو لكل من يصادفه الإنسان ، فإن الوحدة خير من جليس السوء فكيف بمصادقة أهل السوء ؟

ثم ينبغي أن ننسى أن ذلك المسلك من جانب المؤمن يحارب الاثم ويصد عن الفجور ، فالأخ أو الأخت أو الزوجة أو الإبنة أو الصاحب ، إذا تيقن كل أولئك أنهم يخسرون مودتك إذا حادوا عن الجادة وآثروا الغواية والضلال فقد يثوب إلى الرشد منهم من أراد الله له النجاة . على أن الجفاء وحده لا يكفي مع أمثـــال هؤلاء ، بل يجب أن يقترن باجتناب ما يبغض غيره من أجله ، وإلا كان ممن ينكر على غيره ما ينكره من نفسه ، ثم أنه إذا لم يفعـــل هذا زاد الضال ضلاله والغاوي غياً ..

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المبتدع ومن اقترف ذنباً عظيماً ولم يتب منه ، فلا ينبغي أن لا يسلم عليهم ولا أن يرد عليهم السلام ، كذا قاله البخاري وغيره من العلماء ، واحتج الإمام البخاري في صحيحه في هذه المسألة بما جاء في صحيحي البخاري ومسلم في قصة كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة تبوك .

---

(١) قصص الأنبياء تأليف عبد الوهاب النجار مكتبة دار التراث . ـــ ص ٤٥

هو ورفيقان له (وهما هلال بن أمية ومرارة بن الربيع) قال : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، قال : وكنت آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه فأقول : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ قال البخارى ، وقال عبد الله بن عمر : لا تسلموا على شربة الخمر . قلت فإن اضطر إلى السلام على الظلمة ، بأن دخل عليهم وخاف ترتب مفسدة فى دينه أو دنياه أو غيرهما إن لم يسلم ، سلم عليهم . قال الإمام أبو بكر بن العربى : قال العلماء : يسلم وينوى إن السلام إسم من اسماء الله تعالى ، والمعنى أو المقصد : أن الله عليكم رقيب (١) .

ولا يحق للمسلم أن يسلم على المرأة الأجنبية إن كانت جميلة يخاف الإفتنان بها ولو سلم لم يجز لها الجواب ، ولا يجوز لها أن تسلم هى عليه ابتداء ، فإن سلمت لم تستحق جوابا ، فإن أجابها كره له ذلك (١) .

لقد دعانى إلى بسط القول فى هذه المسألة ، ما يسيئه البعض من فهم معنى الأخلاق خاصة بالنسبة لسلوك ذو الخلق مع غيره ، فقد يكون ذو الخلق فى أسرة ليس كل أفرادها مثله ، أو فى موقع عمل يكثر فيه أهل السوء أو فى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ، ويغلب الكذب والنفاق ، فإذا لم يكن كيسا فطنا حذرا لقى العنت وللضرر الشديد ، ووقع فى حبائل الخداع والتمويه التى تنصب له ممن فى قلوبهم مرض ، فقد يخسر المؤمن ماله وسمعته وكرامته بسبب مخالطة أهل السوء بل قد يجرون الصالح إلى الفساد ، وقد حذرنا الله تعالى من إبليس وعلمنا أنه عدو لآدم وذريته وأمرنا أن نتخذه عدوا وأهل الفسق والفجور هم جنود أبليس .

(١) الاذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ﷺ تأليف الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووى شرح العلامة ابن علان . الناشر : دار عمر بن الخطاب صفحة : ٣٤٢ .

وهم بالعداوة أجدر مثله ، فالمؤمن إذا ائتمن المنافق الفاسق على سره أفشاه ، وإذا سأله النصيحة واستشاره غشه ، وإذا أمنه على عرضه انتهكه ، وإذا حلت به مصيبة شمت به ، وإذا احتاجه فى شدة زاغ منه وتنكر له .

ولا يتطلب الأمر مثل هذا الحذر فى المعاملات التى لا تتطلب مخالطة ولا معاشرة ولا صحبة ، مثل البيع والشراء وإجارة المنافع ، ولكنه واجب فيما يتطلبها مثل المشاركة والمصاهرة والصداقة وغير ذلك .. وإذا ابتلى المؤمن بمن لا تجوز عشرته فلينكر خلقه بقلبه أن عجز عن تقويمه بالفعل أو النصيحة ، وليصبر حتى يجعل الله من ذلك مخرجاً والله على كل شىء قدير .

وقد يتساءل المرء : أنى لى أن أعرف ذا الخلق من لا خلق له ، حتى أحذره وأنأى بنفسى وعرضى ومالى عن أذى الأشرار ؟ والناس قد كثروا وازدحمت بهم المجتمعات ، ولا يعرف الصالح من الطالح ثم أن أى إنسان خاصة صاحب النوايا والمآرب الخبيثة ـ يحسن إخفاء حقيقته والتظاهر بضدها . والحقيقة أن هذا القول فى مجمله صحيح . والرسول عليه الصلاة والسلام عرض له هذا ، ففى مجتمع المدينة لم يكن عليه السلام يعرف المنافقين ، أو لا يعرفهم كلهم ، وبالتالى قال تعالى فى سورة براءة عن الذين مردوا على النفاق « لا تعلمهم نحن نعلمهم » .. ولكن على المرء أن يكون فطناً على كل حال ، وأن يبذل وسعه فى فهم الأفراد الذين يوشك أن يرتبط بعلاقات دائمة أو قوية معهم والرسول عليه السلام يبشر المؤمن بأن له فراسة وأنه يرى بنور قلبه ، وبعض الأفراد لهم قدرة فائقة على فهم خبايا النفوس وما يضمره الإنسان من خلق حقيقى ، ولكن الواقع أن أكثر الناس لا يملك هذه القدرة ، ولذلك يفاجأون بما لا يتوقعون . ثم أنظر إلى ابنة شعيب ، حين ذهبت إلى موسى عليه الصلاة والسلام تستدعيه لمقابلة أبيها ، كيف فطنت إلى أمانته وقالت لأبيها : يا أبت استئجره أن خير من استأجرت

القوى الأمين » (١) وقالت لأبيها لقد علمت أمانته من أنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أنى إمرأة صوب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إلى حتى بلغته رسالتك (٢) .

ولكن الناس ليسوا جميعاً مثل الأنبياء فى صدق الخلق وأكثر ما يوقع الناس فى الغش والخداع أن يحكموا بظاهر المرء دون إختبار عمله وسلوكه وتجربة التعامل معه ، وقد لام عمر رجلا شهد لرجل بالصلاح فى مجلسه لأنه لم يكن جاراً له فيعرف أحواله ولم يرافقه فى سفر فيختبر خلقه ولم يتعامل معه فيعرف صدق معاملته ولم يقبل شهادته له .

وإلى جانب الإنخداع بالمظهر فالناس يخدعون أحياناً بمهنة الشخص ومركزه، كالموظف الكبير ، وصاحب الشهرة أو المال ، أو غير ذلك ، مع إنك قد تجد غنياً خسيس النفس عديم الأمانة يسرق التافه القليل ، وقد يصادقك إنسان يهتم بالعبادات كثيراً وحين تعامله تجده قد ضيع الدين . فالدين المعاملة .

ماهية الاخلاق :

كان فيما سبق من تعريفات أوردناها لمفهوم الأخلاق ، تعريف الأخلاق من حيث آثارها أو مظهرها وهو سلوك الإنسان ..

وجدير بالملاحظة أن إصطلاح الأخلاق لا يعنى بالضرورة الأخلاق الحسنة، بل هو إصطلاح يحتمل الوضيعة فيقال أخلاق حسنة أو سيئة .. ونستطيع أن نبين ماهية الأخلاق بإيراد أهم السمات والخصائص التى تميزها ، ونجملها فى ثلاثة خصائص هى :

(١) سورة القصص : من آية ١٦ .
(٢) قصص الأنبياء تأليف عبد الوهاب النجار - ص ٢٠١ .

الخصيصة الاولى : هى أن الأخلاق موضوعها ومحلها الإنسان ذاته ، وليس ما يملك أو يحوز من عروض وأموال ، ولذلك لا يجوز أن يرد عليها ما يرد على الأموال والمنافع من تصرفات وأحكام أنها جوهر الإنسان ، نفسه وقلبه وعقله . والأخلاق بإعتبارها تمثل ذات الإنسان لا يجوز التعامل فيها أو التنازل عنها، وعندما يبيع إنسان شرفه أو ذمته أو كرامته فإنه لم يقدمها عوضاً عما ناله من متعة أو منفعة أو مال ، لأن من أشترى الشرف والذمة أو الكرامة لم يحصل عليها ولم ينتقل إليه شيء منها، وإنما هو أغرى من باعها ليختار ويوازن بين ما أمامه وبين رغباته وشهواته وقيمه ، ويملك أن يحول بين نفسه وبين ما تشتهيه فى سبيل هدف سام يبتغيه ..

أن الأخلاق فى الحقيقة ليست مجرد قيم معنوية بل هى ذات الإنسان، ونحن لا نقصد بهذا مجرد القيم السامية والقيم الدينية ، بل ينطبق نفس الوصف على القيم الوضعية وغير الخلقية ، وكل طرفين فى خصومة أو شعبين فى حرب يؤمن كل منها بأن صراعه وحربه من أجل قيم سامية وأنه وحده صاحب الحق دون خصمه.. وإذا نحن جردنا أى إنسان من كل ما يؤمن به من القيم الخيرة أو الشريرة لغدا كأنه بعيد الشبه عن الإنسان ، لأنه لن يتجه إلى سلوك أخلاقى وسيكون الفارق بينه وبين أى حيوان مشابه ، فرقا فى الشكل والهيئة أكثر مما يكون فرقا فى الماهية والطبيعة .

وليس الفرق بين "قيم الأخلاقية" التى يؤمن بها كافة البشر إلا فرقا من حيث الوصف فحسب فإن من يتخلى عنها فيصبح إنساناً بلا شرف أو بلا ذمة أو بلا كرامة ، وليس ذلك فحسب بل أن من أغرى غيره بالتخلى عن قيمه وأخلاقه قد أثم معه وأرتكب مثله ما يجرده هو الآخر من أخلاقه..

فمن يحاول أفساد أخلاق إنسان بأى ثمن لا يأخذ منه فى الحقيقة شيئاً مادياً

أو معنوياً وإنما هو يطلب إليه أن يصبح إنساناً بلا أخـــلاق أو حيواناً .. وبذلك فهو ينقده أهم ما يميز الإنسان، لأن الإنسان حيوان أخـــلاقى وهو لا يتميز عن الحيوان إلا بالأخلاق فالحيوان يأكل ويشـــرب ويقاتل ويتناسل ويستمتع بالجنس ، ومن الحيوانات والحشرات ما يدخر مما يحصل عليه لوقت الحاجة ، وتتفاهم الحيوان والطير بلغات تنطق بها .. وهى تعمل وتسعى وتهاجر وتنتقل آلاف الأميال .. وبعد ذلك تظل الميزة الوحيدة للإنسان على الحيوان أنه كائن أخلاقى لأنه يستطيع أن يختار الوصف المناسب ، فهـــذه قيم دينية والأخرى مادية أو غير أخلاقية أو نفعية وهكذا ..

والتمييز بالقـيم من حيث الوصف وحـده لا يكفى فى الصراع الدائرة بين المجتمعات البشرية ، فلا يكفى لتحقيق السبق والتفوق أن تستند أمة أو مجتمع إلى أنها صاحبة قيم سامية رفيعة أو قيم دينية وأخلاقية ، طالما أن تلك القيم لا تعدو بالنسبة لها مجرد الوصف أو التعلق بها كمثل عليا دون أن نجاوز هـذا السير ولو بضع خطوات فى سبيل تحقيقها .. ودون حاجة إلى تفـكير أو عناء نستطيع أن نحكم وأن نلمس أن أى مجتمع يعتنق قيما فاسدة ويؤمن بها أكـثر تحقيقاً للغلبة طالما أنه يعمل ويتجه إلى بلوغها .. ولعل القارىء سوف يراود ذهنه مشكلات التخلف فى المجتمع الإسلامى، وخاصة تلك المجتمعات التى تتسمى به دون أن تأخذ بشىء من قيمه ودون أن تقيم وزناً لتقاليده وأخلاقه .

وأما الخصيصة الثانية للأخلاق فهى أنها تقوم على قاعـدة العطـاء لا الأخـذ ، وعلى أساس التحمل بالواجبات وليس المطالبـــة بالحقوق وحتى بالنسبة للقيم والقواعد التى جاءت بها الشريعة الإسلامية فى مجال الأخلاق لا نجد حـــدوداً وعقوبات مقدرة توقع على مخالفتها ، فعدم البر وقطيعـة الرحم والقسوة وعدم الرفق والتجرد من الرحمة ، وعقوق الوالدين ، والتكبر والخيـلاء والفخر كلها

وغيرها من الصفات الخلقية الذميمة المحرمة ليس لها حدود أو عقوبات مقدرة في الشريعة الإسلامية كحدود السرقة والزنا والقتل والقذف وإنما تخضع جرائم الأخلاق في جملتها لعقاب الضمير الذاتي أو لازدراء المجتمع ، والبعض منها كان يتولاها المحتسب (١)

وأهم ما يجعل الأخلاق تختلف عن الجرائم ذات الحدود كالزنا والسرقة والقتل ، أن أغلب مخالفاتها يعسر وضع ضوابط محكمة لها تحدد لكل فعل خلق وصفه والجزاء الذي يستحقه وذلك أن الأفعال الخلقية لها دائماً جانبان أو ركنان أحدهما معنوي مستتر غير ظاهر يتمثل في النية والباعث والغاية والركن الآخر ظاهر وملموس ، وأغلب صور الأخلاق مستترة بل وأشدها خطورة وأفظعها جرماً هو ما تخفيه القلوب والصدور ، مثل الرياء والحسد والنفاق ، لا يعلمه إلا العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .. وفي مجال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فلا يجوز إلا الأخذ بالظاهر : « أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر » .

---

(١) الحسبة من مهام الحكومة في المجتمعات الإسلامية ولا وجود لها الآن إلا في المملكة المغربية التي أخذت بها منذ عهد قريب ويتولى الحسبة المحتسب الذي يعاونه جهاز من الموظفين الذين يجوبون الشوارع والأسواق لمراقبة الناس خاصة في مسائل الكيل والميزان واحترام التقاليد والآداب ومراقبة السلوك والأخلاق بالنسبة الرجال والنساء وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتولى هذه المهام بنفسه ويؤدب الخارجين بدرته ، وفي المملكة العربية السعودية هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقوم بالعديد من المهام في مراقبة السلوك العام والأخلاق والآداب ، كما تقوم شرطة الآداب وأجهزة الرقابة التجارية ببعض المهام التي كانت للمحتسب في المجتمع الإسلامي .

ولذلك ذكرنا أن قواعد الأخلاق فى الإسلام لا تخضع لأحكام المعاوضات، لأنها لا يمكن أن تخضع للقياس والتقدير، وهى كلها أعمال وتصرفات بلامقابل أو عوض مادى أو معنوى، فليس للمحسن أن ينتظر الإحسان ممن أحسن إليه، بل هو مطالب بالإحسان إلى من أساء إليه، وليس الواصل بالمكافىء والمؤمن مطالب بأن يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه، وفى مجال الصبر، ليس للصابر أن يصبر إلا إبتغاء مرضاة الله يقول تعالى :

والذين صبروا إبتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة (١) أولئك لهم عقبى الدار ويقول تعالى :

ولمن صبر وغفر ان ذلك من عزم الأمور (٢) وأخلاق الإسلام تتحقق فى صورتها المثلى حين تتجرد النوايا والسلوك من كل بواعث أو غايات مادية، فالحب فى الله والآخاء والصحبة لله، فعن أبى هريرة فى حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : « ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه .. وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، **وان يحب المرء لا يحبه الا لله**، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار . (متفق عليه) ..

فليس من أخلاق الإسلام صلات المودة وعلاقات الصداقة التى لا تقوم إلا لتبادل المنافع واستفادة كل طرف من الآخر، ومن لا نفع من ورائه فلا جدوى

---

(١) سورة الرعد : آية ٢٢ .
(٢) سورة الشورى : آية ٤٣ .

فى معرفته أو لقائه ، والهدايا تكون أشبه بالمبادلات والمقايضات يقدمها المهدى وينتظر ردها والا غضب وقاطع ..

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ان الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم يوم لا ظل إلا ظلى .

وعن معاذ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : « المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » ولم يتحابوا على الدنيا ومتاعها ومنافعها وإنما اجتمعوا على القيم والمثل العليا ، فهم المؤمنون بالقيم الإسلامية المحبون لها المناصرون لمن يعمل من أجلها ، فهم ناصرون لدين الله ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ..

وأصحاب القيم العليا قلة نادرة فى كل عصر وفى كل زمان ومكان ، وهم أشبه بالغرباء ، وهم كالمعدن النادر النفيس فى تلال وهضاب من البشر لا يأبه بهم أحد ولا يحفل بهم الناس ، ليس عندهم ما يطلبه أكثر الناس مما يشبع شهوات النفوس ، والمتاع الرخيص ، فمن لواحد منهم بمن يشد أزره ويؤنس وحدته وينصر دين الله وكلمة الحق فيه ؟

فالأخلاق فى الإسلام إذن عطاء دائما . وعطاء من أثمن ما يملك ، من نفسه التى بين جنبيه ، وواجبات بلا حقوق .. وهذا العطاء هو ما يجعل التمسك بها أمراً يشق على نفوس الكثيرين ، لأنه يمتد إلى الجسم فيحرمه ويلزمه بالإنقياد للنفس فى هذا البذل والعطاء ، فاذا بالجسم يؤثر صاحبه عليه فى الطعام والشراب واللباس والراحة والرغبات والشهوات ..

هنا نصل إلى جوهر المشكلة الأخلاقية ، وهو أن الأخلاق الفاضلة هى من صفات القلة فى كل مجتمع وفى كل عصر ، حتى دعا ذلك بعض علماء الأخلاق

الوضعية إلى إعتبار علم الأخلاق باطلا وعقيما ، حيث رأوه محكوما عليه دائما أن يهتم بآحاد الناس بينما تغرق أغلبية المجتمعات فى الرذائل الكثيرة ..

ولكن الإسلام لم يترك هذه المشكلة بغير حل ، فأمر باستتار من لا خلق لهم، وجعل المجاهرين بالمعاصى أبعد الناس عن رحمة الله ومغفرته ، وجعل أهل العلم والحلم والرأى هم أولو الامر وأصحاب الكلمة العليا فى المجتمع .. وشدد الله العذاب والعقاب على من يحبون إشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا يقول تعالى : ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

ولما كان الباعث الخلقى مستترا غير ظاهر وأغلب الصفات الخلقية القبيحة يمكن إرتكابها فى الخفاء ، فإن جهود الحكومات مهما عظمت لا تستطيع وحدها أن تخلق مجتمعاً فاضلا ، ما لم تعمل فى نفس الوقت على تربية النفوس وتهذيبها والعمل على إحياء الضمير .. وقد فشلت حكومة الولايات المتحدة فى منع شرب الخمور بالتشريعات الصارمة ، واضطرت إلى إلغاء تلك التشريعات لعدم جدواها، وما يهمنا الإشارة إليه هنا أن الإسلام قد جاء بالنظام المتكامل لإصلاح الاخلاق، حين أمر بأن يقترن علاج مظاهر الإنحراف الخلقى بعلاج بواطن النفوس وتربية الضمائر وإحياء القلوب ..

وحتى لو بذلت الحكومات جهودها المضنية فى سبيل منع انتشار مظاهر الفساد الخلقى فإن ذلك لا يحل المشكلة الخلقية تماما ، فإنها سوف تعجز بالتأكيد عن إجبار الناس على إتخاذ السلوك الخلقى الفاضل ، فلا يمكن إجبارهم على بشاشة الوجه والسخاء واحترام ذات الإنسان ، ويقظة الضمير ، ولا يفلح الترغيب ولا الترهيب فى تحقيق شيء من ذلك ..

والخصيصة الثالثة للأخلاق أنها سلوك مستمر لا ينقطع ولا يتوقف، وهذه الخصيصة تميز الأخلاق عن كل الواجبات والفروض الدينية، فإذا استعرضنا أحكام العبادات وجدنا الحج أياماً معدودات من عمر الإنسان، والصوم المفروض هو شهر واحد فى رمضان من كل عام والصلوات تتكرر خمس مرات فى اليوم والليلة أما فى مجال المعاملات فإن بعضها يتكرر حدوثه كالبيع والشراء وبعضها يقل حصوله ولا يقع لأغلب الناس كالرهن والوديعة والقرض ثم نجد من أحكام المعاملات ما يندر وقوعه كطلب الشفعة ونفى النسب واللعان الظهار . ولو وقع شيء من هذه التصرفات لإنسان فإنه قد يقع مرة واحدة أو مرات قليلة على إمتداد حياته . أما الأخلاق فإنها غير ذلك تماماً، إنها ظاهرة مستمرة وقائمة طول حياة كل إنسان، فالظاهرة الخلقية قائمة فى حال السكون والحركة والراحة والعمل والكلام والتفكير، وحتى لو استرخى الإنسان فى حجرة مظلمة، وأغمض عينيه فإن السلوك الخلقى لا يتوقف ويستمر متمثلا فيما يفكر فيه وفيما يجرى فى داخله من مشاعر خيرة أو شريرة ومن أفكار صالحة أو فاسدة ومن نوايا سليمة أو خبيثة .. ومن هنا كان حساب الحسنات والسيئات لا يتوقف لحظة واحدة فى حياة الإنسان إلا إذا رفع القلم عنه لجنون أو نوم أو صغر وعدم تكليف ..

ولما كانت الأخلاق مصدرها النفس ومحلها القلب فإن الرسول عليه الصلاة والسلام . قد دلنا على ذلك المعنى فى قوله عليه الصلاة والسلام : أن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح البدن كله وأن فسدت فسد البدن كله ألا وهى القلب ..

ومن الممكن أن تؤدى كل شعائر الإسلام وعباداته من صوم وصلاة وحج وزكاة وصدقات والقلب فاسد به مرض فلا ينال المرء من كل ذلك خيراً ويحبط كل ما عمله من ظاهر العمل الصالح، ويكفى الحسد والكبر لإحباط كل سعى وأكل

كل ثواب ..

وقد كان الأولى ، والحال على ما ذكرنا ، أن تبذل العناية بهذا العمل المستمر الذى لا ينقطع ، وهو السلوك الأخلاقى فيحث المسلمون وطلاب العلم على درسه وحسن فهمه ومعرفة أساليب تطبيقه والعمل به وما يعوق ذلك فى حياة الفرد والأسرة والمجتمع ، وأن تكون هذه العناية أكثر مما يبذل فى دراسة مسائل عديدة فى الفقه والعبادات قليلا ما تعرض للأفراد ، وقد يكون من بينها فروض صرفة لا يمكن تصورها إلا على صفحات الورق وفى ثنايا المؤلفات ، ولست هنا أقلل من قيمة تلك المسائل ولا من أهميتها ولكنها يجب أن تكون لخاصة العلماء والدارسين المتخصصين المتعمقين ، ممن يتولون مناصب التدريس والفتيا والقضاء ..

ثم أيهما أولى بالعناية والبحث الآن ، دراسة علم الأخلاق فى الإسلام ، والمجتمع الإسلامى أحوج ما يكون إليه فى كل عصر وفى عصرنا الحاضر على وجه الخصوص أم دراسة أحكام الجزية والفىء والغنائم والأسرى وعتق الرقيق وإن من لا يعجبه هذا الرأى فكأنى به يعتبر أحكام الشريعة الإسلامية قاصرة على الفقه ولا تتضمن الأخلاق ..

وإن إستمرار السلوك الخلقى الذى يتمثل فى الأفكار والمشاعر النفسية ، له تأثيره الشديد على كل أفعال الإنسان ، كالسهو فى الصلاة والإنشغال أثناءها بما يغضب الله ، وقد يساعد على الإعداد للجرائم الكبرى كالقتل والإنتحار ، والزنا والسطو والسرقه أو قطيعة الرحم أو الحسد والحقد .

ولا يمكن إصلاح الأفكار والمشاعر الخلقية فى نفس الإنسان بالزواجر والأوامر والرقابة الخارجية ، فالأب الذى يجبر بناته على الحجاب التام وتغطية

كل أجسادهن قد فعل خيراً فى الحقيقة يتمثل فى منع الأذى والسوء عنهن من ذوى القلوب المريضة ومنع فتنتهن للرجال.

وهكذا كله حق ، ولكن الأكمل من ذلك والأنفع للفتاة نفسها أن تكون العفة فى داخل نفسها ، حالة نفسية وخلقية ثابتة مستقرة على تقدير قيم الطهر والعفاف ، تمنعها هى من الزلل والسقوط ، أما إذا إنعدمت العفة الداخلية فإن الحجاب وحده لن يكفى لصون الفتاة ، وخاصة إذا أتيحت لها فرصة الإفلات من الرقابة الصارمة والحراسة المشددة ، وهذا أمر مشاهد معروف فى كل العصور ، وفى عصرنا وفى مجتمعاتنا المعاصرة لا يصمد من فتيات القرى والريف والبوادى عند الإنتقال إلى حياة المدن إلا من يتمتعن بما يمكننا أن نسميه : « المناعة الخلقية » وهو الشعور الذاتى بالعفة وبالشرف وبقوة الوازع الدينى ، وإلا فما أسرع الإنهيار والسقوط .. فليست « المناعة الخلقية » مسألة مدينة أو قرية أو حضر وبادية ، وفى الجماعات التى تلتقى فيها فتيات أو فتيان من بيئات متباينة ومتعددة ، كالجامعات والمعاهد والمصانع والمصالح الحكومية والشركات والفنادق وأماكن السياحة ، فى كل أنحاء العالم ، فسيكون بوسعك أن تلمس هذه الظاهرة بوضوح ، والتى تتلخص فى أنه لا يمكن وضع قاعدة تحكم المسار الخلقى ونكشف بها مستور النفوس ودخائل القلوب ، فإن ذلك أمر يتوقف على تيار الأفكار والمشاعر الخلقية التى تسيطر على شخصية الإنسان وعلى القيم والمبادىء الثابتة التى يعتنقها ويؤمن بها .

ومن الخطأ الفادح والاعتماد على أسلوب التعميم أن نحكم على مجتمع بأسره بأن كل أفراده لا أخلاق عندهم ، فإن الأخلاق صفة ذاتيه وفردية ، ويمكن أن تجد فى أشد المجتمعات إنحلالا فتيانا وفتيات على درجة عالية من الخلق القويم

والإتصاف بمبادىء خلقية رفيعة من العفة والشرف والصدق والأمانة وحب الخير وتقديمه ..

فالتعميم فيما يتعلق بالنوايا وما تخفى النفوس خطأ كبير إذن، ولا يقل عنه فى الخطأ الحكم عليها بالظواهر الملموسة، والرسول عليه الصلاة والسلام قد أشار إلى هذا فى أنقى مجتمع إسلامى عرفه المسلمون منذ ظهور الإسلام وهو مجتمع المهاجرين، من السابقين الأولين، وحيث لم يكن قد ظهر النفاق الذى عرف فى المدينة المنورة بعد الهجرة إليها، واختلاط طوائف شتى فيها، فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه

فالحجاب ومنع إختلاء الذكر بالانثى فرضان وواجبان شرعيان ولكن من أراد الخير معها والأساس الصالح لها فليجعله فى تقويم الافكار والمشاعر الخلقية وهو ما سوف نعرض له بعد ذلك.

وتبدو أهمية هذا الرأى فى عصرنا الحاضر على وجه الخصوص، حيث لم تعد وسائل الرقابة وحدها تجدى فى مجال الأخلاق، بعد خروج الفتيات للتعليم وللحياة العامة، وبعد إنتشار وسائل الإتصال المختلفة بالتليفون والبريد واللاسلكى والمذياع والتلفاز فنحن بحاجة إذن إلى التربية الخلقية من الداخل، وأقول التربية والتنشئة لا مجرد التلقين والمحاضرات والخطب وهذا أيضاً موضوع ليس مجاله الآن وإنما سوف نعرض له بعد ذلك عند الكلام عن الأخلاق النظرية والأخلاق العملية فى الفصل الثالث عن أنواع الأخلاق.

ونختم الكلام فى هذا الفصل الأول عن التعريف بالأخلاق وبيان ماهيتها ومفهومها بالكلام عن الخلق وبيان الفرق بينه وبين الأخلاق .

مفهوم الخلق

الخلق هو الطباع السائدة والعادات الغالبة والتى تميز شخصية الفرد وتحدد سلوكه الأخلاقى ..

فالخلق يتميز بالثبات والاستمرار كما أنه يغدو وكأنه طبع ثان للفرد بجانب ما غرسه الله تعالى فيه من طباع .

وتأصل الخلق فى النفس واقترانه بخصائص الشخصية يجعله من السلوك المعتاد الذى لا يجد الفرد مشقة فى القيام به ، ولذلك يعرف بعض العلماء الخلق بأنه عادة الإرادة لأن إرادة الإنسان تعتاده ويسهل عليها فعله ، فكظم الغيظ خلق للحليم يجعله لا يجد فيه مشقة ولا ضيقاً مثلما يلقى النزق والأحمق ، والعفة فى الفرج واليد خلق لدى العفيف المتعفف لا تثير فى نفسه من المشاق ما يتعرض له الأفراد غير الصالحين ، من الفاسدين والفاسقين .. والكرم خلق عند الكريم يسهل عليه الإيثار والبذل ، ولا يجد فى نفسه ضيقا ولا حرجا أما الشحيح والمنافق فلا ينفقون إلا وهم كارهون ..

وهكذا يمثل الخلق ما ترسخ من العادات والقيم الخلقية وصار مما يميز شخصية الإنسان والفرق بين الأخلاق والخلق يكمن فى أن الأخلاق تعنى أوصافاً لكل فعل الإنسان بمقياس الخير والشر والقيم والمعايير الدينية، وذلك بالنسبة للأخلاق الإسلامية ..

فنقول هذا التصرف من هذا الإنسان غير أخلاقى ، كالكذب أو الوشاية أو

خيانة الأمانة أو التجسس .. أى أنه يخالف أحكام الدين الإسلامى ويخالف المبادىء والقيم الخلقية ..

ولذلك فمن الممكن أن نجد أفعال الفرد يمكن أن تضم أنواعا مختلفة من السلوك الخلقى ، فيكون صادقاً فى بعض حديثه وكاذباً فى بعضه الآخر ويكون أميناً مع بعض الأفراد ولكنه يغش ويخون مع غيرهم ، وتسير الأوصاف والأحكام الخلقية وراء كل فعل من أفعاله وكل تصرف من تصرفاته تصفه : بما يستحقه بالقيم الخلقية ومعاييرها أما الخلق فهو غير ذلك ، فإذا كان الفرد يتصف بخلق "الصدق والأمانة فهو لا يكذب ولا يخون أبداً " :

وقد عرف الرسول عليه الصلاة والسلام بالصدق والأمانة منذ نشأته حتى عرف قبل الإسلام « بالأمين » ثم مدحه الله تعالى بعد نزول الوحى والرسالة بكمال الخلق فقال تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم(١) » .

وقد يعرف الفرد بخلق معين يشتهر به ويذيع عنه مثل كرم حاتم وحماقة هبنقة ، وشجاعة على بن أبى طالب وخالد بن الوليد وطمع أشعب وحلم الأحنف ومعاوية ، ولكن يندر أن تجتمع كل صفات الخلق الحميد فى إنسان واحد اللهم إلا إذا كان رسولا أو نبياً من الصالحين والصديقين ، وهذا يفسر لنا قول الرسول ﷺ فى وصف أبى بكر بأنه يحزن إيمان أمة وحده لأن الأمة يندر جداً أن يجتمع فى فرد واحد منها كل صفات الخلق الكامل ، مثل الحكمة والشجاعة والكرم والإيثار والإخلاص والصدق وقوة الإيمان وتمام الثقة بالله والصبر وحسن التوكل والبر والعدل والإحسان والعفة والقناعة وغيرها من الصفات ، مثلما أجتمع

---

(١) سورة القلم آية ٤ .

كل ذلك لأبى بكر الصديق .

ولكن المألوف أن يجتهد كل مؤمن فى صفة أو صفتين أو بضع صفات من الخلق الطيب يجاهد ليتخلق بها ، مثل الحلم أو الكرم أو الصبر أو الإحسان وما يستحق التأمل والنظر أن المرء لا يختار من أصناف الخلق عادة إلا ما يتفق مع طبائعه وصفاته الموروثة والمكتسبة فالجبان بطبعه لا يمكن أن يكون خلقه الشجاعة وكذلك الشحيح والأحمق بالنسبة للكرم والحلم ، اللهم إلا إذا كابد نفسه وتحمل مشقات كبيرة حتى يغير طباعه ويتخلق بغير ما تهيأت نفسه له وكل ميسر لما خلق له .

وللخلق خصائص معينة نذكرها فيما يلى :

خصائص الخلق :

اولا : أنه يعسر على الإنسان أن يظهر بغير خلقه أو أن يخفيه ويداريه ، بخلاف الأخلاق فإن الرياء والنفاق فيها ممكن ، لأنها سلوك غير ثابت ومواقف وأعمال منفردة ، يمكن للمرء أن يتصنع فيها ويخدع غيره .

ثانيا : يعطى الخلق صاحبه شخصية يتميز بها ويعرف بها ، فهو من اهم مكوناتها لأنه يجعل الإنسان ذا صفات وطباع يعرف منها سلوكه ومظهره فى كل موقف يعرض له وذلك يجعل الناس يطمئنون إليه ويثقون فى التعامل معه .

ثالثا : ويقترن حسن الخلق بالإيمان ، لأنه يدل على شدة تعلق صاحبه بالدين وعمق إيمانه بمبادئه وقيمه ، بينما يدل سوء الخلق على الفسق والفجور لتمكن السوء من نفسه وتعوده عليه .

كيف يتكون الخلق ؟ : أن تكون الخلق وتوحده بالشخصية واندماجه فى

مكوناتها ومقوماتها هو من الأمور النفسية البحتة ولذلك فقد أسهمت فى بيان مراحل هذا التكون علوم حديثة فى مقدمتها علم النفس ، وسوف نعرض فيما يلى آراء علمائه بإعتبارها بحوثاً مساعدة لعلم الأخلاق .

وبداية نقول أن تكون الخلق — كظاهرة نفسية — يمر بثلاثة مراحل أساسية هى :

المرحلة الأولى : وتبدأ بالفهم والإدراك للمعنى الذى يحدد النسق الخلقى ، فبالنسبة لخلق الصدق مثلا يدرك الإنسان معنى الصدق وأهميته ومنزلته بين الفضائل الخلقية ويدرك مدى وجوبه فى أحكام الشريعة الإسلامية بمصادرها المتمثلة فى القرآن الكريم والسنة الشريفة والإجماع ويتمثل فى الوقت نفسه مدى جسامة الجرم المقابل له وهو الكذب وشناعته وآثاره الممقوتة فى الشخصية وأضراره التى تهدد المجتمع وما يتحقق للتخلق به من من سوء الخاتمة والمصير .

أما المرحلة الثانية فى تكوين الخلق فتتكون فى الجانب الإنفعالى أى انفعال النفس بأهمية الصدق إنفعالا يؤدى إلى حبه والتعلق الشديد به وإلى كراهية الكذب ومقته والنفور منه .. ونجد تصوراً صادقاً لهذا الجانب الإنفعالى فى قول الرسول ﷺ : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » (متفق عليه) .

فالخلق يعتمد كل الإعتماد على هذا الجانب النفسى الإنفعالى ، ويعتمد على عاطفتين متقابلتين هما عاطفة الحب وعاطفة الكره : حب ما تعلق قلبه من أنواع الخلق كالبر أو الصدق أو العفة وكراهية ما يقابل ذلك من خلق الأثم والكذب والفجور .. وبقدر ما تقوى عاطفة الحب للخلق وعاطفة البغض لنقيضه تكون قوة الخلق ومتانته وشدة التمسك به .

أما المرحلة الثالثة فى تكوين الخلق فهى إنقياد الإرادة للقيام به والتعود عليه حتى يصبح طبعاً متأصلا فى النفس لا تتردد النفس لحظة فى الإقدام فالصديق لا يتردد فى قول الصدق والعمل به والبر يسارع فى الخيرات والعفيف يعتصم بالشرف ويفر من المنكر وهكذا ..

ويبدو أن تكون الخلق من سمات الشخصية الإنفعالية ، أما الأفراد الذين يضعف فيهم الجانب الإنفعالى فيصعب عليهم تكوين قيم خلقية والإيمان بها بل يصعب عليهم أصلاً ، لأنهم لا قلوب لهم ..

وكلما حدث تكوين الخلق فى سن مبكرة كان ذلك أدعى إلى قوته ورسوخه وعسر التخلى عنه بعد ذلك ويؤكد علماء النفس على أهمية عامل الرغبة أو حب القيمة الخلقية فى تكوين الخلق ، فالإنسان لا يتأتى له أن يكون ويتبنى خلقاً لا يحبه بل يكرهه ، وهذه مسألة هامة ينبغى أن يتنبه إليها المربون والوعاظ والدعاة على وجه الخصوص : وهى كيف نساعد المسلم على تكوين القيم الخلقية بغرس محبتها فى نفسه .. وفى القرآن الكريم أكثر من موضع تشير فيه آياته إلى هذا .. فيقول سبحانه وتعالى : قل أن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم [1] ويقول تعالى : هو الذى حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون[2]. ويقول تعالى : « إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » [3] .

---

(١) سورة آل عمران — آية ٣١ .
(٢) سورة الحجرات — آية ٧ .
(٣) سورة غافر — آية ١٠ .

ونورد فيما آراء بعض علماء النفس فى أهمية عامل الحب فى تكوين الخلق .
فقد توصل « ويسكوف وفرنكل » بعد تجارب نفسية وعملية على بعض الأشخاص ، إلى صحة الفكرة العامة المعروفة من أن الرغبات أكثر تلقائية وطبيعية فى بعض أوجهها من الواجبات ، ذلك لأن الواجبات يبدو أنها تتطلب جهداً أكبر ، وإنها تؤدى إلى إستنزاف مدخرات الطاقة العقلية ، وكذلك يبدو كأن قوة خارجة نسبياً تفرضها على نفوسنا المنصرفة غير الراغبة . وقد أسفرت هذه النتائج عن أن السمات الخمس الرئيسية التى تميز الرغبات من الواجبات هى :

١ — أن الرغبات عموما ، تكون مصحوبة بإنفعالات ومشاعر أكثر نشاطاً .

٢ — أن الرغبات أقوى حفزاً على العمل فهناك ميل إلى وضعها موضع التنفيذ فى الحال .

٣ — أنها أكبر إستمالة للخيال ، وغالباً ما يتخيل المرء رغباته وكأنها فى مرحلة الإشباع .

أما الواجبات فيعوزها مثل هذا التخيل، وأن وجد فيها خيال فهو منصرف إلى نتائج عدم تأدية الواجب ، أو الموقف الذى سينشأ بعد تأديته .

٤ — أن ما يرتبط من الصور البصرية بالرغبات يزيد كثيراً عما يرتبط منها بالواجبات .

٥ — تبدو الرغبات أمر حبيباً إلى النفس مقبولا على الفور بطبيعته . بينما ضروره "قيام بالواجب كثيراً ما يرتاب فيها الفكر الباطن » وقد تخترع لها المبررات ، وقد لا يوجد غير الإحساس بالإكراه أو بالضرورة ، تقترن غالباً بمثل تلك العبارات التى يحدث بها المرء نفسه مثل : يجب على ، ينبغى لى ، يجب

ألا .. ولما كان الواجب من بعض الوجوه شيئاً مقحماً على الذات من الخارج بينما الرغبة شيء ينبثق مباشرة من الذات ، كان أمر الواجب والرغبة كأمر موضوع واحد ونقيضه ، فيرمز للواجب بسهم مصوب نحو دائرة الذات وللرغبة بسهم مصوب من الدائرة ومنبثقاً عنها .

على أن ذلك لا ينبغى أن نستنتج منه أن الواجبات الدينية هى من الوجهة النفسية أعمال ثقيلة لا تميل النفس إلى أدائها ، فبرغم ما سبق ذكره من الأصل الخارجى للواجب فإن حب ذلك الواجب وتبنيه يؤدى إلى أن يصبح أشبه بجزء من ذاتنا ، وبذلك يصبح تحقيق هذا الواجب أمراً يعنى الذات بقدر مايعنيها تحقيق الرغبات وإن عملية تبنى الذات للواجب هى من أهم خصائص نمو الحياة الخلقية .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة أغلب المؤلفين فى كتاباتهم التى تعنى بالسلوك الإخلاقى ، على اختلاف المدارس التى ينتمى إليها المؤلفون وعلى اختلاف المشاكل الخاصة التى تعنى كلا منهم فى الميدان الأخلاقى .

وقد وجد فى جزء آخر من الإستقصاء الذى قام به علماء النفس فى هذا المجال ، أن التباين الحاسم بين الرغبة والواجب يميل إلى الإختفاء بتقدم السن فالواجبات التى انتهت الذات من تبنيها منذ أمد طويل إندمجت فى الذات إندماجا صارت معه طبيعة ثانية وكادت تبلغ مبلغ الرغبات فى تلقائيتها .

وحتى بالنسبة لغير المسنين ، نجد أنه غالبا ما تمتزج الرغبة بالواجب إمتزاجا شديداً ، وكأنما الواجب بمجرد أن تتبناه الذات قد إكتسب القدرة على إجتذاب رغبة إليه ليكتسى ثوبها ..

ولقد أثبتت البحوث والإستقصاءات فى علم النفس العام والتجريبى والتحليل

النفسى حقيقة هامة تهمنا فى مجال تكوين الخلق . وهى اختلاف الأفراد بعضهم عن بعض فى القدرة على هذا التكوين ، وقد أبرز البحث الذى أجراه « وب Webb » وجود عنصر يترتب عليه أن يكون أحد الأفراد على العموم أميل إلى الاتساق وأيقظ ضميرا وأكثر مثابرة وأحرص على المبادىء من فرد آخر يغلب عليه أن تجرفه النزوات العابرة والميول العارضة والحماسات الموقوتة وأسفر تحليل نتائج هذا البحث عن إضفاء تفسير خلقى على هذا العنصر أو العامل الذى هو أشبه بعملية التحكم العمد منه بالتصرف التلقائى للنزعة الكريمة أو الطيبة ..

وقد أظهرت البحوث فى مجال تربية الخلق نتيجتين أو حقيقتين هما :

١ — أن الميل إلى السلوك الخير أقرب إلى أن يكون أعم فى تطبيقه من الميل إلى السلوك الشرير . فقلما يكون السلوك الشرير متسقاً . وأبعد الأطفال عن الأمانة يكونون أمناء أحياناً . أما السلوك الخير فيميل بطبيعته إلى الاتساق .

٢ — أنه لا توجد علاقة مباشرة بين المعرفة والذكاء من جهة وبين السلوك الخلقى من جهة أخرى ، فالعلاقة بينهما غير مباشرة ، فالمعرفه والذكاء يعينان فى فهم وإدراك الواجبات ، على أن أداء الواجبات يعتمد على عناصر وجدانية نزوعية قد تكون موجهة إلى هذه الغاية أو لا تكون ، ولا يكفى لكفالة السلوك الخير وتكوين الخلق مجرد معرفة الشخص لما هو الصواب .. ولكن على المبادىء والنظريات الخلقية أن تستميل إليها النزعات والإرادة لتكون لها فاعلية كاملة وأظهر ما يعاون على تحقيق هذه الإستمالة : «عاطفة إعتبارات الذات» وهى عاطفة تتجه إلى الذات وتقرر أى أنواع التصرفات والرغبات يناسب الذات ويجدر بها(١) .

---

(١) الإنسان والأخلاق والمجتمع تأليف جون كارل فلوجل ترجمة عثمان نويه ومراجعة الدكتور عبد الرحمن القوصى (من الألف كتاب) ص : ٢٩ .

وأهم النتائج التى نستخلصها فى موضوع تكوين الخلق ـ على ضوء ما تقدم ـ تتلخص فيما يلى :

أولا : أن الخلق يندمج فى النفس ويتوحد بالذات وبذلك يصبح طبيعة ثانية وعادات ثابتة :

ثانيا : يتكون الخلق من الميل القلبى إلى المبادىء التى نؤمن بها وبغض ما يناقضها .

ثالثا : أن الواجبات الخلقية حين تتبناها النفس وتندمج فيها تصبح ميسورة الأداء كالرغبات تماما .

رابعاً : أن مجرد العلم والمعرفة بالقيم الخلقية لا يكفى لتكوين الخلق بل يجب العمل على إستمالة النفس وتكوين العواطف التى تحـــرك الإرادة ، وتساعد « عاطفة إعتبار الذات » فى ذلك ، وهى العاطفة التى تصل إلى حد التضحية بالحياة فى سبيل القيم الدينية .

ومن الجدير بالنظر أن العديد من المستشرقين والمبشرين قد درسوا هـــذه المسائل المتصلة بتكوين الخلق وتربية العاطفة الدينية وكيف يمكن أن يجيبوا من يدعونهم إلى دينهم ، ويثبتوا العقائد فى نفوسهم .. فى الوقت الذى يسير فيه أغلب دعاة الإسلام ووعاظ المسلمين على أساليب لا تحقق النتائج المرجوة كما نبتغيها ، وقد نجدهم أحياناً يعتمدون على أسلوب التخويف والترهيب من عذاب الآخرة فحسب ، أو يعتمدون فى الدعوة إلى الإسلام على مجرد تقديم المعارف والمعلومات عن مزايا الإسلام وحكم الشريعة وسماحتها ، ولعل القارىء الكريم يدرك معى ، أننا فى عصر بات العلم فيه وسيلة ، لا للتحكم فيما حولنا من مظاهر الطبيعة والعالم المادى فحسب ، بل وصل الأمر إلى القدرة على التحكم فى النفس

البشرية وسبر أغوارها وتوجيهها إلى سبل الخير والمثل العليا والقيم الخلقية .

منهج التكوين الخلقي :

يشغل كثير من الآباء والمربين والمصلحين أنفسهم بالتفكير فى كيفية بناء الخلق ، وكثيراً ما يتساءل الوالدن : كيف نغرس فى أبنائنا وبناتنا خلق العفاف والفضيلة والبر وكيف ننزع من نفوسهم خلق الرزيلة والفجور ؟

ويسلك الآباء إزاء أبنائهم وبناتهم أحد سبل ثلاث :

(١) فإما أن يسلكوا معهم سبيل الشدة والعنف وإستعمال القسوة والحزم ، فيراقبون سيرهم وغدوهم ورواحهم ، ويحاسبونهم على ما يبدو لهم من تصرفاتهم ، ويؤاخذونهم مؤاخذة شديدة على ما يصدر عنهم من أخطاء ، وهم بذلك يمثلون بالنسبة لهم سلطة الضغط والقهر والعقاب ، وقد يصل الأمر فى بعض الأحيان إلى حد شعور الأبناء والبنات بالخوف والرعب من آبائهم ولا يتجرأون على مخاطبتهم وبث ما يجول بخواطرهم لهم ، فإذا جلسوا فى حضرتهم لا ينطقون إلا إذا سئلوا ، ولا يتجاوزون فى ردهم حدود ما سئلوا عنه ، ولا ريب أن الاباء يغتبطون بهذا المظهر ويفاخرون بأنهم قد ربوا أبناءهم وبناتهم فأحسنوا التربية ، وإنهم إذا اختاروا لأبنائهم طريقاً للحياة أو التعليم أو الزواج لم يكن لأولئك الأبناء الخيرة من أمرهم ، فهم لا يعصون لهم أمراً ولا يردون لهم طلباً ، وهذا كله لا إعتراض عليه ولا نقد له - ومن وجهة النظر الأخلاقية على الأقل - ولا مجال هنا لبيان آثار ذلك من وجهه نظر طرق التربية ومناهج علم النفس ، فهو ليس موضوع هذا الكتاب ، ويخلو هذا المسلك من العيوب بشرطين :

أولهما : أن يكون للأبناء والبنات شخصية واحدة لا شخصيتين ، بمعنى أن

يكون سلوكهم الخفى لا يتناقض مع سلوكهم الظاهر، أما إذا كان الأمر غير ذلك، بأن كان لهم خلق ظاهر يتسم بالطيبة والوداعة والأدب، ولكنهم يأتون المنكر ويرتكبون أخطر الآثام فى الخفاء فهنا تكون المصيبة مصيبتين : مصيبة الإنحراف فى السلوك ومصيبة جهل الوالدين بهذا الإنحراف وعدم قيامهم بالتالى بمحاولة تقويمه وإصلاح ما فسد .

أما ثانيها : ألا تكون هذه السيطرة التامة من الآباء والإنصياع الكامل من الأبناء سبيلا إلى التكيف بما لا يجوز والتحكم فيما لا يصح التحكم فيه ، كإجبار الأبناء والبنات على الزواج ممن لا يرتضون ، بل وقد يصل الأمر إلى حد عدم أخذ رأيهم أو إستشارتهم فى ذلك ، ومثل إجبارهم على قطيعة أرحامهم ومجاراة الوالدين فى عداواتهم لأقربائهم وغير ذلك .

(٢) وأما المسلك الثانى الذى قد يلجأ إليه الوالدان مع أبنائهم فهو على نقيض المسلك السالف تماماً ، إذ هنا يعيش الأبناء والبنات وكأنهم بغير آباء وأمهات ، لا يشعرون بأى رقابة عليهم ولا يجدون من يحاسبهم فى أى أمر صغيراً كان أو كبيراً ، فيعيشون حسب أهوائهم وينطلقون وراء رغباتهم ، لا يختلفون فى ذلك عن الأبناء والبنات فى بعض الدول الأجنبية التى تشيع فيها الحريات الفردية إلى حد الفوضى، ويصل الإستقلال بالشخصية والتصرفات إلى حد المجاهرة بالمعاصى وعدم التحرج أو الحياء من أى منكر ... بل قد يصل الحال إلى ما هو أسوأ من ذلك أحياناً ، فلا يكتفى الأبناء والبنات بعدم توقير الوالدين بل قد يعتدون عليهم بالسب والشتم والإهانة ، ويبتزون أموالهم ومدخراتهم وقوتهم بالتهديد والقوة والإكراه ... ويقف الوالدان ، فى كهولتهما ، أمام هذا الإجرام من الأبناء عاجزين تملأ الحسرة نفوسهم ، ويتمنون الموت للخلاص من شرورهم .

(٣) والمسلك الثالث فى هذا المجال ، يختلف عن المسلكين السالفين معاً ، فهو وسط بينهما ، وهو وإن لم يكن المسلك المثالى أو السليم تماماً إلا أنه أفضل منهما على كل حال ، ويتمثل فى الوالدين الناصحين الذين يدأبون على نصيحة أبنائهم وتقديم تجاربهم وخبرات سنى عمرهم لهم ، ويوضحون لهم طرق الخير وسبل الشر ، والأبناء والبنات عادة يرضون أمثال أولئك الآباء بالاستماع والاصغاء لهم وعدم الإعتراض على نصائحهم وآرائهم ، وإن كانت تلك النصائح والآراء لاتجد فى نفوسهم صدى ولا تلقى من قلوبهم إستجابة ، يسمعونها ويشعرون بأنها تناديهم من مكان بعيد ، وبأنها تخالف ما عليه جيلهم وما يسيرون عليه هم وأمثالهم ، فالأم قد تحذر بنتها من تغرير الشباب وعبثهم ، والأب قد ينصح إبنه بالا يقبل رشوة فى أعمال وظيفته ، أو غشاً فى إمتحاناته ، فيسمعون ولا يعترضون وقد يؤمنون على سلامة الرأى وسلامة النصيحة ، ولكنهم لا يأخذون بها ، لأنهم تخلقوا بعادات تخالف ذلك وتتفق مع واقع حياة يعيشون فى غمارها ، ويكون الخطب أفدح والضرر أوقع لو تيقن الأبناء والبنات أن آباءهم يقولون ما لا يفعلون وينصحون بما يخالفونه فى حياتهم وواقع سلوكهم الأخلاقى .

فإذا كانت هذه السبل الثلاث لا تصلح فى تكوين الخلق لدى الأبناء فما هو السبيل الصحيح إذن ؟

إن النهج السليم فى تكوين الخلق الحسن والتخلى عن الخلق الذميم يتطلب ثلاثة أمور :

فأما الأمر الأول : فهو كسب الثقة والمودة ، بحيث يغدو الآباء والأمهات والمصلحون والواعظون والداعون إلى سبيل الله موضع ثقة من يتوجهون إليهم بالنصح ومحل تقديرهم وحبهم ومودتهم ..

وكثيراً ما كان إنحراف الأخلاق لدى الأبناء ناجماً عن بغضهم لآبائهم وأمهاتهم وكراهيتهم لكل ما يصدر عنهم ، وهذا يكون والآباء والامهات من أهل الصلاح والتقوى ولكنهم فشلوا فى غرس المودة لهم فى قلوب ذريتهم فأبغضوهم وأبغضوا منهجهم الاخلاقى مع أنه النهج المستقيم .

وقد يؤدى بغض الأبناء لآبائهم ، إلى صلاح الأبناء واستقامة أخلاقهم إذا كان أباؤهم فاسدى الخلق وضيعى السلوك لأنك إذا أحببت إنسانا أحببت صورته وخلقه وأقواله وأفعاله ، وإذا أبغضت إنسانا كرهت منه كل ذلك .. ومن المعروف أن المدرس والمعلم قد يكون كلاهما السبب فى كراهية تلاميذهم لنوع من الدراسة والعلوم أو الميل إليه والرغبة والتفوق فيه .. ولهذا ينجح من يعملون بالتبشير حين يبدأون أولا بكسب ثقة ومودة من يريدون دعوتهم إلى الدين ، وقد يكون المبشر طبيبا أو ممرضة أو صيدليا فيقيم أمتن الروابط وأوثق الصلات مع من يتعاملون معه ، فتتجه عواطفهم وقلوبهم إليه ويستجيبون فى يسر وطواعية لما يدعوهم إليه .

وليس هذا النهج قاصراً على المبشرين وحدهم ، بل أننا قد أوردناه كمثال لواقع ملموس ومجرب ، ولكنه كان كذلك نهج الأنبياء والمرسلين إلى أممهم ، ونهج القادة والمصلحين عبر حقب التاريخ ..

يقول الله تعالى عن رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك .. » (١)

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٢٩ .

وليس سلوك هذا النهج فى كسب الثقة ومودة القلوب أمرا ميسوراً لكل من يريد ، بل أنه يتطلب صفات خلقية رفيعة وشخصية ذات خصائص معينة وذات تأثير قوى عميق وخبرة نفسية واجتماعية واسعة ..

وقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض المسلمين كانوا من أبرز العوامل فى إنتشار الإسلام فى كثير من أرجاء العالم التى لم يفتحها المسلمون ولم تصل إليها جيوشهم .

والأمر الثانى : هو **الاقناع** السلس بالموضوع الذى يدعو إليه ، وفى ذلك يقول الله تعالى : أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، (١) فلا يصلح فى ذلك مجرد إلقاء الكلام وتوجيه النصائح ليستجيب من يستجيب ويعرض من يعرض ، فإن الإقناع بالحكمة يعنى إستعمال الحجج والبراهين ، والإنتقال من المقدمات إلى النتائج فى تفكير مقنع يتفق مع منطق العقل الإنسانى أما الموعظة الحسنة ، فتتحقق بمخاطبة العواطف واستمالة القلوب واستثارة الوجدان ..

ومن الأمثلة الشاهدة على ذلك أن شاباً أتى رسول الله ﷺ وقال له : يارسول الله رخص لى فى الزنا .. فلم ينهره الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يقابله بحكم الشريعة القاسى الحاسم على تلك الجريمة النكراء ، بأنها فاحشة وقعت وساءت سبيلا .. بل قال له : هل ترضى هذا الأمر لأختك .. فقال الشاب : لا .. قال : هل ترضاه لأمك .. قال : لا .. فقال عليه الصلاة والسلام فكذلك سائر الناس ..

إن الإقناع يعتمد إذن على تحليل المسألة الخلقية وتيسير فهمها فهما سليما لا

---

(١) سورة النحل : آية ١٢٥ .

لبس فيه ، وإزالة ما يعوق ذلك الفهم من تزيين الشيطان وجموح الشهوة ، وحب الشيء يغمى ويصم كما جاء فى الحديث الشريف .. واعتياد الأمر والتآلف معه يحجب حقيقة عيوبه عمن ألفه واعتاد عليه ..

والأمر الثالث الذى يتطلبه تكوين الخلق هو تكوين عاطفة قوية نحو المبدأ الخلقى الذى يراد تكوينه ، وهذه العاطفة تربط بين الفرد وبين ذلك المبدأ برابطة حب عميق وتعلق شديد ، وبالنسبة لما يراد التخلى عنه من صور الخلق السيء القبيح يجب عدم الإعتماد فى ذلك على مجرد الزجر والنهر والنهى والأمر والوعظ والتبصرة ، فذلك كله ينبغى أن يكمل بما هو أهم وأجدى وهو تكوين عاطفة كراهية وبغض وإزدراء نحو الخلق الذميم ، وبغير تكوين هذه العاطفة من الكراهية لما يراد التخلى عنه يقع الإنسان فى صراع نفسى شديد ، يزعزع ثقته بنفسه ويضعف إرادته ويوهن طاقته وجهده لوقوع الإنسان بين أمرين : أمر يحبه وتشتهيه نفسه وتتجه إرادته بحكم العادة إلى فعله وإتيانه ، ثم أمر ثان يتمثل فى موقف المعارضة والوقوف ضد هذا الفعل والإستنكار الشديد لاتيانه ، ومصدر هذه المعارضة هو النصائح والمواعظ التى تأتيه من أهل التوجيه والرعاية أو من لهم الولاية عليه كوالديه ومن المجتمع الذى يعيش فيه بأعرافه وتقاليده ومن العقل نفسه فى بعض الأحيان ..

وقد سبق أن أشرنا إلى كل هذا ولم أتحرج من تكراره لأهميته الكبيرة فى مجال التكوين الخلقى والتعود على الأخلاق الحسنة ، وقد يبقى بعد ذلك سؤال آخر هو : بأى العاطفتين نبدأ أولا : عاطفة الكراهية والبغض لما يراد تركه من ذميم الخلق أم عاطفة الحب والتعلق لما يراد غرسه من نقيضه ، لا شك أن البدء بترك الذميم ينبغى أن يأتى أولا وفى أصول الفقه قاعدة تقول : « درء المفاسد

مقدم على جلب المصالح ، وأهمية البدء بالتخلص من ذميم الخلق قبل غرس نقيضه من حسن الخلق تبدو فيما يلي :

أولا : أن مجرد الكف عن الشر والإمساك عن الأذى هو فى حد ذاته خير وفضيلة ، وقد جرى عرف الناس على القول فيمن كثرت شروره أنهم لا يطلبون إلا الوقاية من شره ، فالعاق لوالديه مثلا لا يطلب منه فى أول الأمر عند محاولة إثنائه عن هذا الخلق الشنيع إلا أن يكف عن إيذائهما والإساءة إليهما ... وصحيح أنه لن ينقلب بكف أذاه إلى بار بوالدته أو بوالديه فإن عاطفة البر تتطلب لغرسها جهوداً أخرى . ولهذا ينبغى الإشارة إلى أن مراد الله تعالى من عباده بالنسبة لعلاقة الأبناء بالآباء لم يقتصر على مجرد الكف عن أذاهم بل جاوز تلك الدرجة إلى درجة أسمى وأخطر شأناً ، هى البر والإحسان . فالبر والإحسان ليسا إذن مجرد إمتناع عن الإثم والإساءة للوالدين بل هما فعل الخيرات والأعمال الصالحات وإيثارهما بحسن الصحبة والعشرة :

ولذلك فينبغى أن تبدأ مع العاق الذى يسىء إلى والديه بالدعوة لأن يتخلى أولا عن إجرامه فى حقهما أو فى حق أحدهما وبيان جسامة ما يقترفه وعظم ذنبه ، فإذا وفق إلى ذلك ساغ أن يتوجه إلى غرس خلق البر والإحسان لديه .

ثانياً : إن بعض أنواع الخلق الذميم تعتبر الفضيلة فيها مجرد التخلى والترك ، مثل الزنا وشرب الخمر والربا والقتل ، فيكفى لبلوغ الفضائل عدم الإقتراب من الزنا وترك شرب الخمر والكف عن التعامل بالربا وعدم قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .

ثالثا : ثم أن بعض النفوس ليست مهيأة للتخلق بفضائل معينة ، فليس بميسور كل إنسان أن يتخلق بما شاء من خلق ، فللنفس طاقة ولها وسع وقدرة : والله

تعالى يقول : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، رحمة منه وعدلا .. وإذن فإن أول ما ينبغي السعي إليه هو التخلص من الخلق الذميم أولا ، فلربما عجز عن التخلق بفضيلة الخلق الحسن الذي يقابله .

رابعا : أن أغلب الناس ليسوا على خلق رفيع وأن غاية ما نرجوه من أكثر الناس وعامتهم أن يكفوا عن سيء الخلق وأن يحفظوا المجتمع من شرورهم ، ولا يتيسر لأي دعوة إصلاحية أن تحول الناس أو أغلبهم إلى صديقين أو أبرار محسنين ، ولا يسوغ إذن أن تبدد جهدها وطاقتها في ذلك ، فإن هذا وإن كان غاية تفرح القلوب وتبعث الرضى ، إلا أنها غاية لا تنال ، ولم تيسر طبائع النفوس ولا صفات البشر تحقيقها حتى للرسل والأنبياء وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه العزيز ، فقال تعالى : وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (١) .

وغاية ما يرجوه الإسلام من المسلم أن يسلم المسلمون من لسانه ويده .

خامسا : وأخيرا فإن التوبة في الإسلام لا تتطلب أكثر من هذا : أي من التخلي عن فعل السوء وترك الفاحشة والندم على إتيان ذلك يقول تعالى : «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين »(٢) .

والإصرار على فعل السوء هو الذي يكون الخلق السيء ، والتوبة والندم والاستغفار الذي يحول دون تعود السوء وتحوله إلى خلق ثابت قبيح ، ولهذا

---

(١) سورة يوسف : آية ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٣٥ و ١٣٦ .

أمر الله تعالى عباده بالتوبة ودعاهم إلى الاستغفار والأحاديث الشريفة عديدة كثيرة فى الحث على الاستغفار وإعتباره الباب إلى رضوان الله تعالى : فعن إبن عباس رضى الله عنهما قال ﷺ : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك (١) بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فأغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها بالنهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » (٢) .

فالخلاصة أن التخلى عن سيء الخلق هو أول ما يجب البدء به وهو الأولى فى مجال التربية الخلقية والإصلاح الأخلاقى .. ومن شاء الله تعالى له مزيداً من الدرجات العلى رزقه بعد ذلك حسن الخلق ورفعه برحمته وفضله إلى منازل المقربين والأبرار .. والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وإذ قد تكلمنا عن مفهوم كل من الأخلاق والخلق ، نشير إلى أن الخلاق لا علاقة له بمعناهما ، بل هو النصيب ، يقول تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (٣) .

---

(١) أبوء : يعنى أقر وأعترف .
(٢) الأذكار لمحي الدين النووى — المرجع السابق — ص ٥٤٤ .
(٣) سورة آل عمران : آية ٧٧ .

الفصل الثانى

أهميـــة الأخـــلاق

لما كانت الأخلاق تمثل الجانب النفسى فى حياة الإنسان فإنها تعد بمثابة الركن المعنوى لكل عمل يقوم به ، وبمثابة الروح لكل بناء إنسانى سواء فى مجال الأسرة أو المجتمع .

فالرجل والمرأة قد تجمع بينهما رابطة الزواج ، ويمكن أن تصبح لهما أسرة تضم ما يرزقهما الله به من البنين أو البنات ، ولكن جرد هذه الأســـرة كلها أو بعضها من مبادىء الأخلاق ، وسوف تجد نفسك أمام جماعة من البشر لا يصلون إلى مستوى أى جماعة لا تربط بينها قرابة ولا صلة وتعيش فى فندق أو معسكر على ساحل البحر أو بالقرب من غابة أو فى الصحراء .. ستجد أسرة يتربص كل فرد فيها بغيره ولا يثق فيه ولا يطمئن إليه ، ولا تربطه به مودة ولا عاطفة ، بل ولا رحمة ، ثم لا تستطيع بعد ذلك أن تعثر على معان خلقية سامية مثل الإيثار وإنكار الذات والسيطرة على الرغبات والشهوات . مثل تلك الأسرة التى تجردت عنها الأخلاق أشبه بجماعة بشرية تعيش فى عزلة عن الدين والحضارة والثقافة ... ويسير أفرادها طوع غرائزهم وشهواتهم ومصالحهم ، ولما كانت الشـــهوات والرغبات والمصالح تختلف وتتعارض فمن الضرورى أن يثور الخلاف والشجار وأن تمتلىء النفوس والقلوب بمشاعر العداء الذى يظهر حيناً ويختفى حيناً آخر .. وهكذا سوف تجد رب الأسرة يرتشى إن كان موظفاً ويخون ويغش إن كان غير ذلك ، والمرأة تسكت عن المنكر والأبناء منحرفون ، والبيت تخيم عليه نذر الضياع ويصبح أشبه بسفينة بلا ربان أو لها ربابنة متعددون مختلفون .

تتلاطمها الأمواج وتوشك على الهلاك وإن من أهم ما يميز الأسرة المنحلة إنعدام السلطة القوية الرشيدة التي يقتنع بها كل أفراد الأسرة ويلتزمون بما تضعه كنهاج سلوك للأسرة .

وقل مثل ذلك عن المجتمع الذى تنحل أخلاقه ، وتنحط قيمه ، فسوف تجد العيش فيه أصبح أمراً ثقيلا ، فلا تراحم ولا رحمة ، وإنما قسوة وفظاظة ، ولا قناعة ولا رضى ، وإنما نهم وجشع وشيوع المنكر وتوارى المعروف وأهله، وشح لدى الأغنياء وسوء خلق لدى الفقراء ، وفساد بين العلماء ، وتطاول الجهلاء ، وإختلال فى القيم والموازين الإجتماعية فالمحسن يلقى جزاء السوء ، والمسيء يلقى الرفعة والتقدير ثم لا يلبث أن يتطرق الفساد الخلقى إلى أفراد الجهاز الحكومى فتشيع الرشوة وينعدم الضمير والحرص على الصالح العام وفى فترات من التاريخ الإسلامى وصل الفساد إلى حد رشوة الفقهاء والعلماء والقضاة والولاة والحكام ... وبذلك يصبح المجتمع مجتمع وحوش فى غابة ، الغلبة فيه للأقوى والأشرس والأشد أظافر وأنياباً ، ويصبح صاحب الباطل قوياً بماله وصاحب الحق ضعيفاً بفقره ، ثم تتوارى وتذوب قيم العدل والخير والمعروف والأخلاق، فتصبح لا وزن لها ، ولا لمن يتمسك بها ، وتعلو قيم الفساد كالفخر والمباهاة والنفاق والرياء والفجور وتقوى سيطرة أصحابها وتصبح فى مجتمع الفاسقين المنافقين الذى قال الله تعالى فيه : والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ، أن المنافقين هم الفاسقون (١) ولك أن تحكم بنفسك على مثل هذا المجتمع الذى تبرأت منه الأخلاق وفرت منه الفضيلة أى مجتمع يكون وكيف تغدو الحياة فيه حيث

---

(١) سورة التوبة : آية ٦٧ .

تشيع الفاحشة وينتشر الزنا وشرب الخمر والميسر والغش والكذب ، فلا يأمن الإنسان على عرضه ولا على ماله ولا على دمه ..

وهنا قد يقول البعض ، وقد سمعت ذلك كثيرا ، أن العديد من المجتمعات في الغرب والشرق تنتشر فيها الأخلاق الفاسدة ويغلب على أفرادها الانحلال ، ولا يعرفون الدين ، ومع هـذا فهي مجتمعات متحضرة متقدمة علميا وصناعيا واقتصاديا وسبقت المسلمين بمسافات شاسعة في هذه الميادين، بل وتبيع لهم مازاد من إنتاجها من الغذاء والسلاح والدواء ..

فما أهمية الأخلاق وما هي آثارها إذن ؟

والحقيقة أن مثل هذا التساؤل ومثل ذلك الأسلوب في التفكير كان أحد العوامل التي ساعدت على إنحطاط الأخلاق في عدد من المجتمعات الإسلامية ، بل وتنكب بعضها عن طريق الدين الإسلامي وأخذها بالإتجاه العلماني وإبعاد الدين عن السياسة والحكم والدولة وتنظيم المجتمع بدعوى أن هذا ما يحقق له التقدم الحضاري المنشود ..

والرد على أمثال هؤلاء وعلى دعاواهم وتصـوراتهم يمكننا أن نجمله فيما يلي :

أولا : أنهم يقصرون نظرهم على التقدم المادي في بعض المجتمعات التي لا تعنى بالدين أو الأخلاق ، فيبهرهم النجاح الإقتصادي في مجالات الصناعة والزراعة والتجارة وكذلك التقدم الكبير في دراسات وبحوث العلوم الطبيعية والإنسانية وما يتعلق بكل ذلك من التكنولوجيا وازدهار الفنون والآداب ، وما يؤدي إليه ذلك من القدرة وامتلاك الأسلحة والذخائر وتحقيق القوة العسكرية. بينما يغفلون أو يتجاهلون الجوانب المعنوية في الحياة ، فالقيم المادية ليست كل شيء وإغفال

القيم المعنوية التي تتمثل في الدين والاخلاق ليس أمرا هينا يسيرا بل هو أمر بالغ الخطورة وخيم الآثار ، وقد أقر علماء تلك المجتمعات بذلك ونبهوا إلى خطورة الأزمات التي تمسك بخناق الناس فيها ، ويقول ذلك أحدهم : أن الأزمة المعنوية التي تكافح فيها مدنيتنا الغربية منذ ثلاثة قرون إنما هي **ازمة خلقية** (١) .

فالرخاء المادى لا يكفي وحده ولا يغني عن الرخاء المعنوى ، ولن تشعر المجتمعات والأفراد بالرضى والطمأنينة والقناعة بأن تكون الحياة خلواً من الجوانب المعنوية والنفسية التي تتمثل في الدين والأخلاق .. بل لقد أثبتت آخر الأبحاث الطبية أن العديد من الأمراض التي يشكو منها أغلب الناس لا ترجع إلى أسباب عضوية وإنما ترجع إلى عوامل نفسية ، وقد نشأ لذلك علم جديد هو الطب النفسي الجسمي : (Psycho - physique)

ومن بين تلك الامراض أمراض الهضم والمعدة والامعاء والقرلون وأمراض المرارة والكبد والقلب .. ومن التعبيرات العربية القديمة ، قولهم : إنخلع قلبه ، وإحترق كبده ، ويقول تعالى عن سيدنا يعقوب عليه السلام في بيان مبلغ حزنه على يوسف عليه السلام : وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم(٢) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : الهم نصف الهرم . والمسيح عليه السلام يقول : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » أن الحضارة المادية الصرفة إذا خلت من المدنية والثقافة الراقية ، ومن القيم المعنوية السامية ، ومن تعاليم تقيم

---

(١) المشكلة الأخلاقية : بارودى .

(٢) سورة يوسف : آية ٨٤ .

أحكام الدين وقواعد الأخلاق تغدو حضارة عقيمة تدمر ما تعمر وتأكل ما تلد وتهبط بالإنسان إلى مدارك الحيوانية بدلا من الرقى به فى مدارج الإنسانية.

ولا ننسى أن نشير إلى ما نجم عن الحياة المادية الصرفة ومن الإنسياق وراء الشهوات وما تهوى الأنفس ومن تجاهل القيم الأخلاقية والتنكر لها من إنتشار أمراض يمكن أن يطلق عليها أمراض الفساد الخلقى مثل الأمراض التناسلية كالزهرى والسيلان والأمراض الجلدية والفطرية والعقم وتناقص السكان بدل ازديادهم حتى أن بعض المجتمعات لم يزد سكانها منذ سنوات بل والبعض الآخر ينقص عدد سكانها كل عام ...

ثانياً : أن أولئك الذين يرفعون أصواتهم بعدم أهمية الأخلاق فى مجال التقدم الإجتماعى ، لم يفرقوا بين الوسيلة والغاية فى نظرتهم إلى معنى التقدم فالتقدم العلمى والإقتصادى والعمرانى تعود دوافعه إلى تحقيق غاية معينة : هى تحقيق الخير والسعادة للإنسان ، فالتقدم وسيلة وليس غاية فى حد ذاته ، والهدف هو توفير الراحة والطمأنينة والرفاهية للإنسان ، والسعى إلى تحقيق السعادة للفرد والمجتمع .. ولكن لننظر إلى مقدار ما تحقق فى هذا المجال .. ولن نجد إلا إنهيار مفهوم الأسرة مع إنهيار مفهوم العفة ، وشيوع الأمراض النفسية والعقلية وذيوع الإنتحار مما يدل على عدم الشعور بمعنى الحياة والضيق بها والتبرم منها ، وليس هذا بمجرد إتهام بل هو وقائع وحقائق أظهرتها الدراسات والإحصاءات فى عديد من المجتمعات وعبرت عنها بالأرقام والاستقصاء .

فلا ينكر أهمية الأخلاق إذن : سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع إلا إنسان كافر بأديان الله السماوية أو أمرؤ جاحد بالقيم الإنسانية وقد كان الأولى ألا يظهر بين المسلمين من يتبع هذا الضلال ويتبع خطى أولئك المنكرين لضرورة الأخلاق

وأهميتها ، وكان الاولى كذلك أن يكبت ذلك الفريق الضال ، فلا يسمع لهم رأى ولا يقام لهم وزن ..

ولكن ما حدث فى بعض المجتمعات الإسلامية كان - مع الأسف والأسى - غير ذلك ، وتلك ثماره يجنيها ملايين المسلمين الآن .

لقد نسى أولئك المارقون ، المتنكرون للأخلاق ، قول الله تعالى فى كتابه الحكيم :

« قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب » (١) . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وان الله يبغض الفاحش البذى (٢) ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ : « أن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » .

وعن أبى أمامه الباهلى رضى الله عنه قال « قال رسول الله ﷺ : أنا زعيم (٣) ببيت فى ربض الجنة (٤) لمن ترك المراء (٥) ولو كان محقا ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مادحا ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أن من أحبكم إلى وأقربكم

---

(١) سورة المائدة : آية ١٠٠ .
(٢) البذى هو الذى يتكلم بالفحش ورديء الكلام .
(٣) أنا زعيم أى أنا ضامن .
(٤) فى ربض الجنة أى حولها كالأبنية التى حول المدينة .
(٥) المراء الجدال .

منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون ، والمتفيقهون ، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون (١) فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون .

وروى الترمذى عن عبد الله بن المبارك رحمه الله فى تفسير حسن الخلق قال : هو طلاقة الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان ذا خلق عظيم كما وصفه بذلك رب العزة سبحانه وتعالى فى قوله : وأنك لعلى خلق عظيم (٢) وأمرنا الله تعالى بأن نتأسى به ونسير على سنته ونتبعه ونقلده فقال تعالى : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (٣) .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول : أن من خياركم أحسنكم أخلاقا (متفق عليه) وقال عليه السلام : « البر حسن الخلق » (٤) .

جاء الإسلام بالعقيدة والعبادات والمعاملات ، وهدانا الله إلى طريق عبادته بها ، والأخلاق هى أساس صلاح تلك العبادة ، فلا تجد حكماً شرعياً يستغنى عن قاعدة أخلاقية ، ولو جردنا الأحكام الشرعية من جانبها الأخلاقى لفسدت عديمة الأثر وتمثل الأخلاق الجانب الإنسانى فى كل عمل يقوم على أحكام الشريعة ، وإذا كانت شعب الشريعه المختلفة من عقائد وعبادات ومعاملات ونظم قد جعلها

---

(١) الثرثار هو كثير الكلام تكلفا والمتشدق المتطاول على الناس بكلامه ، ويتكلم بملء فيه تفاصحا وتعظيما لكلامه .

(٢) سورة القلم : آية ٤ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٢١ .

(٤) رياض الصالحين للنووى صفحة ٢٧١ .

الله تعالى طريقاً إلى تحقيق السعادة للإنسان فى الدارين فإن تلك السعادة لا بد للحصول عليها وتحقيقها من حسن الخلق، ويدل تاريخ الرسالات السماية وإرشاداتها على أن إنقطاع شعب الدين عن شعبة الأخلاق أو إنقطاع شعبة الأخلاق عنها يهدم فى النفوس وفى الحياة الأثر الذى ترتبه الحكمة الإلهية فى الإنسان على التكاليف بهذه الشعب والإرشاد إلى التمسك بها ، وليس الخلق المطلوب فى صون هذه الشعب التى يرجع إليها الدين عند الله، بجرد أن يعرف أن الصدق فضيلة والكذب رذيلة وأن الإخلاص سمو والمكر والخداع إنحطاط ، ولا بجرد الحديث بين الناس عن ذلك ، وأن الناس تخلوا عن الأخلاق الفاضلة ، وإنما الخلق ، هو إنفعال النفس وتأثرها بما ينبغى أن يكون فيفعل وبما لا ينبغى أن يكون فيترك .

والخلق بهذا المعنى : هو الصمام لهذه الشعب كلها ، وهو المعتصم الذى يتمسك به من أراد أن يكون مسلماً حقاً ، والعقيدة وما إليها دون خلق شجرة لا ظل لها ولا ثمرة والخلق دون عقيدة ظل لشبح غير مستقر .

ومن هنا كانت عناية الإسلام بالخلق عناية تفوق كل عناية ولقد وصلت هذه العناية عند الرسول محمد ﷺ إلى أن جعل الخلق متعلق رسالته « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقد كثرت توصيات الرسول ﷺ فى هذا الجانب حتى قال : (أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامه تقوى الله وحسن الخلق) وحتى جاء رجل ذات مرة ووقف بين يديه وسأله : « ما الدين يا رسول الله ؟ فقال : حسن الخلق. فجاءه من قبل يمينه وسأله السؤال نفسه وكان الجواب حسن الخلق ثم جاءه من الشمال ، ومن الخلف ، وسأله السؤال ، وكان الجواب هو الجواب » وما أشد وقع حكم الرسول ﷺ على المرأة التى قيل له فيها : أن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : لا خير فيها هى من أهل

النار . وما أشد وقع هذا الحكم على هؤلاء الذين وقفوا من الدين عند مجرد الكلام وكثرة التحدث عن الفضيلة وصور العبادات وأشكالها ، ثم ما كانت نفوسهم مجبولة إلا على الغش والمكر والخداع والملق والنفاق . يدبرون السوء ويفسدون ما بين الناس من روابط ، مستعينين بتشويه الحقائق ودس الأكاذيب والعمل على كل ما يقوض دعائم الحياة الطيبة الفاضلة ، هؤلاء فى واقعهم ليسوا من التدين فى شيء ، وإن الله سبحانه وتعالى لم يجعل الإيمان به أساس دينه ، ولم يجعل العبادات أركاناً له إلا لما تحدثه من أثر طيب فى النفوس ويكون عنصراً لتكون الخلق الفاضل وأنظر وتأمل قوله : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وإن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » لتعرف أن هؤلاء بوضعهم الخلق ومسلكهم بين الناس وإزاء المصالح العامة قد استحلوا لأنفسهم ما بطن من الفواحش واستحلوا لأنفسهم الإثم والبغى بغير الحق وقالوا على الله ما يعتقدون بغض الله له . يقول الله تعالى: « يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون فالعبادة وسيلة للتقوى وحسن الخلق من التقوى .

فى ظل هذه الشعبة ، شعبة الأخلاق ، يكون الربانيون والشهداء والصالحون وفى ظلها يكون الأئمة والهداة والمرشدون وفى ظلها تطهر النفس الإنسانية من الحقد والحسد والنفاق والجبن والكذب والخيانة وما إلى ذلك من الأخلاق السيئة التى كثيراً ما أفسدت على الناس حياتهم وتوارت فى ظلمتها القاتمة وسائل الخير والصلاح (١) .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر محمود شلتوت — طبعة دار الشرق — ص ٤٨٢ .

ولك أن تتأمل فى المجتمع الذى تعيش فيه وتنظر إلى من تعرفهم من الأفراد والأسر، لتعلم أثر الأخلاق فى كل جوانب الحياة..

فكم من حياة زوجية قامت على سنة الله ورسوله ثم تحطمت بسبب سوء الخلق فى الزوج أو الزوجة أو فيهما فتفككت روابطهما وذابت المودة والرحمة وقد يتشرد الأبناء والبنات ولا يجدون غالبا من ينشئهم على الفضائل ويربيهم على حسن الخلق.

وكم من روابط متينة، وصلات وثيقة، كانت تجمع بين الأقارب وأولى الأرحام، أو بين الأصدقاء والأقران أو بين الزملاء فى العمل أو الجيران، قطعها سوء الخلق مثل السعى بالوشاية والمشى بالنميمة والكذب والبهتان .. يقول تعالى : « قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب. ومن شر النفاثات فى العقد » .

والنفث فى العقد يكون بالسحر كما قد يكون — فى قول بعض المفسرين — بإفساد ما ينعقد بين الناس من روابط، كعقدة الزواج والأخوة والصداقة .. ويكون هذا بوسائل الشر المعروفة كالوشاية والنميمة.

ويقول تعالى : « قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس » وتلك صورة أخرى من صور الأخلاق السيئة وهى الوسوسة فى صدور الناس التى تقع من بعض الناس، وهى الكلام الذى يلقى إلى السامع فيثير فيه عوامل الشر والسخط ويشجع على الفسوق والعصيان، ويسبب القلق والشك والحيرة ويؤدى باختصار إلى الفتنة : فتنة الدنيا والدين .

وأول من تعرض لهذه الوسوسة آدم وحواء وهما فى جنة الله وفى ظلال رضوانه . قال تعالى :

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين »(١) .

ولا زال ابليس وجنوده من الإنس والجن ماضـون فى هذا الإفســاد بالوسوسة ، فيخرجون الناس من نعيم الطاعة إلى ظلام المعصية ومن طمأنينة القلب والنفس إلى شقاوتها :

كما أن سوء الخلق يحول الزوجة من الطاعة إلى النشوز والابن والبنت من البر إلى العقوق والمرءوسى من الطاعة إلى المخالفة ، والرعية من الامتثال إلى المعصية والموظف من الأمانة وحسن العمل إلى الفساد والرشوة ، والإنسان من الرضى والطمأنينة إلى القلق والسخط ويحرمه من فضائل الصبر والقناعة والعفاف .

وسوف تتضح لنا آثار الأخلاق وأهميتها حين نتناول أقسامها وأنواعها فى الفصل التالى :

---

(١) سورة الأعراف : آيات ١٩ — ٢١ .

الفصل الثالث

أقسام الأخلاق

إن الصفات الخلقية كثيرة متعددة الأنواع ويمكن لنا تقسيمها إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة :

(أ) فإنه بالنظر إلى طبيعة الأخلاق يمكن أن تنقسم إلى أخلاق بسيطة وأخلاق مركبه وأخلاق نظرية وأخلاق عملية .

(ب) وبالنظر إلى ظهورها وخفائها تنقسم إلى أخلاق السلوك وأخلاق النفس أو الأخلاق الظاهرة والأخلاق الباطنة .

(ج) وبالنسبة لمن يتصف بها يمكن تقسيمها إلى أخلاق الفرد وأخلاق الجماعة أو الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية .

(د) وأخيرا فبالنسبة لطوائف من يتصفون بها يمكن تقسيمها إلى أخلاق الحكام وأخلاق الحكم وأخلاق السياسة وأخلاق العلماء وأخلاق النساء .

والحقيقة أن تفصيل القول فى هذه الأقسام والأنواع من الأخلاق إنما يتطلب عدة مؤلفات وليس بمجرد فصل واحد من هذا الكتاب ، ولهذا فإنى أرجو أن يعينني الله على بسط القول فيها فى مؤلفات مستقلة تصدر فيما بعد . واكتفى فى هذا الفصل بتقسيم أنواع الأخلاق هذه إلى إثنى عشر قسما فى إثنى عشر مبحثا بالترتيب التالى :

المبحث الأول : عن الأخلاق البسيطة والمركبة .

المبحث الثانى : عن التخلق بأخلاق الله تعالى .

المبحث الثالث : عن أخلاق الفكر .

المبحث الرابع : أخلاق السلوك .

المبحث الخامس : عن الأخلاق الفردية .

المبحث السادس : عن الأخلاق الاجتماعية .

المبحث السابع : عن أخلاق الحكم .

المبحث الثامن : عن أخلاق السياسة .

المبحث التاسع : عن أخلاق العلماء .

المبحث العاشر : عن أخلاق النساء .

المبحث الحادى عشر : عن الأخلاق النظرية .

المبحث الثانى عشر : عن أخلاق المنافقين .

وفيما يلى بيان ذلك :

المبحث الأول

الأخلاق البسيطة والمركبة

قد يتصف شخصان بنوع واحد من الخلق ، كالصبر ومع ذلك تجد أن سلوك أحدهما يختلف عن سلوك الآخر ، فأحدهما يتصف سلوكه بعزة النفس والآخر يتصف بالذلة والمهانة . هذا الإختلاف قد يحار المرء فى تعليله ، ولكن معرفة الفرق بين الأخلاق البسيطة والأخلاق المركبة هى التى تبرر هذا الإختلاف ، فخلق الصبر مع خلق الشعور بالكرامة يؤدى إلى سلوك يتسم بعزة النفس ، بينما الصبر مع عدم المحافظة على الكرامة يؤدى إلى خلق الذلة والمهانة ... وهكذا نجد أن بعض أنواع الأخلاق تتكون من خلقين أو أكثر ومن هنا يظهر التباين فى أنماط الشخصيات وأنواع السلوك الفردى والإجتماعى .

فبالنسبة للأخلاق الإجتماعية نجد أن إقتصارها على نوع الفضائل الدينية وعدم إنضمام فضائل العمل والتحضر إليها يؤدى إلى التخلف ونقصد بفضائل العمل والتحضر الفضائل الخلقية التى تتصف بها الشعوب والمجتمعات التى لا تعتمد على الدين فى حياتها مثل : عادات النظام وحب النجاح والتفوق والقدرة على الإبداع والمنافسة والقدرة على الإستفادة من السلبيات وتحويلها إلى إيجابيات كل تلك الصفات وغيرها تؤدى إلى التحضر والرقى الإجتماعى والإقتصادى والتقدم العسكرى ..

ولا يمكن أن تتقدم المجتمعات الإسلامية والكثير من بينها ترى أن الشفقة بالفرد أهم من مصلحة الجماعة ، وأن العفو عن المسيء والمخطيء فضيلة خلقية ، وأن ترك السعى والنظام والعمل لا يضير فى إعتبار الفرد فاضلا طالما أنه لا يشرب الخمر ولا يزنى ولا يسرق، وقد دفع هذا العديد من المفكرين مثل الشيخ محمد عبده

ومالك بن نبي وغيرهما إلى التنبيه إلى خطورة هذا الفهم لمعنى الأخلاق في الإسلام وقال أولهما حين زار أوربا : رأيت أخلاق وسلوك المسلمين عند قـــوم ليسوا بمسلمين ورأيت في الشرق سلوك وأخلاق غير المسلمين عند قوم مسلمين".

ولو كان النجاح في الحياة الدنيا لا يتطلب صفات خلقية أخرى غير الأخلاق الدينية ، أو لو كانت الأخلاق الدينية وحدها تغني عن الإتصاف بصفات خلقية تتطلبها المعيشة في الحياة الدنيا ، لاكتفى بذلك الأنبياء والرسل وتركوا أمور الحياة دون سعي لها ، ولكنهم جميعاً عملوا للدين والدنيا معاً وعرفوا كيف يتعاملون مع المؤمنين وكيف يعاملون الكفار والمشركين والمنافقين ..

أن الرسول ﷺ لم يكتف بالدعاء على الكفار والمشركين ويقصر جهده وصحابته على هذا ، بل هاجر بدينه وأعد عدته وبنى قـــوة المسلمين في المدينة واعتمد في غزواته على الجهاد والإستشهاد ولم يترك لله تعالى وملائكته أن يحاربوا معاركه ، ثم أن وسائل العيش من زراعة وصناعة وتجارة لا يقتصر النجاح والتقدم فيها على التـواكل بل تتطلب العمل الدائب الصابر والخلق المثابر فإذا إنضم إليها التوكل على الله كان الفوز عظيما ..

ولا يكفي أن يكرر الخطباء في المساجد منذ أكثر من ألف عام وفي كل خطبة جمعة ذلك الدعاء المعهود بأن يهلك الله أعداء الدين وينصر كلمة الله ، فالله تعالى ينصر من ينصره ، ويعمل على جعل كلمة الله هي العليا بالجهاد والعلم والصبر والأخلاق الفـاضلة .

وسنورد فيما يلي أمثلة أو نمـاذج لصور من الأخـلاق المركبة التي توضح أن إقتران صفة خلقية بصفة خلقية أخرى تماثلها أو تنـــافضها يؤدي إلى تغيير بارز ظاهر في سلوك الفرد والمجتمع .

التقوى + الإيجابية = ثورة على المنكر .
التقوى + سلبية = سكوت عن المنكر .
العفة + إيجابية = نشاط محتشم .
العفة + سلبية = عزلة خاملة .
المحبة + يقظة = تعاون .
المحبة + بلادة = مجرد عاطفة أو دعاء .
الشجاعة + الإندفاع = التهور .
الغضب + الكراهية = الإنتقام .
الغضب + عدم التبصر = حمق .
الغيرة + الإنفعال = ثورة وجنون .
الغيرة + التعقل = المنافسة .

وهناك خلقان لا يجتمعان فى فرد إلا زاناه وجملاه كما أنه لو إجتمع خلقان فى إنسان إنتفى عنه وصف الإيمان. وقد قال رسول الله ﷺ خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق كما نفى رسول الله ﷺ أن يكون المؤمن كاذباً . وكذلك نجد أن الإخلاص لله تعالى إذا أضيف إليه خلق التسامح أثمر خلق التعاون أما إذا إقترن بالتعصب أنتج الطائفية (١) .

---

(١) عبد الحليم محمد أبو شقة - العدد الأول والثانى من مجلة المسلم المعاصر - ربيع الثانى ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م - صفحة ٤١ .

المبحث الثانى

التخلق بأخــــلاق الله تعالى

قال رسول الله ﷺ : « تخلقوا بأخـلاق الله » فما هى أخـلاق الله تعالى التى يدعو رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام إلى أن نتخلق بها ؟

إن المقصود بأخلاق الله تعالى صفاته وأسماؤه الحسنى ، وليس المقصود أن نتسمى بتلك الأسماء والصفات ، وإنما المطلوب ممن هداه الله إلى التقوى وحسن الخلق أن يتخلق بالمعانى الخلقية التى تدل عليها أسماء الله تعالى وصفاته مثل الرحمة والمغفرة والعفو والصفح والحمد والشكر والحلم والصبر ..

وتنقسم أسماء الله تعالى وصفاته ، وهى تسع وتسعون إسما . بالنظر إلى هذا الاعتبار أى إمكان التخلق بها إلى قسمين :

(أ) « أسماء للتعلق » .

(ب) وأسماء للتخلق .

والقسم الأول الذى يشمل أسماء التعلق لا يقبل النظر إليه واعتباره إلا وسيلة لدعاء الله تعالى وتنزيهه وتسبيحه وانفراده بتلك الأسمــــاء والصفات التى سمى بها ذاته العلية .

ومن أمثلة أسماء الله تعالى التى لا يجوز فيها إلا التعلق : اسم الجلالة : الله ، والأول والآخر والظاهر والباطن والحى القيوم ، والمتكبر والخالق والبارىء والمصور والباعث .. وهذا على سبيل المثال لا الحصر ومن أمثلة أسماء الله تعالى التى يجوز المسلم أن يتخلق بها : البر والرحيم والغفور والعفو والشاكر والصبور والحليم ..

على أن ما ينبغى التنبه إليه : أن التخلق ببعض صفات الله تعالى تحقيقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام « تخلقوا بأخــلاق الله » ، لا يعنى أن المخلوق أصبح يتخلق مع الخالق بصفة واحدة ، فإن لله تعالى المثل الأعلى ، وهو سبحانه ليس كمثله شىء ، وإنما المقصود أن يحب المؤمن صفات الله تعالى التى وصف بها ذاته العلية والقيم العليا التى تدعو إليها ودعوة الله عباده أن يتصفوا بها وأن يتخلقوا بها ، فإن الله تعالى هو الصبور وهو سبحانه يحب الصــابرين وهو البر الرحيم الحليم الحميد الشكور ويحب فى عباده صفات البر والرحمة والحلم والحمد والشكر ولكن من صفات الله تعالى ما يمقت أن يتخلق بهــا معشر الإنس والجن فهو سبحانه الجبار المتكبر وهو يمقت كل متكبر جبار . وقد كان الرسل والأنبياء أكثر خلق الله تخلقا بأخلاق الله تعالى ، وقد وصفهم الله تعالى بعديد من صفاته مثل قوله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليــه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (١).

وقد وصف الله تعالى ذاته فقال : « وأن الله بالناس لرءوف رحيم » .

وقال رسول الله ﷺ :

« إن لله ثلاثمائة خلق من تخلق بأحدها دخل الجنة » .. وقد اتصف الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام بخلق الحلم ووصفه الله تعالى به فى قوله : « إن ابراهيم لأواه حليم » ، ووصف الله تعالى كلا من نوح وموسى عليهم الصلاة والسلام بأنهما من الشاكرين فقال تعالى : « لقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح أنه كان عبدا شكوراً » .

(١) سورة التوبة : ختامها .

المبحث الثالث

اخــــلاق الفــــكر

أخلاق الفكر هى كل ما نفكر فيه ونشعر به مما يتعلق بالأخلاق ، وهنـاك أنواع من التفكير يمارسها العقل مثل التفكير العلمى والتفكير المجرد والتفكير القائم على التداعى والترابط والتفكير التصورى والخيالى وهناك أيضاً التفكير الأخلاقى . . وللأفكار الخلقية دور هام فى إتجاهاتنا السلوكية وأعمالنا وتصرفاتنا ، وفى تكوين الشعور الخلق ، فالأخلاق ليست أعمالا لا إرادية ولكنها أعمال تبـدأ بالتفكـير وتقليب أوجه النظر والمقارنة بين الإختيارات المختلفة المتاحة أمام الإنسان ثم يتجه القصد والإرادة إلى تبنيها وتنفيذها إن كانت مما يخرج إلى حيز التنفيذ أو تبقى شعوراً مصمما عليه إن كانت ممـا لا يظهر ويظل قاصراً على الفـكر والشعور كالبغض والحب والحقد والحسد مثلا .. وثمة جانب من الفكر الأخلاقى يتصل بالعقيدة الدينية وما يترتب على الإيمان بها من الخير والشر والثواب والعقاب ويسميها الغربيون « الأخلاق اللاهــوتية » وأما بالنسبة للمسلمين فإن الفـكر الأخلاقى الفاسد يسمى زندقة أو إلحاداً أو شركاً ، وليس كل ما يتعلق بدراسة التوحيد والإيمان مما يدخل فى الفكر الأخلاقى ، وإنما يدخل منه فيه ما يتعلـق بالبواعث والنوايا والأغراض أو الهدف التى تتصل بأى سلوك ، كما يدخل فيها الدراسات والبحوث المتعلقة بالضمير والإرادة ..

ثم أننا نجد أنه فى مجال الأخلاق تنقسم الفضائل - وهى من أهم موضوعاتها - إلى قسمين :

فضائل عملية : كالعفة والشجاعة والعدالة تحكم الانفعالات وتسيطر عليها، وتقود الأفعال وتوجهها ، فهى فضائل خاصة بالخلق والطباع .

وفضائل عقلية : كالعلم والحكمة والتبصر وحسن فهم الناس وحسن تقدير الامور .

والفضائل العقلية متممة للفضائل الأخلاقية متفوقة عليها نفعاً ومنزلة ، والفضائل العقلية لا تتم بطبيعة الأمر ، إلا إذا توفرت فى صاحبها الفضائل الأخلاقية — غير أن إكتساب الفضائل العقلية علاوة على الاعتماد على التعود والممارسة اللازمين للرجل الفاضل ، يفترض قبل كل شيء إكتمال القدرة الحاكمة المفكرة .

إنما فضائل العلم والنظر والتأمل ، وهى أسمى ما فى الإنسان من فضائل ، فحصولها لا يتم على خير وجه إلا عند الإنسان الذى كان فى حياته عفا شجاعا عادلا ، وإن لم يقف عند ممارسة تلك الفضائل الأخلاقية عند المستوى العادى (١) .

ومن الجدير بالذكر أن العاقل والحكيم يجدون فن الأخلاق الفكرية لذة لا تسمو عليها لذة ، وفى هذا يقول ابن حزم : لذة العاقل بتمييزه ولذة العالم بعلمه ولذة الحكيم بحكمته ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده أعظم من لذة الآكل بأكله والشارب بشربه والواطىء بوطئه والكاسب بكسبه واللاعب بلعبه والآمر

(١) مراحل الفكر الأخلاقى : الدكتور نجيب بلدى ١٩٦٢ . دار المعارف صفحة ٢٠ .

بأمره وبرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون سائر اللذات التى سميناها كما يجدها المنهمك فيها ويحسونها كما يحسها المقبل عليها وقد تركوها وأعرضوا عنها وآثروا طلب الفضائل عليها وإنما يحكم فى الشيئين من عرفها لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر (١).

وأن أكثر ما يوهن المجتمعات هو ذلك النوع المنحرف من أخلاق الفكر الذى يشيع الفساد والإلحاد والزندقة باسم التحرر الفكرى.

(١) كتاب الأخلاق والسير لابن حزم : صفحة ٨ .

المبحث الرابع

أخـــلاق السلوك

أخلاق السوك هى الأخلاق العملية الظاهرة التى تظهر للنـــاس فى الأفعـال والأقوال وسمت الشخصية كاتخـــاذ مظاهر التكبر أو الإحتقار أو السخرية أو التواضع وغير ذلك ..

ويشترط لصحة الحكم على سلوك الإنسان واعتبار ما صدر منه عملا أخلاقيا شرطان هما :

أولا : أن تكون أعمالا إرادية ، تتجه إليها النية ويتأكد فيهـــا الباعث والقصد ، أما الأعمال غير الارادية فلا تعد من أخلاق السلوك حتى وإن إتصفت بأوصاف الحسن والقبح الخلقيين : وفى مقدمة ذلك النوع اللاإرادى وما يصدر عن النائم وعن المجنون وكذلك ما يصدر عن الإنسان العـادى المتيقظ العاقل من أفعال بطريق السهو أو الخطأ أو النسيان فكل تلك الأفعال تخرج عن نطاق أخلاق السلوك ..

ثانيا : أن يطابق ما ظهر من أفعال السلوك ، ما بطن فى نفس الإنسان ، أى أن يتفق القصد الظاهر مع القصد الخفى أو النية المستترة ، ولذلك فرق رسول الله ﷺ بين المهاجرين معه فلم يعتبرهم جميعاً أصحاب هجرة فى سبيل الله فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إنما الاعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله

ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) .

فلا يعد إذن عملا أخلاقيا كل عمل يصدر عن الإنسان فى مظهر أخلاقى ، بل قد يكون لانعدام القصد الأخلاقى أو لسوء النية ولمخالفتها لظاهر الفعل عملا ذميما قبيحاً غير أخلاقى .. لا يدل على حسن أخلاق من صدر عنه وإنما يدل على خبثه وخداعه ونفاقه ..

ولهذا لا يصح الحكم على أخلاق المرء بأقواله ، ولا بمظاهر عباداته ، بل بمعاملاته وسلوكه وهكذا نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه النـــاس على دمائهم وأموالهم والمهاجر من هجر ما نهى عنه ..

وقد فقه عمر بن الخطاب هذا المعنى وطبقه فى قضائه وحكمه على الناس : فقد جاءه رجل يشهد لرجل آخر بأنه يتصف بالعدل والإستقامة والصـلاح ، فسأل عمر ذلك الشاهد : أتعرف ذلك الرجل ؟ فقال نعم . فسأله عمر : هل أنت جاره الذى يعرف مدخله ومخرجه ويطلع على شؤونه ؟ فأجـاب الرجل : لا .. ثم سأله عمر : هل صاحبته فى السفر الذى تعرف به مكارم الأخـــلاق ؟ فقال الرجل : لا .

وأخيرا سأله عمر رضى الله عنه : هل عاملته بالدرهم والدينار المعـاملة التى يعرف بها ورع الرجل ؟ فأجاب الرجل : لا .

---

(١) متن الاربعين النووية للإمام النووى . دار الكتب العلميـة بيروت ـــ صفحة ١٢ وفيه : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » المراد : لا تحسب الأعمال الشرعية إلا بالنية .

فقال له عمر : لعلك رأيته قائما قاعدا يصلى فى المسجد يرفع رأسه تارة ، ويخفضه أخرى ، فرد الرجل : نعم . فقال له عمر : إذهب فإنك لا تعرفه والتفت إلى الرجل وطلب إليه أن يأتيه بمن يعرفه ويشهد له على هذا الأساس الذى بينه .. وإشادة المرء بأخلاقه غير معتبرة ، والله تعالى يقول :

فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى والصـــدق فى السلوك الخلقى ، ومطابقة ظاهر الأفعال والأقوال لما يضمره المرء ويسره فى صدره إنما يتعلق بالإخلاص

قال الله تعالى : وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة (١) .

وإذا وازنا بين النية وبين السلوك الظاهر لرجحت النية ولرسول عليه الصلاة والسلام يقول : نية المرء خير من عمـــله . وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنها قال : كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال : « أن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرة ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض » وفى رواية « ألا شركوكم فى الأجر (رواه مسلم) .

وفى رواية البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال : « أن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا واديا إلا وهم معنا ، حبسهم العذر (٢) .

---

(١) « دين القيمة » أى الملة المستقيمة وحنفاء أى مائلين . عن جميع الأديان إلى دين الإسلام . سورة البينة آية ٥ — رياض الصالحين — صفحة .

(٢) الشعب بكسر الشين الطريق فى الجبل والوادى : الموضع الذى يسيل فيه الماء ، رياض الصالحين . المرجع السابق .

ثالثا : أن يكون الفعل أو السلوك قد تم إختياراً أى بمحض رغبة الفرد واختياره ، ويلاحظ أن الإرادة تختلف عن الاختيار ، فقد يفعل المرء الفعل بإرادته ولكن بدون إختيار صحيح ، كمن يتصدق كارهاً ، أو كمن يقدم على الفعل بتأثير الضغط الاجتماعى المتمثل فى العادات والتقاليد ، أو إذا خاب مسعاه لسبب خارج عن إرادته ، كمن يتوجه إلى موضع ليحتسى فيه الخمر ويأتى الفاحشة فيجده مغلقاً .. أو كمن يتبرع للخير فى جمع عام محرجاً غير مختار .. أو من يقدم الطعام غير مختار لضيف يضيق بضيافته ولا يود إكرامه .. وكذلك كل حلم أو صبر أو كظم غيظ أو عفو يتم دون إختيار صحيح .

المبحث الخامس

الأخــــلاق الفردية

أول ما ينبغى الإشـــارة إليه هو أن الظاهرة الخلقية ليست مجرد ظـاهرة فردية بحتة لا تهم سوى صاحبها فحسب ، فإنه لا وجود لإنسان يعيش وحده فى عزلة كاملة عن كل البشر ، وحتى عندما كان آدم وحواء وحدهما فى الجنـة ، فإن آدم كان يفتقر إلى العزم مما أدى إلى خروجه مع زوجته من الجنة :

قال تعالى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذا كان يتعين إقامة تفرقة بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية فإن تلك التفرقة إنما تتمثل فى أمرين :

الأول : مدى إنتشار الظاهرة الخلقية ، فى الأخلاق الفردية نجد صفـــات خلقية أقل إنتشاراً وخاصة تلك التى تتطلب إستعدادات خاصة ودأبا ومثابرة لا يتوافران لدى أغلب الناس : مثل الحلم والصبر والحكمة .

والثانى : طبيعة بعض الظواهر الخلقية ، واتجاه بعضها إلى الصفة الذاتية ، كالعفة تبدو أوصافاً للنفس ، وسمات للشخصية ولا تدخل ضمن مجموعة الصفات الخلقية التى تقوم عليها العلاقات الاجتماعية بين الفرد وغيره ، فإن عدم الغش فى الكيل والميزان والقرض الحسن والصدقات والكلمة الطيبة وإفشاء السلام وإطعام الطعام وغير ذلك هو مما يدخل فى الأخلاق الاجتماعية لأنها صفات خلقية لا يتصور تحققها إلا بين الفرد وغيره ..

أما الصبر والحلم والتبصر والرفق فهى من الأخلاق الفردية التى يعتبر سمات

للشخص وصفات تتميز بها شخصيته عن غيره ممن يفتقر إلى تلك الصفـــات أو يختلف عنه فى درجتها لديه ..

ورغم تلك التفرقة بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية فإن التداخل بينهما مستمر ، فمن ناحية نجد أن "صفات الخلقية الفردية لم تنشأ فى نفس صاحبها عفوا أو جاءته بطريق الفطرة ، وباستثناء الانبياء والرسل الذين اصطنعهم الله تعالى لنفسه وأدبهم فأحسن تأديبهم فإن المرء حين يتساءل عن مصدر الاخلاق الفردية كالحلم والصبر والرفق فإنه سيجده فيمن كان له فضل غرسها من الوالدين أو المربين أو ما تعلمه وقرأه من مؤلفات وآراء فى الدين والأخلاق ..

ومن هنا فإنه يغدو عسيراً وضع حد فاصل قاطع بين السلوك الفردي والسلوك الإجتماعى أو بين السلوك الخاص والسلوك العام ، ومن هنا فلا يقبل من أى إنسان أن يقول : طريقة تصرفى وسلوكى الأخلاقى الشخصى هو مما يعد من الامور التى تهمنى وحدى ولا تهم أحداً سواى .. فهذا القول بعيد عن الصواب ، إذ أن مسلك الفرد وإن بدا شخصياً للوهلة الاولى إلا أن تأثيره فى المجتمع لا ينكر وذلك للأسباب الثلاثة التالية :

الاول : أن السلوك الخلقى الفردى يؤثر فى شخصية الفرد ، وهذا الفرد يصبح جزءاً من المجتمع ينفعه إذا كان حميد السلوك ويضره ويسىء إليه إذا كان منحرف الأخلاق .

الثانى : أن الظواهر الخلقية سريعة الإنتشار وتنتقل بين أفراد المجتمع عن طريق التقليد والمحاكاة ، وإذن فمن هنا يغدو الخلق "الفــــردى عاملا مؤثراً فى أخلاقيات المجتمع ويضاف إلى ذلك أن سلوك الفرد الشخصى يؤثر تأثيراً ظاهراً

على سلوكه وتصرفاته فى المجتمع العام(١) .

وأول من يتأثر بسلوك الفرد الشخصى هم أقرب الناس إليه أى أفراد أسرته ثم يمتد التأثير ويشمل اصدقاءه ووسطه الإجتماعى سواء كان وسط دراسة أو وظيفة أو تجاره أو جوار وتصبح الطامة أكبر لو كان من أصحاب القلم أو المعلمين .

الثالث : أن السلوك الفردى إذا كان سيئاً منحطاً فإنه يضر بالمجتمع من حيث ظهور الجرائم فيه ، فمن المشاهد أن جرائم الرشوة والإختلاس وإهمال الواجبات وخيانة الأمانة إنما تصدر عن نمط معين من الأفراد إنعدم لديهم الضمير الخلقى وانحرفوا إلى مسلك الأخلاق الشائنة فانزلقوا إلى الرشوة والإختلاس لإشباع شهواتهم وإنحرافهم الخلقى .

أما بالنسبة لتأثير الأخلاق السيئة للفرد على ذاته فإننا نجد آثار السلوك الخلقى تظهر على الفرد نفسه ، فالخلق يؤثر على صحة الفرد ومزاجه وعقله وتفكيره ، فالإنحلال الخلقى يؤدى إلى خور الجسم وإنحطاط الصحة والخمور والمخدرات تضر بصحة الإنسان وتفكيره كما أن سيطرة الإنفعالات الجامحة وإستمرارها يؤدى إلى العديد من الامراض ، فقد أثبتت البحوث الطبية أن إنفعالات الحسد والحقد والغضب والكراهية والغيرة لها تأثيرها الذى يساعد على الإصابة بأمراض الدورة الدموية وإصابة القلب وأمراض المعدة والكبد ، وباختصار فإن سوء الطوية يؤدى إلى سقم الباطن ويؤثر فى الصحة بما ينغص على الخبيث عيشه ،

---

(١) المشكلة الخلقية ـ تأليف الدكتور زكريا إبراهيم ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٥ - ص ٨٧ .

كما أنه من المشاهد الملموس أن المتفوقين دراسياً فى كل مراحل التعليم هم من تغلب عليهم الصفات الخلقية الحميدة و يتمتعون بشخصيات متزنة متكاملة .

ثم شىء آخر، هو أن تلك المشاعر الخلقية القبيحة لها تأثيرها كذلك على ملامح أصحابها وسيماهم ، فوجه الإنسان الحقود والحسود وملامح الإنسان الشرير ونظراتهم توحى بالنفور وتبعث على كراهيتهم ، وإن ذلك من بشاشة الوجه ونقاء الأسارير وجميل القول ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » فبسط ولين القول وكرم النفس أبلغ تأثيراً من بذل المال بمن يفتقر إلى حسن الخلق وصدق الحق سبحانه وتعالى حيث يقول : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » .

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام بخلقه العظيم أسوة حسنة لكل راع مسئول يكسب بحسن الخلق ودمن حوله ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

صور الأخلاق الفردية :

يميز الإسلام فى مجال السلوك الخلقى بين أعمال الباطن والقلوب و بين أعمال الظاهر ويمكن لذلك أن نقسم صور الأخلاق الفردية إلى ثلاث صور :

الأولى : أفعال السلوك التى يأتيها الإنسان بإرادته وباستخدام الجوارح — أعضاء الجسم الخارجية — ومن تلك الأفعال ما يتصف بالخير ومنها ما يتصف بالشر — وهذا النوع من الأفعال لظهوره — يكون هو الأساس فى حكم الناس على الإنسان وقد تناولنا هذه الصورة عند كلامنا عن أخلاق السلوك .

والصورة الثانية : هى للسلوك الأخلاقى غير المرئى وهو يشمل كل ما يتصل بالمشاعر الباطنية وحالات القلب باعتباره مركز الشعور وهذا النوع من السلوك هو فى الحقيقة أهم من سابقه ، لأن العبرة فى أى عمل هى بالنية والباعث عليه يقول عليه الصلاة والسلام إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى ، وكم من أعمال نقوم بها الجوارح الظاهرة وظاهرها الصلاح والخير ، وهى شر دائم وتنتهى بصاحبها إلى أن يطرح فى النار إذا كان باعثها الرياء والنفاق والرغبة فى الثناء . ومن الأعمال القلبية مالا يظهر ولا تدل عليه أعمال الجوارح ، مثل الحسد والحقد والبغض والحب وهذه توصف بأنها خيرا أو شر يجازى عليها الإنسان :

والصورة الثالثة : للسلوك الأخلاقى لا تتعلق بأعضاء أو جوارح الإنسان ولا تتعلق بالباطن وحده أو بالظاهر وحده وإنما تتعلق بشخصية الإنسان التى تعبر عن باطنه وظاهره وأعضائه جميعاً ، إنها ثمرة ذلك كله وتتمثل فى كل أثر يتركه المرء بشخصيته فى غيره ، مثل التكبر والتواضع فى السير والجلوس والكلام اللين والرفق واحتقار الغير والهمز واللمز وغير ذلك من سمات الشخصية التى يترتب عليها ذلك الأثر النفسى الذى يولده الإنسان فى غيره فيدفع إلى حبه والإقبال عليه أو احترامه وتقديره أو إلى بغضه والنفور منه واحتقاره. ومما له وثيق الصلة بالأخلاق الفردية ذلك الجانب من الأخلاق الذى يتصل بعقيدة الإنسان وعلاقته بربه ومدى توكله عليه وثقته بالله وكذلك آراء الإنسان حول الخير والشر والفضيلة وأفعال الله تعالى وحكمته وما يربط الإنسان بربه من روابط الحب والتعلق والتضرع، ويتجاذب البحث فى أخلاق العقيدة هذه أكثر من علم إذ تدخل فى علوم الدين والأخلاق والكلام .

ونختم كلامنا عن الأخلاق الفردية بالإشارة إلى أن الباعث عليها هو ذات الإنسان والرغبة فى المحافظة عليها وتحقيق ما تصبو إليه النفس من رغبات ومنافع

ذاتية ، ومن هنا كانت للذاتية والأنانية أهمية كبرى فى مجال الأخـــلاق الفردية ويقابلها من الناحية الأخرى البذل والإيثار فالأثرة والإيثار هما محور الأخلاق الفردية والإسلام قد جاء بما يحقق التوازن فى حياة الإنسان بالنسبة للصراع بين الأثرة والإيثار فلا يمحو ناحية على حساب الأخرى ، وفى ذلك يقول الحـــق سبحانه وتعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا » .

وإذن فمنهج الإسلام فى هذا المجال أنه لا فرار ولا بغى اى لا فرار من الحياة وإنصرافاً عنها ولا بغى على الخير من أجلها ، على أنه لا شك أن الإسلام يوجب تفضل الإيثار على الأثرة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» . «وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين .. » وفى سبيل تربية النفس وتعويدها الإيثار حث الإسلام على القناعة والصبر والتواضع . ولا شك أنه فى مجال الأخلاق الفردية نجد أن الأنانية المفرطة هى أساس كل الرذائل الخلقية والآثام وتفكك روابط المودة والرحمة فى الأسرة والمجتمع .

ومنذ عهد بعيد والمفكرون والمصلحون يدعون إلى محاربة الأثرة وأن تكون أخلاق الفرد وسلوكه بحيث لا يؤذى غيره ، وقد عرف ذلك فى الفلسفة اليونانية وفى تعاليم البوذية والبرهمية ولكن تلك الآراء والتعاليم تفتقر إلى ما جاء بقواعد الإسلام فى هذا المجال من توازن وعدل يصلح شأن الإنسان ويصون حياته . ولا يقر الإسلام الرهبنة التى عرفها المسيحيون والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لا رهبانية فى الإسلام » ويوصى بأن يكون الخير والإيثار لمن يدنو من الإنسان بالقرابة أو الجوار فالأقربون أولى بالمعروف .

المبحث السادس

الأخلاق الاجتماعيـــة

يقصد بالأخلاق الاجتماعية كل سلوك أخلاقي يمكن أن ينشأ بين فردين أو أكثر وكذلك ما يسود من علاقات أخلاقيـــة ، سواء في نطاق الأسرة أو الجماعة أو المجتمع ولذلك فسوف نبدأ ببيان مجال الأخـــلاق في الأسرة ثم في المجتمع .

(١) الأخلاق بالنسبة للأسرة :

أول مجال يظهر فيه تأثير السلوك الأخلاقي هو الأسرة ، فالآباء والأبناء الكبار يؤثرون في الصغار تأثيرا يلازمهم مدى الحياةفالبيت هو المدرسةالأخلاقية الأولى للطفل وأي علاقة تربط بين الأفراد الذين يعيشون معاً أو يمضي معهم الفرد وقتا غير قصير كزملاء الدراسة أو الجماعات التي تجمع بين أفرادها علاقات مشتركة وروابط قوية كالقرناء في الجيش أو الأقسام الداخليـة أو السجون أو دواوين الموظفين فتلك الجماعات ـ رغم إنتفاء عامل القرابة الأسرية فيها لها تأثيرها الأخلاقي البارز في أخلاق أفرادها بحيث قد يتأثرون بهاتأثرا عميقاخاصة أولئك الأفراد الذين لم يتأثروا خلقياً بأسرهم ، ولم يتكون لديهم ما يمكن أن نسميه : « المناعة الخلقية » التي تتكون بغرس الخلق الثابت المتين . والتأثير في الأسرة لا يتم بطريق التلقين وحده وإنما يكون للقدوة دورها كذلك ، بل أن دور القدوة يفوق دور التلقين : فأخلاق الام والأب وسلوكها يعد العامل الأكبر في تشكيل أخلاق الأبناء وتوجيه سلوكهم وذلك لأن الأبناء إنما يقتدون بالأخلاق التي يتأكدون من إقتناع آبائهم بها والتي يعلمون أنها المعبرة بالفعل

عن نواياهم وأهمية الأخلاق فى الأسرة تبرز منذ اللحظة التى يفكر فيها الرجل فى بناء أسرة، حيث يحدد له الإسلام إختيار الزوجة ذات الدين « فاظفر بذات الدين تربت يداك » والرسول عليه الصلاة والسلام إذ قال ذلك يقول أيضاً : « تزوجوا الودود الولود » فالمرأة الودود طاهرة القلب نقية السريرة حسنة الخلق وأكبر ما يسبب شقاء الأسرة سوء الخلق ولؤم الطباع فى الأم أو الأب أو من يتصل بها ويؤثر فيها تأثيرا عميقا ..

والطباع السائدة لدى أحد الوالدين أو كليهما تأثيرها الضار أو الحسن على نفسية الأبناء وسلوكهم، وذلك كطباع النزق والطيش وسرعة الاستثارة والغضب أو الحلم والصبر والرفق أو عدم ضبط النفس أمام الشهوات على أن دور الأسرة فى تكوين الأخلاق تلعب فيه الوراثة عن الوالدين دورا كبيرا يستحق أن نشير إليه .

دور الوراثة فى تكوين الأخلاق : أن الوراثة هى :

١ — ميراث الطفل الحاصل من الأبوين كليهما .

٢ — وهو يتحدد بصفة نهائية عند عملية التلقيح فلا يمكن إضافة أى عنصر وراثى إليه بعد ذلك حتى من الأم التى تحمله وتمده بالغذاء لتسعة شهور تالية .

٣ — ميراثه يعم كل أعضائه لأنه موجود فى كل خليــة من خلاياه والصفات التى ثبت إنتقالها من الأبوين إلى أبنائهما قسمان إما صفات سائدة وهى التى تظهر فى أول جيل بصفة ظاهرة أو صفات كامنة إذا لم تظهر فى الجيل الأول وظهرت فى الأجيال التالية . ومن هذه الصفات ما يتصل ببنية الجسم أو يرجع إلى وظائف الأعضاء أو يتصل بالعقل .

فمن الصفات الأولى : بعض الصفات الخلقية الواضحــة كالطول والقصر

ولون الجلد ونوع الشعر وشكل الرأس وبعض الحالات الخاصة بأصابع اليد أو القدم كزيادة الأصابع أو نقصها أو إلتصاقها أو طولها أو قصرها . والصلع ولون العينين ولون الجلد .

ومن الصفات الوظيفية طول النظر وقصره والصمم والبكم وزيادة الحساسية وضغط الدم ومرض السكر والعمى اللونى والهيموفيليا (مرض بالدم).

ومن الصفات العقلية :

١ — الضعف العقلى فقد درس جودارد Goddard بعض العـائلات التى يكون فيها كلا الأبوين ضعيف العقل فوجد ٤٠٪ من الأطفال ضعاف العقول و ٦ عاديين وعندما درس عائلات أخرى كان فيها أحد الأبوين ضعيف العقل والآخر عاديا وجد أن ١٩٣ طفلا ضعاف العقول و ١٤٤ طفلا عاديين ودرس ٣٦ عائلة فيها كل من الأبوين غير ضعيف العقل فوجد ٨٣ طفـلا عاديا و ٣٩ طفلا ضعيف العقل .

ولعل السبب فى هذا يرجع إلى أن ضعف العقل عامل وراثى كامن . ومن الأبحاث المعروفة المؤيدة لوراثة الصفات العقلية إستقصاء بعض العائلات لمعرفة مدى إطراد الوراثة . ففى إستقصاء لعائلة داروين المشهورة وجد أن خمسة عشر شخصا منها وصلوا إلى عضوية الجمعية الملكية بانجلترا وقد استقصى علماء النفس الأمريكيون عائلتين لجندى أمريكى كان قد اشترك فى الحرب الأهلية وعاشر فتاة بلهاء أثناء الحرب وأمكن تتبع نسله منها ونسله الآخر من فتاة عادية من أسرة عادية تزوجها بعد انتهاء الحرب فتبين من تتبع تاريخ الأسرة الأولى أنه من بين ٢١٠٠ نفس منها كان ٣٧٨ من الساقطات و ١٨١ من مدمنى الخمر و ١٪ مأسولا و ١٢٩ متشردا و ١١٨ مجرما وأن حوالى نصف العـائلة كان مصابا

بضعف العقل وأن كثيرا منهم مات منتحراً أو محكوم عليه بالإعدام أو السجن بينما كان من نسله من الزوجة الثانية من وصل إلى مرتبة المستشارين بالمحكمة العليا ومن اشتهروا بالنجاح والإستقامة والمقدرة العلمية ».

وقد ثبت من دراسات الذكاء ومن دراسات التوائم خاصـــة أن الذكاء موروث (١). ولا شك أن للذكاء علاقة كبيرة بالسلوك الأخلاق .

(٢) الاخلاق بالنسبة للمجتمع :

الغاية من قواعد الأخلاق الإسلامية هي تكوين المجتمع الذى يتصف بالقوة والوحدة والقوة والوحدة هما السبيل إلى تحقيق الكرامة والعزة والخير للمجتمع ولكل أفراده ، ورغم أهمية الأخلاق فى بناء المجتمع وتوفير القوة له ، فإن الأخلاق فى الأسلام تظل دائماً هدفاً بقصد لذاته ويعلو على كل ما يعرقل تحقيقه، ولا جدوى من أى نجاح يحققه المجتمع فى أى مجال طالما أنه لم يقترن بالتمسك بقيم الإسلام الخلقية ، بل أن التقدم الحضارى الاقتصادى يحمل فى ثناياه بذور الانحلال والتدهور إذا لم يقم على أسس أخلاقية ، بيد أن المرء هنا يحق له أن يتساءل وما هى الوسائل التى يمكن بها تحقيق "قوة والوحدة للمجتمع الإسلامى ؟ والجواب هو أن الإسلام قد جاء بنوعين من القواعد الأخلاقية لتحقيق هـــذا الهدف : فهناك قواعد أخلاقية لوقاية المجتمع من عوامل الهدم والانحلال وهناك كذلك قواعد أخلاقية لبناء المجتمع قوياً متحداً ، ونشـــير إلى نوعى القواعد فيما يلى :

---

(١) مبادىء الأخلاق تأليف الدكتور ماهر كامل وعبد المجيد عبد الرحيم الطبعة الأولى ١٩٥٨ مكتبة الأنجلو المصرية صفحة ١٢٠ — ١٢٢ .

أولا : لوقاية المجتمع من الضعف والانحلال :

جاء الإسلام بقواعد أخلاقية تتمثل فى منع الفساد والعاملين على نشر الفوضى والفسق من تحقيق ما يشتهون ، فلا حرية لأصحاب الفساد والمفسدين ، وليس معنى حرية الفرد فى الإسلام أن يباح لأى فرد أن ينفث سموم الفساد الخلقى بإسم الحرية ، وبعبارة موجزة فلا يباح أى نشاط يتعارض مع أحكام الشريعة وروحها وإذا كان من قبيل سد الذرائع يتم منع بعض المباحات إذا كان القيام بها يؤدى إلى مفسدة غالباً فإنه يكون من أولى الأمور منع المفاسد ذاتها وعدم إقرار أى فرد على إعتبار إتيانها إحدى حرياته الفردية وبهذا المنع نحول بين بؤر الفساد وبين نشر عدواها وإنتشار الفساد والعدوى به تتم بسرعة إذا سكت عنه المجتمع فيغدو المنكر متعارفاً عليه ولا نجد من ينكره على أن الإسلام دين الحياة والواقع والمجتمع الذى يخلو من كل صور الفساد والرذيلة لا وجود له إلا فى أذهان أصحاب المذاهب الفلسفية الخيالية ، ولهذا فقد عالج الإسلام الواقع، فإذا وقعت بعض حوادث الفساد والجرائم الخلقية فإن الإسلام قد وضع من القواعد الخلقية ما يمنع تأثيرها الضار على المجتمع، وذلك عن طريق ستر الجرائم ، فإشاعة الفاحشة يشجع على تقليدها وإتيانها وفى ذلك يتوعد الحق سبحانه وتعالى أولئك الذين يحبون إشاعة الفاحشة فى المجتمع ، يتوعدهم بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة على مجرد حب الإشاعة فكيف بالعمل على نشر الفاحشة ، يقول تعالى : أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون(١) فلا يجوز أن تكشف أستار الجرائم الخلقية أمام الناس ، وإذا كانت العقوبة علنية فإن الجريمة نفسها يجب عدم نشر تفاصيلها ، أن إعلان الجرائم الخلقية والتشجيع على الفاحشة يفسد الجو الخلقى للمجتمع ويجعل الشر

---

(١) سورة النور : آية ١٩ .

ظاهراً وظهوره قد يغرى صعاف النفوس بأرتكابه ، ولذلك أعتبر الإسلام أن من يرتكب جريمة خلقية ثم يعلنها ويذيعها إنما هو قد إرتكب جريمتين : — جريمة إرتكاب المحظور وجريمة الإعلان عنها ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيما رواه الشافعى فى مسنده : أيها الناس من أرتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله تعالى ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد .

ثانيا : عوامل قوة المجتمع ووحدته :

لا يتحقق لأى مجتمع ما ينشده من قوة إلا إذا قوى فيه صوت الحق وعلا وظهر الداعون إلى الخير ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، وتوارى صوت حزب الفساد وزمر الشر لأن ذلك يؤدى إلى خلق ظاهرة إجتماعية هامة هى الرأى العام الذى يدافع عن المبادىء الخلقية ويعمل على صيانتها ويتصدى لمن ينتهك حرماتها ، والرأى العام القوى السليم هو الذى يشد أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض ويقوى أواصرهم ونشر صور الفضيلة وتشجيع أصحاب الأخلاق السامية وتزكيتهم هو السبيل إلى تقوية المجتمع وحفز عزائم أفراده للتعلق بالمثل والقيم الرفيعة ..

وبجانب ذلك الجانب المعنوى فى إصلاح المجتمع فان الإسلام لم يترك الجانب المادى ، فجعل الزكاة للفقراء والمساكين وجعل للسائل والمحروم حقاً معلوما ، وحث على الصدقات والاحسان والبر وايتاء المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين .. وأهم آثار ذلك كله تتبدى : لا فى كساء العريان أو إطعام الجائع فحسب ، بل فى إيجاد مشاعر التعاطف والتراحم وظهور المودة بين أفراد المجتمع ، ومجتمع هذا شأنه يخلو من الحقد والتحاسد والبغض والتدابر ويصير كل من فيه إخوانا متحابين .

المبحث السابع

أخـــلاق الحـــكم

لا تعرف مبادىء الإسلام (الحكم الميكيافيللى) النزعة، التى يعد الغاية مبرراً للوسيلة فالحكومة الإسلامية غاياتها وأهدافها أخلاقية ووسائلها فى تحقيقها ينبغى أن تكون أخلاقية كذلك. وإذا كانت الحكومة قد يفوتها بعض الكسب المالى مقابل الحفاظ على بعض القيم الخلقية فان ذلك لا يضير وما تربحه من النجاح فى مجال الأخلاق يربو بكثير على ما يخشى فقدانه. وقد جاء الإسلام بدعامتين هامتين للمحافظة على قوة الحكومة، وهما الحرص على تولية الأكفاء مناصب الحكومة والإدارة ثم منع الرشوة وتحريمها. والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: لعن الله الراشى والمرتشى. وإذا كانت التشريعات الوضعية تجعل الحكام مسئولين أمام شعوبهم، فإن الإسلام قد زاد على هذا مسئولية أخرى أخطر وأعمق؛ هى المسئولية أمام أحكم الحاكمين.

وهكذا نرى أن موضوعات الأخلاق فى الإسلام هى من الدقة والشمول بحيث تشغل الحياة الإنسانية برمتها، فهى تتناول الإنسان منذ طفولته حتى يلقى ربه، والإسلام يجعل إبتداء التربية الخلقية فى سن مبكرة حتى تصبح خلقاً ثابتاً فى حياة الفرد بعد ذلك، حين يصير شابا وكهلا وإلى جانب هذا الامتداد الزمنى لموضوعات الأخلاق واستمرارها مع سنى العمر، فإننا نجدها تدخل كل حالات الإنسان ومظاهر نشاطه أى سواء كان متحركا أو ساكناً، جاداً أو لاهيا، لا يخرج منها إلا حالات إنعدام المسئولية وزوال التكليف الشرعى.

ومن الجدير بالإشارة أن الإنسان فى حالات السكون لا تنقطع صلته بالقيم الخلقية، لأن المشاعر النفسية لا تتوقف فيه، وقد يقترف المرء وهو ساكن لا

لا يتكلم ولا يتحرك من الآثام ما يربو على كثير من الأفعال والأقوال السيئة كما فى حالة الحسد والحقد . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : أنا أعلمكم بالله وأن المعرفة فعل القلب لقول الله تعالى « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » .

وهكذا فنحن نجد أن كسب الإنسان من الخواطر النفسية هو أمر عظيم لا يستهان به ، ولا يقل أهمية عن قوله وفعله بل هو يزيد عليهما لأنهما نتيجة له له يقول الله تعالى : ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما إكتسبوا وللنساء نصيب مما أكتسبن واسألوا الله من فضله أن الله كان بكل شىء عليما « ويقول تعالى إن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ويقول جل وعلا : والذين يتبوءوا الدار والإيمان من قلبهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتو ويؤثرون الناس على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

المبحث الثامن

أخـــــلاق السياسة

ربما كان عنوان هذا البحث يحمل التناقض فى حد ذاته فإذا قلنا « أخـــلاق السياسة » فقد يبادر البعض إلى التساؤل ! وهل فى السياسة أخلاق ؟

أن السياسة هى فن تسيير الأمور : سواء فى الأسرة أو الجماعة أو الدولة .. وما يعنينا هنا بطبيعة الحال هو سياسة الدولة أو سياسة الحكم .

وليس من العيب أن نعترف بأن العرب والمسلمين قد سبقتهم شعوب عديدة فى مجال السياسة النظرى والعملى ، وليس من العيب كذلك أن نعترف باستمرار هذا التخلف حتى عصرنا الحاضر ..

وقد سبقتنا فى ذلك أمم وشعوب مثل اليونان فى مجـــال السياسة النظرية والرومان فى مجال السياسة العملية أو فن الحكم والإدارة ثم كان للإنجليز شهرة كبيرة فى مسائل السياسة العملية على وجه خاص ..

ومن الممكن أن نجد أن الأخلاق والسياسة قد صارا علمين مستقلين تماما فى مجال العلوم الوضعية فى العصر الحديث بعد محاولات استمرت طيـــلة العصور القديمة للربط بينهما فى نطاق دراسة علم الفلسفة .

فكانت الفلسفة تقسم إلى قسمين كبيرين وهما الفلسفة النظرية والفلسفة العملية وتشمل الأولى ثلاثة أقسام هى الآلهيات والطبيعيات وبينها الرياضيات أما الفلسفة العملية فكانت تشمل علوم الأخلاق والسياسة والإقتصاد .

وقد أنشأ الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد فى عام ١٤٥ هـ ،

وأنشأ فيها سبعة دواوين كان من بينها ديوان الشئون السياسية . ومع التقدم العلمي الذي عرفه العصر العباسي إنتقلت الآراء والنظريات السياسية من الفلسفة اليونانية إلى العربية وحاول فلاسفة المسلمين أن يجاروا فلاسفة اليونان فألف الفارابي كتابا فى السياسة ولكن هذا الكتاب يصور المدينة الفاضلة بعيدا عن الحياة الحقيقية أو الواقعية (١) ..

وكان الفشل فى ربط الأخلاق بالسياسة أمراً متوقعاً وطبيعياً ، لأنه إذا أمكن القول فإن السياسة يمكن أن تخضع لذات القواعد التى يخضع لها الفرد فى علم الأخلاق ، وأن تطبق فيها مبادؤه وقيمه مثل الصدق والوفاء بالعهد ، فإن ذلك قد بدا مسألة نظرية بحتة على مر العصور التاريخية فى أكثر المجتمعات فى الشرق والغرب ، لأن المجتمعات الكبيرة التى تحتوى على جماعات عديدة وعلى مصالح متشابكة ومتناقضة ، تصبح القيم الخلقية فيها أمراً شديد الإبهام والغموض عسير التطبيق .

إن السياسة لم تكد ترتقى حتى الآن عن مستوى المنفعة ولم تكن لتتطلع إلى مستوى أعلى منه ، فإن الغرض المألوف لرجال السياسة إنما هو خدمة الأمة التى يتولون زعامتها : خدمتها بأى ثمن ولو ضحوا فى سبيل ذلك بالعدل والخير ، فالأهم عندهم هو تنمية قوة الأمة وسلطانها وثروتها وأمنها وشرفها ، وقد تختلف الوسائل التى تتخذ لتحقيق هذه الأهداف باختلاف الأزمان . غير أنه من المسلم به أن السياسة لما تزل على بعد شاسع من مبدأ الخير المقرر فى قانون الأخلاق ، فكم من طرق وعرة لابد للسياسة من ركوبها وكم من قيم ومبادىء

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف ف ه بارتولد وعربه عن التركية حمزه طاهر . دار المعارف بمصر طبعة ١١٥٢ ص : ٣٩ .

خلقية داستها وتجاهلتها تماما المصالح السياسية ، ليس فقط مصالح المحكومين بل وكذلك مصالح الحاكمين فى أحيان عديدة .

وليست العلاقة بين السياسة والأخلاق التى انتهت إلى هـذا الإنفصام فى الوسائل والغايات إلا أمرا مؤسفاً بل فاجعـاً ، فقد كان الشرف الحق للسياسة — وما زال أن تطابق قواعد الأخلاق (١) ..

وما سبق كله إنما ينطبق على علم السياسة والأخلاق الوضعيين ، ولكن ذلك لا ينطبق من أى ناحية على علمى الأخـلاق والسياسة الإسلاميين ، فإنه لا إنفصام بينهما ، ويجمعهما عنوان واحد تحت اسم السياسة الشرعية ، وهو أحـد المؤلفات الهامة لشيخ الإسلام ابن تيمية .. كما توجد مؤلفات إسلامية عديدة لا تفصل بين الدين والسياسة والأخلاق ..

وهكذا فشل علماء المسلمين الذين ساروا على النهج الوضعى فى التآليف فى الأخلاق والسياسة ونسوا حقيقة هامة هى أن السياسة فى الإسلام ليست غاية يضحى فى سبيلها بالقيم والمبادىء الأخلاقية بل هى وسيلة تشترك مع غيرها من الوسائل فى تحقيق الحياة القائمة على مبادىء الشرع وفى تحقيق القيم والمبادىء الخلقية .

---

(١) الأخلاق لأرسطو — المرجع السابق ..المقدمة .

المبحث التاسع

أخــــلاق العلمـــــاء

العلماء جمع عالم ، والعالم هو من اشتغل بالعلم وتفرغ له حتى إذا صارت له فيه ملكة أصبح من الراسخين فيه الذين أثنى عليهم الله تعالى باجتماع العلم والإيمان فيهم . يقول تعالى : هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه إبتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب (١) .

ولسوف نتناول الكلام فى أخلاق العلماء بتقسيمه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أخلاق العلماء بالنسبة للعلم .

الثانى : أخلاق العلماء بالنسبة للعلماء .

الثالث : أخلاق العلماء بالنسبة لسائر الناس .

(١) فأما عن أخلاق العلماء بالنسبة للعلم فيجب على العالم أن يفطن إلى أن الله تعالى قد فرض عليه عبادته . والعبادة لا تكون إلا بعلم فيتيقن لديه أن طلب العلم فريضة ، وأن المؤمن لا يحسن به الجهل حتى يستطيع أن يعبد الله تعالى كما أراد سبحانه وتعالى العبادة لا كما تهوى الأنفس .

ويجب أن يدرك العالم أن طلبه العلم هو من فضل الله عليه وهدايته له ، وقد قال النبى ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » وروى عن معاذ بن جبل

---

(١) سورة آل عمران : آية ٧ .

رضى الله عنه قوله : « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عباده ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام والأنيس فى الوحشة والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، يرفع الله به أقواماً ليجعلهم فى الخلق قادة يقتدى بهم ، وأئمة فى الخلق نقتص آثارهم ، وترغب الملائكة فى حبهم ، بأجنحتها تمسحهم ، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر ، حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه ... » .

والمشتغل بالعلم يجب أن يكون خلقه الصدق والأمانة ، لأن كذبه وعدم أمانته لا يعود الضرر فيهما عليه وحده ، بل يضر أجيالا حوله وبعده ، فعليه ألا ينسب قولا إلى غير صاحبه ، ولا ينسب إلى نفسه ما قاله غيره ، ولا أن يشوه رأى غيره فيمسخه ويسىء إليه وإلى العلم ، وكل ذلك يسمى فى لغة العلم المعاصر : « الأمانة العلمية » .

على أن ثمة سؤال قد يتبادر إلى الذهن فى هذا المجال ، عن المقصود بالعلم : وهو يقتصر على العلوم الشرعية وحدها ؛ والجواب على ذلك أن العلوم منها ما يتعلق بالشريعة الإسلامية ويسمى العلوم الشرعية ، وهذه ليست هى المقصود بالعلم فحسب ، بل يشمل العلم كذلك كل ما يتعلق بقوة المسلمين ، ويعين على رفع كلمتهم ودفع الظلم والذل عنهم ، لأن فى ذلك قوة للإسلام وإعلاء لدين الله ، وقد جعل الله تعالى إعداد القوة فرضاً على المسلمين : فقال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (١) .

---

(١) سورة الأنفال : آية ٦٠ .

ومن المعلوم أن ما لا يتم الواجب والفرض إلا به فهو واجب وفرض ، فإذا كان إعداد القوة فرضاً وواجباً فإن العلم الذى يعين على هذا الإعداد يعد طلبه والإشتغال به فرضاً وواجباً كذلك ...

فكل علم يبتغى به تقوية المسلمين عسكرياً وإقتصادياً وإجتماعياً هو من العلم الذى يفرض الله تعالى طلبه ويثبت عليه بالأجر الحسن والجزاء الأوفى ..

(٢) أما بالنسبة لأخلاق العلماء بالنسبة للعلماء :

يجب على العالم ألا يجادل ولا يمارى ولا يغالب بعلمه غيره من العلماء ، فما لهذا طلب العلم ، وإذا ناظر أحدهم ناظر بأدب المناقشة والمناظرة ، والمراء والجدال المنهى عنه هو ما كان القصد منه إظهار البراعة وإدراك الغلبة . روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من ترك المراء وهو صادق بنى الله له بيتاً فى وسط الجنة » .

وعن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » فالمؤمن العالم العاقل يخاف على دينه من الجدل والمراء .

وعن مسلم بن يسار أنه كان يقول : إياكم والمراء فإنها ساعة جعل العالم بها وبها يبتغى الشيطان ذلته .

وعن الحسن قال : ما رأينا فقيهاً يمارى .

وروى عن معاذ بن جبل قوله : إذا أحببت أخاً فلا تماره ولا تشاره ولا تمازحه .

فالمراء - كما يقول بعض الحكماء - أكثره يغير قلوب الأخوان ويورث التفرقة بعد الألفة والوحشة بعد الأنس .

والمراء لا يكون إلا بالنسبة لما يتوصل إليه العالم بنظره الشخصى ، أما فيما

ثبت من حقائق العلم فلا يسمى الرد فيه مراء وإنما هو تصحيح واجب وإظهار للحق لازم .. لأن الحق لا مراء فيه ..

وعلى العالم بالنسبة لأخيه العالم واجب النصيحة والمشورة الصادقة والاخلاص فى الحضور والغيبة وأن يقيل عثرته ويعفو عن هفوته ويشاركه فيما يحزن ويسر .

(٣) وأخيراً فإن أخلاق العلماء بالنسبة لسائر الناس تتمثل فى أن يأمن شره من خالطه ويأمل خيره من صاحبه لا يؤاخذ بالعثرات ولا يشيع الذنوب عن غيره ولا ينتصر منه بغير حق ، ذليل للحق عزيز عن الباطل كاظم للغيظ عمن آذاه شديد البغض لمن عصى الله وخان الامانة ، يجيب السفيه بالصمت عنه ، لا يكون مشاحناً ولا مختالا ولا حسوداً ولا سفيهاً ولا جافاً .

لقد سمع ابن عيينه يقول : إذا نهارى نهار سفيه وليلى ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذى كتبت .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه : من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم فى معاصى الله ولم يؤمنهم مكر الله ولم يترك القرآن إلى غيره ، ولا خير فى عبادة ليس فيها تفقه ولا خير فى تفقه ليس فيه تفهم ولا خير فى قراءة ليس فيها تدبر .

قال الفضيل : العلماء كثير والحكماء قليل وإنما يراد من العلم الحكمة فمن أوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا ويعنى العلماء والفقهاء كثير والحكماء قليل أن القليل من العلماء من هان عليه على الدنيا وطلب به الآخرة والكثير من العلماء قد افتتن بعلمه والحكماء قليل كأنه يقول : ما أعز من طلب بعلمه الآخرة .

ومن أخلاق العالم أن يكون متأدباً بالقرآن والسنة لا ينافس أهل الدنيا فى

عزها ولا يجزع من ذلها يمشى على الأرض هوناً بالسكينة والوقار وقلبه مشتغل بالفهم والإعتبار .

ولا يصح للعالم أن يستقضى بعلمه حوائجه ولا أن يقرب أبناء الأغنياء ويباعد الفقراء ، وأن يكون كالقاضى العادل فى وزنه للأمور وتقديره لطلاب العلم .

ثم على العلماء أن يعلموا ما علموه ولا يكتمونه، أو يكتموا بعضه، قال ﷺ: « أن من الصدقة أن تتعلم العلم ثم تعلمه إبتغاء وجه الله عز وجل » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت : المرابط فى سبيل الله ، ومن علم علماً أجرى له ما عمل به ، ورجل تصدق بصدقة فأجره يجرى ما جرت ، ورجل ترك أولاداً صغاراً يدعون له » .

سئل معاذ بن جبل عن معنى القانت فى قوله تعالى : « ان ابراهيم كان أمة قانتا » قال : « المطيع لله ورسوله » وكان معاذ يوصف بأنه من القانتين ... ومن صفوة علماء الصحابة وأعلمهم بالحلال والحرام كما جاء بالحديث الشريف .

ثم على العالم أخيراً أن ينأى بنفسه عن مواطن الشبهات وأن يعرف من يستحق أن يجالسه ومن لا يستحق وكيف يعاشر الناس ويتقى شرورهم وألا يستحى أن يقول لا أدرى الجواب إذا سأله أحد من الناس ولا أن يتكبر عن التسليم بذلك . عن عبد الرحمن بن مهدى قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس يسأله عن شىء فقال له مالك : لا أدرى .. قال الرجل : فأذكر عنك إنك لا تدرى . ؟ قال مالك : نعم ، أحك عنى إنى لا أدى .

فإذا تخلق العلماء بجميل الخلق وصانوا أنفسهم وعلمهم من النقص والسوء ،

صلح شأنهم وصلح شأن الناس ، ففي الحديث الشريف ، قال رسول الله ﷺ : صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس العلماء والأمراء(١) .

فصلاح العلماء يرفع درجاتهم عند الله ، ويصلح بصلاحهم شؤون الناس . قال تعالى :

يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فأفسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فأنشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (٢) .

---

(١) يقصد بالأمراء : رجال الحكم في عصرنا الحاضر وراجع : أخلاق العلماء لأبي بكر بن الحسين بن عبد الله الآجري المتوفى سنة ٣٦٠ هـ - دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع .

(٢) سورة المجادلة : آية ١٠ .

المبحث العاشر

أخـــلاق النســـاء

جاء الإسلام فى مجال الأخلاق بما يناسب النساء من الأخـــلاق ، فاختصهن ببعض الأحكام وجعل الرجال والنساء سواء فى أحكام أخرى ، كما جعل للرجال أحكاماً يختصون بها دون النساء تتفق مع طبيعتهم وخلقتهم .

« أ » فما جعله الله تعالى خاصاً بالنساء تحريم تشبه النساء بالرجال . فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء » وفى رواية : « لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » (رواه البخارى) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمـــرأة تلبس لبسة الرجل » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها النـــاس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وأن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

معنى : « كاسيات » أى من نعمة الله ، « عاريات » من شكرها ، وقيل معناه : تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهاراً لجمالها ونحوه .

وقيل : تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنها ، ومعنى « مائلات » قيل

عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه ، « مميلات » أى يعلمن غيرهن فعلهن المذموم .

وقيل : مائلات يمشين متبخترات ، مميلات لأكتافهن . وقيل مائلات يمتشطن المشطة الميلاء : وهى مشطة البغايا . « ومميلات » يمشطن غيرهن تلك المشطة . « رءوسهن كأسنمة البخت » أى يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها » .

وعن أسماء رضى عنها : أن إمرأة سألت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله أن ابنتى أصابتها الحصبة فتمرق شعرها ، وإنى زوجتها أفأصل فيه ؟ فقال : لعن الله الواصلة والموصولة » (متفق عليه) قولها : فتمرق : أى انتثر وسقط (١) ، فما يفعله النساء فى عصرنا الحاضر من لبس الشعر المستعار (الباروكات) وترفيع الحواجب وصبغ الجفون ، كل ذلك ليس من أخلاق الإسلام وهو مما يغضب الله تعالى ولا يجوز لها أن تبدى زينتها إلا لزوجها ولا أن يرى تلك الزينة إلا من هو محرم عليها من الذكور كالآباء والأخوة والأعمام والأخوال .

(ب) أما ما جاءت به الشريعة الإسلامية من أخلاق يشترك فيها الرجال مع النساء ، فكثيرة مثل : الصدق والتوبة ، والأخلاص ، والقنوت ، وحفظ الامانة والعفة ، وغض البصر .

قال تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون .

---

(١) رياض الصالحين للنووى صفحة : ٥١٠ .

وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ، (١) .

(١) سورة النور : آية ٣١ .

المبحث الحادى عشر

الأخلاق النظرية

الأخلاق عمل وسلوك والخلق طبع وأدب ، وليست الأخلاق مجرد العلم بما يجمل وما لا يجمل فإن العلم بذلك بغير عمل هم أمر لا جدوى منه ، ولذلك اعتبر العلماء علم الأخلاق من أقسام الفلسفة العملية مع الإقتصاد والسياسة ..

ولا جدوى فى أحكام الأخلاق إن تحولت إلى مجرد كلام يقال ، أو يسيطر فى الكتب أو يلقى فى المحافل أو يوعظ به فى المساجد دون أن يعمل بها ، وتكون المصيبة أكبر والخطب أفدح الا يعمل بها من يأمر بها ويدعو اليها فيكون ممن حق فيهم قول الله تعالى :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون »(١)

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » (٢) .

وقال تعالى اخبارا عن سيدنا شعيب عليه السلام : وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه (٣) .

وعن أبى زيد اسامه بن زيد بن حارثة رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب (أمعاء)

---

(١) سورة البقرة آية : ٤٤ .
(٢) سورة الصف آية : ٣ و ٣ .
(٣) سورة هود آية : ٨٨ .

بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه ، (١) فالإسلام دين وعمل وعقيدة وشريعة وأخلاق وسلوك ، .

وإذا نحن نظرنا إلى حال المسلمين اليوم وجدنا عندهم ظاهرة الأخلاق تتخذ صورتين :

الصورة الأولى :

العناية بالوعظ والإرشاد وتأليف الكتب وكتابة الأبحاث التى تتصل أو تقوم على الدين وعلى الدراسات الإسلامية ، وهذا أمر لا تثريب عليه ولا لوم فيه ، ولكن ما يفوت المسلمين فى هذا المجال غفلتهم عن الجانب العملى أو التطبيقى ، فلا تكفى الكتابة والخطابة وتعليم الدين بالمدارس ولا تفيد فائدتها المرجوة إلا إذا اقترنت بمنهاج عمل وطريق سلوك ، يقوم على الثواب والعقاب ، والمنع والمنح .. ومراجعة التشريعات الوضعية لسد ما بها من خلل يقوض الأخلاق ، ويهدد القيم : فمثلا عقوبة القذف والسب فى التشريع الوضعى جنحة يسيرة مع أنها فى الإسلام جرم عظيم :

يقول تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون (٢).

ويقول تعالى : ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا

---

(١) رياض الصالحين : للإمام النووى صفحة ١٠٥ .
(٢) سورة النور : آية ٤ .

والآخرة ولهم عذاب عظيم (١) .

فكيف يترك البعض يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ويسعى فى المجتمع فساداً ويشيع الفاحشة فيه ؟ وقد توعد الله تعالى أولئك المفسدين الفاسقين بالعذاب الاليم فى الدنيا والآخرة ، يقول تعالى : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والاخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢) .

فلا يكفى للأخذ بالأخلاق أن ينهض المسلمون نهضة نظرية تتمثل فى الكتابة والتلقين والنصح والإحتفالات وإقامة المعارض وإنما على من يريد الاخذ بالاخلاق أن يفكر ويخطط وينفذ بما يجعل صاحب الخلق محترماً فى عمله مقدراً من رؤسائه، وما يجعل الطلاب والطالبات توزن أخلاقهم فينحى عن مسيرة العلم من ساء خلقه لانهم أسوأ قدوة لمن حولهم ، وكذلك يجب العمل على أن يراعى فى اختيار من يشغلون مناصب القيادة كالوزراء ونوابهم والمديرين ورؤساء المصالح والهيئات، أول ما يراعى حسن الخلق وطيب السمعة لأن أمثال هؤلاء إذا كانوا من أصحاب الخلق السيء ، لم يعرفوا إلا بطانة السوء وحاشية الشر ، وأبعدوا أهل الصلاح والتقوى ، وما أوخم ما ينجم عن ذلك من عواقب فى جهاز الحكم وفى المجتمع ..

لقد أنفصلت الأخلاق فى المجتمعات غير الإسلامية عن الحياة الواقعية لأنها أخلاق وضعية تصورها المفكرون تصالح شؤون الناس ، فإذا بها تخفق إخفاقاً

(١) سورة النور : ٢٣ .

(٢) سورة النور : آية ١٩ .

شديداً دفع بعض المفكرين هناك إلى القول بأن كل الجهود التى يبذلها الفلاسفة فى سبيل تحديد موضوع الأخلاق لا تصلح « نقطة إنطلاق » لأية دراسة أخلاقية جادة ، إذ أن المشكلة الخلقية ليست مجرد أشكال نظرى بحت أو مجرد بحث منطق لغوى خالص ، وإنما هى أولا وبالذات مشكلة وجودية ، يواجهها المرء على مستوى الخبرة المعاشة .. وكذلك ذهب بعض المفكرين هناك إلى أن الأخلاق هى مجرد دراسة نظرية صرفة ، ما دام الغرض الذى تهدف إليه هو فهم طبيعة الحياة الخلقية .. وهكذا تشعبت دراسة الأخلاق الوضعية إلى شعبتين أو إتجاهين :

الاتجاه الأول :

دراسة الأخلاق دراسة واقعية أو عملية تقوم على تصوير حياة المجتمع الخلقية على أساس أن تكون نقطة انطلاق أى بحث أخلاقى فلسفى لابد أن تكون هى الخبرة الأخلاقية :

« Morrl Experience »

ومن هنا تبنى النظريات والمبادىء الأخلاقية على الأعراف الفاسدة والعادات السيئة ، ويهبط بذلك علم الأخلاق إلى مستوى الواقع السىء فى الحياة .

الاتجاه الثانى :

فينظر إلى الأخلاق نظرة مثالية باعتبارها تلك القواعد والمثل العليا التى ينبغى على الإنسان والمجتمع التمسك بها وتطبيقها فى شتى ضروب السلوك والمعاملات .

وقد لاقى هذا الإتجاه نقداً شديداً ينبنى على أن الأخلاق لا يمكن أن تكون نظرية وعملية فى وقت واحد ، بمعنى أنها تضع النظرية وتشرع لها التطبيقات

العملية ، فهذا فاسد منطقياً لأن الأخلاق حتى لو أريد لها أن تكون نظرية فإنها دائماً « معيارية » ولأنها دائماً « معيارية » فإنها لا تكون نظرية بالمعنى الصحيح ، ذلك لأن النظرى يصف ويصدر أحكاماً واقعية ، بينما المعيارى يصـــدر أحكاماً تقويمية تأمر بكذا وكذا ، ولا يمكن الجمع بين النظرية والتقويم ، بين الوصف وبين التقرير الواجب .

ومن المستحيل وضع النظرية « لما يجب أن يكون » وإنما توضع النظريات لتفسير ما هو كائن ، ثم أن المعرفة لا يمكن أن تكون معيارية : لا حين نريد أن نستخلص قواعد السلوك من المعرفة العقلية ولا حين نستخلصها من المعارف التجريبية وملاحظات الوقائع ..

ويذهب « ليفى بريل » إلى الأخـــلاق النظرية لا فائدة منها ثم أن تطور عادات الناس لا يتم بفضل النظريات الأخلاقية ، وإنما يتم بطريقة مباشرة ومستقلة ، لهذا فهو يرى أن طرح الأخلاق النظرية التى تقوم على التصورات العقلية على نحو مجرد ويستبدل بها علم دراسة الواقع الاجتماعى وتحليل ماضى المجتمعات الإنسانية وإدراك القوانين والروابط التى تحكم الظـواهر الاجتماعية والأخلاق فى نظر « ليفى بريل » هى مجموعة من الوقائع الاجتماعية وينبغى أن ندرسها بوصفها كذلك وبالمنهج المستعمل فى دراسة الظواهر الطبيعية ، وليست مهمة الأخلاق عنده وضع القواعد وتحديد ما ينبغى أن يـكون بـل موضوعها تحصيل المعرفة بالوقائع الأخلاقية ونبذ كل أخلاق نظرية وكل فلسفة خلقية على أن يحل محلها علم وضعى جـديد يـكون نوعا من « الفيزياء الأخلاقية » مناظرا « للفيزياء الطبيعية » ، يتولى وصف العادات والأعراف والتقاليـــد والرسوم الأخلاقية عند مختلف الشعوب فى مختلف العصور ، ثم اكتشاف قانون تطورها

الذى يحول الأخلاق إلى علم موضوعى لا ذاتى .

وهكذا تزعم « ليفى بريل » هذا الإتجـاه الجديد الذى يصرف الأنظار عن الفلسفة الأخلاقية ونظرياتها ونشر آرائه هذه فى مؤلفه : « الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية » الذى يعد ثورة جديدة فى هذا الموضوع من الدراسات ، ويعد تعبيرا كذلك لما يطلق عليه الآن إسم : المذهب الوضعى أو مذهب الوضعيين فى دراسة الأخلاق ، ومن أنصار هذا المذهب كذلك « كونت » و« دوركايم » اللذين أرادا تطبيق منهج البحث فى العلوم التجريبية على دراسة الظواهر الاجتماعية من أخلاق واقتصاد وتاريخ ولغة وغير ذلك (١) .

وهكذا فشلت الأخلاق الوضعية ، ليس فى مجال التطبيق العملى وإنصراف المجتمعات عنها فحسب بل لم تنجح فى أن تكون مجرد دراسة نظرية لا تتعرض للتناقض والنقد .

والواقع أن هذا كله قد نسانا الله تعالى من شروره فالأخلاق فى الإسلام عمل وسلوك وواجبات وليست مجرد أفكار ونظريات كما حدث فى الأفكار الوضعية ، ونحن نجد أن أرسطو قد فطن لأهمية الجانب العملى فى الأخلاق فختم كتابه : « الأخلاق » بقوله : فى الشئون العملية ليس الغرض الحقيقى هو العلم نظرياً بالقواعد ، بل هو تطبيقها ، ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن يعلم ما هى بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها وإستعمالها ، لو كانت الخطب والكتب

---

(١) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى ، الناشر وكالة المطبوعات بالكويت ـ طبعة ١٩٧٥ صفحة ٨ .

قادرة وحدها على أن تجعلنا أخياراً لاستحقت كما كان يقول « ثيوغنيس » أن يطلبها كل الناس وأن تشترى بأغلى الأثمان ، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادىء فى هذا الصدد هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات فى الخير ، وتجعل الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة وفياً بعدها(١) وهذا القول لأرسطو ، إن كان يصدق على الأخلاق الوضعية التى كان من مؤسسيها ، فهو لا ينطبق على الأخلاق الدينية ، حيث تفرضها أحكام الله تعالى فرضاً على كل من دخل فى الدين وآمن بالله ورسوله .

اما الصورة الثانية التى نجد عليها حال المسلمين اليوم فهى أنهم قد غفلوا تماماً عن أخلاق النهوض ، والأمم تنهض وتتقدم بغلبة تأثير مجموعة معينة من القيم مثل : الثقة بالنفس والطموح والجد والإتقان واليقظة والنظام والبسالة والإستهانة بالمشقات والمتاعب بل وبالموت فى سبيل تحقيق الأهداف المرجوة وكذلك أخلاق الصبر وحب الجماعة وتقدير قيمة الوقت وقيمة الحياة ..

وهذه القيم الخلقية لو تمسكت بها أمم غير مسلمة ، أو حتى كافرة ، لتقدمت ونهضت إقتصادياً وإجتماعياً ، وهذا مشاهد معروف فى عديد من دول العالم فى الغرب والشرق .. وذلك لأن شعوب تلك الدول عرفت سنن الحياة ودرست قوانين الطبيعة ولمست بالتجربة أن العمل والصبر والمثابرة والاخلاص تحقق النجاح فى الحياة ..

ولا شك أن لدى تلك الأمم والشعوب مع أخلاق القوة هذه بعض أخلاق

---

(١) الأخلاق لأرسطو — المرجع السابق : المقدمة .

الضعف كانتشار الرذائل المختلفة ، ولكن ذلك لا يوقف عجلة الحياة ولا يعوق عندهم الرقى والتقدم الحضارى .

أما المسلمون فقد قصروا على علم أخلاق الفضائل التى تتمثل فى الخير والحق وتركوا أخلاق العمل جانباً ولو انهم اهتموا بها إلى جانب « أخلاق الإسلام » لكان لهم شأن وأى شأن ولحققوا من التقدم العلمى والرقى الحضارى ما يجعلهم أقوى أمم الأرض (١) .

---

(١) بحث بعنوان : خواطر حول أزمة الخلق المسلم المعاصر بقلم عبد الحليم محمد أحمد أبو سقة منشور بمجلة ـ المسلم المعاصر ـ ابريل ١٩٧٥ ص ٤١ .

المبحث الثانى عشر

أخــــلاق المنـافقين

ليست معرفة المنافقين من الأمور الهينة اليسيرة ، وهذا ، يزيد من خطورتهم على الأفراد والمجتمعات ، إذ يناسبون بين الناس ، ويندسون فى المجتمعـــات ، فينشرون الفتنة ويبغون الفساد ، دون أن يلاحظهم أحد ، بل قد يلبسون ثياب الناصحين العاملين وينالون الثواب والتقدير والقرب والزلفى ممن بيدهم مقـــاليد الأمور :

ذكر البغوى وغيره من عن ابن عباس أنه قال لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة ، والظاهر أن مراده : لم يكن يعـــرفهم كلهم ويعـــرف شئونهم بمثل ما فى هـذه السورة من التفصيل كما قال الله له فى الذين مردوا (١) على النفاق « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهـل المـدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم نعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم» « لا تعلمهم نحن نعلمهم» (٢) ومن المعـلوم أن ذكـر المنـافقين وبعض صفاتهم وأقوالهم وأفعالهم جاءت فى عدة سور ، نزلت قبـل سورة براءة منهـــا سورة المنـافقين والأحزاب والنساء والأنفـال والقتال والحشر وأما سورة براءة فهى الفاضحة لهم والكاشفة لجميع أنواع نفاقهم الظاهرة والباطنه ، ولعـله ﷺ لم يعلم التفرقة بينهم وبين المؤمنين إلا بعد نزولها .

---

(١) مردوا أى ألفوه فأصبح خلقاً ثابتا فيهم .

(٢) سورة التوبة : آية ١٠١ .

صفات المنافقين

إذا أردنا أن نلخص صفات المنافقين والسمات التى تميز شخصياتهم أمكننا أن نجمعها فى خصلتين أو صفتين هما : الحرص والأنانية المفرطة ، فهم يحرصون على حياتهم وأعمارهم ويحرصون على سلامة أجسادهم من الجهد والمشقة والتعب فى غير ما يلذهم ويرضى شهواتهم ثم هم يحرصون على ما يودون إمتلاكه والسعى للاستحواذ عليه وهاتان الخصلتان فى المنافقين هما الأصل الذى تفرعت عنه كل صفاتهم الأخرى .. ويمكن لنا أن نجملها فيما يلى :

أولا : كراهية الجهاد والبذل :

وقد ورد وصفهم بهذا الوصف فى قوله تعالى : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم » .

ثانيا : الارتياب والشك :

قال تعالى : « إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم » ، أى قد وقع لهم الريب والشك فى الدين من قبل فلم تطمئن به قلوبهم ولم تذعن له نفوسهم . وإنما الإيمان يتمثل فى اليقين المقارن للإذعان والإنقياد لله تعالى وسوله عليه الصلاة والسلام وخضوع النفس لأحكام الإسلام .

ثالثا : التردد :

والفرق بين الإرتياب والشك وبين التردد أن الإرتياب والشك من صفات الفكر أما التردد فهو من صفات الإرادة والعزم وقد يرتاب المرء ويشك فى عواقب أمر من الأمور ، فإذا انتهى من الشك والإرتياب ،إستقر على رأى وعزم عليه دون تردد ، أما المنافق فيجمع الوصفين معا : وصف الإرتياب ووصف التردد ، المنافقين متحيرين فى أمرهم مذبذبين فى عملهم .

محبون للحياة : فهم حريصون عليها يخشون الموت ولا يذكرونه ويفرون منه ، يقول الله تعالى فى ذلك : « لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون »(١) .

خامسا : ترك الاستعداد : فهم لا ينوون الجهاد ولا يقدرون عليه ولا يقدرون عليه ولا يطيقون مشقاته وتضحياته وتكاليفه فهم أهل دنيا والجهاد طريق الآخرة .. يقول الله تعالى فيهم : ولو أرادوا الخروج لأعدوا لهم عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين(٢) .

سادسا : خلق الافساد والفتنة : فهم إذا خالطوا الناس فتنوهم وأثاروهم ووسوسوا فى صدورهم بما يوهن العزائم ويوغر الصدور ويثير الاحقاد ، ويقول تعالى : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون (٣) .

والخبال كما قال الراغب : الفساد الذى يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالجنون ، والمرض المؤثر فى العقل والفكر : أى ما زادوكم إلا ضعفاً وفشلا ومفسدة كما حدث فى غزوة حنين فإن المنافقين ولو الادبار فى أول المعركة وتبعهم ضعفاء الإيمان من المؤلفة قلوبهم من طلقاء فتح مكة فاضطرب لذلك جيش المسلمين كله وفسد نظامه .. وهكذا تكون قلة مؤمنة صابرة خير من فئة كبيرة

---

(١) سورة التوبة : آية ٥٧ .
(٢) « « « ٤٦ .
(٣) « « « ٤٧ ، ٤٨ .

يندس في صفوفها المنافقين . ويمكن أن نقارن في ذلك بين غزوة بدر وغزوة حنين .

والفتنة هي من بين أهداف المنافقين وغاياتهم وهي ديدنهم دائما ، في الأسرة والجماعة والجيش والمجتمع . يقول تعالى : ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة أي ولأسرعوا في الدخول في خلالكم وما بينكم سعيا بالنميمة وتفريق الكلمة وفي قوله تعالى : « ويبغونكم الفتنة » إشارة إلى كونهم يحبون أن يفتنوكم بالتشكيك في الدين والتثبيط عن القتال والتخويف من قوة الأعداء .

سابعا : الخداع : ومنهم يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وأن جهنم لمحيطة بالكافرين .. قال ﷺ لجد بن قيس : ما تقول في مجاهدة بني الأصفر (الروم) قال أني أخشى أن رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن فائذن لي ولا تفتني فهو بذلك ينتحل الأعذار الكاذبة والمبررات الخادعة .

ثامنا : الغدر : يقول تعالى : « لقد أبتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » ابتغوا الفتنة قبل غزوة تبوك وفي غزوة أحد حين أعتزل المؤمنين عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين بنحو ثلث الجيش في موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحد فطفق يقول لهم : أن النبي ﷺ أطاعهم وعصاني ، وفي رواية أطاع الولدان وعن لا رأى له فما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا وكان رأى ابن أبي لعنه الله عدم الخروج إلى أحد ورأى الجمهور ورأى الشبان الخروج فعمل الرسول ﷺ برأى الأكثرية على أنه كان خلاف رأيه أيضاً . فخرج ابن أبي بمن اتبعه من المنافقين .

تاسعا : وقلبوا لك الامور : أي دبروا الحيل والمكايد ودوروا الآراء في كل وجه من وجوهها لابطال دينك وفض قومهم من حولك فإن تقليب الشيء

تصريفه فى كل وجه من وجوهه . والنظر فى كل أنحائه ليعلم أنها الأولى وهذا يدل على الإصرار على الحقد والعداوة وإلتماس كل وسائل الكيد وسبله حتى ما كان منافياً لقيم الشهامة والرجولة والشرف ، فعند المنافقين الغاية تبرر الوسيلة ، وأى وسيلة , وقد حاول بعض المنافقين إغتيال رسول الله ﷺ عند العودة من غزوة تبوك وهى المشار إليها بقوله تعالى: « وهموا بما لم ينالوا » (١).

عاشرا : خلق الشماتة :

والمنافق لا يحب إلا منفعته ولا يهمه غير ذاته ، الأمارة بالسوء ، فهو يريد لها النجاة وحدها والعلو عن غيرها، ولا يبغى أن يصيب الخير غيره لأنه لا يحب غير نفسه ، ولا يود الخير لأحد ويفرح لما يصيب غيره من مصيبة ويحزن لما يناله من خير .

يقول تعالى: « أن تصبك حسنة تسؤهم وأن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون » .. لقد ساءهم النصر فى بدر ، وفى يوم أحد فرحوا فرح البطر والشماتة .

احد عشر : الفسوق : والفسوق هو الخروج عن طاعة الله تعاله ورسوله ﷺ ولا يقبل الله الفاسقين عملا ولا إنفاقاً .. يقول تعالى : « قل إنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين » وهذا تعليل لعدم قبول نفقاتهم ومعناه أن إنفاقكم طائعين أو مكرهين سيان فى عدم القبول لأنكم كنتم قوما فاسقين وإنما يتقبل الله تعالى من المتقين .

وخروج الفاسقين عن دائرة الإيمان الذى هو شرط لقبول الأعمال مع

---

(١) سورة التوبة : آية ٧٤ .

الإخلاص هو سبب عدم قبول أعمالهم ولا نفقاتهم . ولفظ الفسوق كثير الإستعمال فى القرآن الكريم والفقهاء جرى عندهم إصطلاح الفسوق دلالة على المعاصى .

فليعتبر بهذا المنافقون فى هذا الزمان وفى كل زمان ، الذين ينفقون إبتغاء شهرة أو رياء أو رغبة أو رهبة .

اثنا عشر : الحلف الكاذب :

لا يتورع المنافقون أن يبذلوا الإيمان المغلظة يحلفون بها ليصدقهم الناس ، لأن كلمة الله وعهده لا يساوى عندهم ما يبتغون من عرض الدنيا ومن متاعها القليل ، يقول الله تعالى : « ويحلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون » (١) .

ثالث عشر : الخوف : الخوف خلق عام فى المنافقين فهم يخشون الناس ويخافون الفقر ويخافون نزول المصائب بهم ، ويخافون الجبارين والظلمة بين الناس أكبر مما يخافون الله تعالى ، ويخافون نقصان المال بالزكاة ، وفقدان الأولاد بالجهاد ، وفقد لقمة العيش بالصدق والجهر بالحق ، ولشدة حرصهم على ذلك يشتد خوفهم حتى يصل إلى حد الفرق وفى ذلك يقول تعالى : ولكنهم قوم يفرقون » أى يخافون الموت والفرق الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وإدراكه أو هو الذى يفرق القلب أشتاتا من الخوف ..

رابع عشر : اللمز : لمزه عابه وطعن عليه مطلقا أو فى وجهه وأما همزه

---

(١) سورة التوبة : آية ٥٦ .

همزا فمعناه عابه فى غيبته وأصله العصر والضغط على الشيء والمنافق يعيب ويلمز ويطعن لسببين:

الاول : أنه لا يحب الناس بل يمقتهم ويزدريهم ولا تحمل نفسه الغارقة فى أهوائها ومآربها المودة ولا تعرفها ، ثم أن فيه من خصال إبليس حبه التعالى على الغير ، ويظن أنه وحده خير من جميع الناس وأجدر منهم بكل الخير .

الثانى : أنه أسير المنفعة ، فإن حصل على ما يبتغيه فذلك همه وإن لم يحصل على مراده ثار وغضب وعاب من حرمه حتى ولو كان عادلا ويحكم الله قاضيا .

خامس عشر : الطمع فيما لا يحق له :

لا يعرف المنافق الحق وليس من خلقه التسليم به ، بل مصلحته هى الحق ومنفعته الذاتية هى العدل ، ولهذا ترى المنافقين فى كل عصر أقدر الناس فى التفنن والتحايل للحصول على ما يشتهون من غير وجه حق، وبعيدا عن السبيل المشروع ، فى الوظائف يصل إلى الترقية بالكذب والمداهنة والرياء ، وفى التجارة يحقق أرباحه الوفيرة بالحلف والكذب والغش والخداع وفى السياسة والحكم يصل إلى مالا يحسنه من المناصب السامية بالأساليب الملتوية والسبل المعوجة وفى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام كان المنافقون يسعون للحصول من أموال الصدقات على مالا يستحقون ، ويقول تعالى :

ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وأن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون (١) .

---

(١) سورة التوبة : آية ٥٨ .

سادس عشر : عدم الرضى بما قسم الله :

فالمنافق يرى دائما أنه أحق من غيره من الناس بالخير والفضل ، وأنه لا يعرف قدره ، وأنه يستحق من الجاه والأموال أكثر مما يمنح الله لغيره ، ومادام المنافق لا يؤمن بالله ، والنفاق والإيمان نقيضان لا يلتقيان ، فأنى له أن يؤمن بقضاء الله تعالى وقدره وقسمته العادلة بين خلقه ، وأنى له التسليم بما قضى الله والإمتثال لها وخلو نفسه من الموجدة والسخط على ما قضيا .

• • •

فالنفاق إذن من أسوأ الخلق ، وأخبث الصفات النفسية والأمراض التي تصيب القلوب ، يحول المتصفين به إلى أصحاب أنفس دنيئة فاسدة الفطرة لا يرون وسيلة للحصول على مطامعهم في المال ومطامحهم في الجاه إلا الكذب والرياء والتصنع والخداع ولين القول ومعسول الحديث : يقول الله تعالى فيهم : «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون »(١).

والبعض من العلماء يقسم النفاق إلى قسمين :

أ — نفاق خاص .

ب — ونفاق عام .

فالنفاق الخاص هو الذى يحاول صاحبه أن يلق كل إنسان بما يرضيه عنه ويحببه إليه ، ولاسيما من بيدهم الحكم والقوة وأصحاب الجاه والمال ، رجاء الإنتفاع بما يملكون من كل ذلك ، أو إتقاء لشر قد يناله منهم إذا لم يرضوا عنه ومن هؤلاء من يعرفون في عصرنا الحاضر بالوصوليين والإنتهازيين .. لا

---

(١) سورة المنافقون : آية ٤ .

يعرفون صاحب فضيلة ولا يأبهون بذى خلق أو دين أو ذمة والمنافق من هـذا النوع يلبس لكل موقف لباسه ولكل زمان رداؤه ، حتى أنه يقترب إلى حاكم فإذا سقط تقرب إلى عدوه أو غريمه ، ثم هو يلبس أحيانا للصالحين لباس الصلاح إرضاء لهم ويخلع للفساق جلباب الحياء ، ويفرغ على المستكبر حلل الإطراء .

أما النفاق العام فهو ما يبتغى به صاحبه إفساد الدين وإفساد الدولة وخيانة الأمة والملة ومحاربة المجتمع وتقويض أركانه .. ولاشك أن هـذا أخطر من سابقه ، لأن النفاق الخاص على ضرره وخبثه يبتغى به صاحبه عرض الحياة الدنيا ، وربما نال من ذلك مأربه ممن يعطيه مداراة له أو إلهاء له أو صرفا له عن مناوأته ومعاداته ، أما النفاق العام فوجهته فتنة المسلمين وهدم الدين ، ولا شك أن من أهم وسائل هذا الضعف من المنافقين فى ذلك سلاح الفكر المفسد ، وبذر الشقاق والخلاف وإثارة النفوس وإيقاظ الفتنة ، ونشر كل ما يوهن العقيدة ويصد عن سبيل الله (١) .

---

(١) تفسير القرآن الكريم للسيد محمد رشيد رضا . الطبعة الأولى ١٣٤٢ هـ . الجزء التاسع صفحة : ٤٦٧ .

الفصل الرابع

خصائص النظرية الأخلاقية

فى الاسلام

نتناول فى هذا الفصل إبراز الخصائص العامة التى تميز النظرية الأخلاقية فى الإسلام ، وسنجعل ذلك فى مبحث أول ثم نعقبه بمبحث ثان نوضح فيه تطبيقات هذه النظرية فى واقع المجتمع الإسلامى وكيف أدى ذلك التطبيق وظهور آثاره العملية فى ذلك المجتمع إلى حقيقة لا مراء فيها ، هى أن البنـــاء الخلقى الإسلامى ليس مجرد بناء نظرى أو تصور خيالى أو مثالى ، لا يتيسر تطبيقه والعمل بما فيه، بل هو بناء يتيسر الأخذ به كله فى جميع جوانب الحياة الإنسانية بالنسبة للفرد والأسرة والجماعة والمجتمع .

وفيما يلى تفصيل ذلك :

المبحث الأول

خصائص النظرية الأخلاقية

فى الاسلام

تنفرد النظريه الأخلاقية فى الإسلام بخصائص هامة تميزها عن سائر النظريات الأخلاقية، السماوية والوضعية على حد سواء وهذه الخصائص نجد أن منها ما يتعلق بالقواعد العامة الأخلاقية ذاتها، ومنها ما يتعلق بالفرد أو الإنسان المسلم وبواعث السلوك الأخلاقى لديه وسنورد فيما يلى تلك الخصائص :

أولا : امكانية التطبيق :

ليس فى القواعد الأخلاقية الإسلامية ما يجعلها تتصف بالتعجيز أو إستحالة التطبيق، فهى قد جاءت بحيث يستطيع الفرد العادى الأخذ بها، والله تعالى يقول فى كتابه العزيز :

« ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ولكن ذلك لا يعنى أن تكون القواعد الأخلاقية بعيدة عن أى نوع من المشقة أو أن تكون بحيث لا تتطلب أى جهد فى العمل بها، فإن ذلك ليس هو الواقع، فإن تربية النفس وتهذيب السلوك ومقاومة الرغبات والشهوات كل ذلك يتطلب مجاهدة ومشقة ولكن يمكن إحتمالها وليس العنت والضيق مقصودين بها والرسول عليه الصلاة والسلام إنما جاء للناس ليضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالقواعد الإسلامية واقعية ومناسبة لطاقة البشر وهى ليست قواعد مثالية يتطلع إليها الإنسان دون أن يتمكن من تطبيقها وبلوغها وهى مع تلك الصفة الواقعية فيها كفيلة، إذ طبقت أن تخلق الإنسان المفلح المستقيم فى خلقه وسلوكه وشخصيته ، والله سبحانه وتعالى

فقد جعل التقوى على الإنسان قدر الإستطاعة فيقول سبحانه وتعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » .

ثانيا : المواءمة :

ونقصد بها مواءمة القواعد الاخلاقية لحالات الأفراد ودرجاتهم ومستوياتهم فالضعيف يجد فيها ما يوائمه وكذلك المتوسط والقوى ، كما أنها تتدرج فى الفعل الواحد بحسب درجة الإيمان ، وكل يأخذ منها ما تطيق نفسه ، ولنأخذ مثلا لذلك خدمة الجماعة فهى تبدأ بإماطة الأذى من طريق الناس ، ثم تتدرج القواعد الخلقية إلى أعلا حتى تصل إلى التصدق بما يملك الفرد فى سبيل خير الجماعة وبين هاتين المنزلتين توجد منازل ودرجات متعددة توائم حالات الناس ومستوى الفرد الخلقى والنفسى ، ويأخذ الإنسان من الخير إستطاعته وكل فرد وما يطيق وما يحسن ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وعندما مست الحاجة إلى الجهاد بالمال ودعا الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابة بالتبرع والإنفاق فى سبيل الله تعالى ذهب عمر بن الخطاب فأتى بشطر ماله أما أبو بكر فقد أحضر ماله كله وقال للرسول عليه الصلاة والسلام عندما سأله تركت لأهلك قال تركت لهم الله ورسوله » .

فالإسلام لا يتطلب أن يكون جميع الناس على مستويات خلقية واحدة لأن الله تعالى أعلم بعباده واختلافهم فى العقول والإدراك والطاقات النفسية والجسمية، ومن هنا كانت الرخصة بجانب العزيمة فى كثير من الاحكام وكان رفع الاثم عن المكره والمضطر والناسى ، ثم أنظر إلى الحدود وهى تتفاوت فى جريمة واحدة كالزنا فهى الرجم للمحصن والجلد مائة جلدة لغير المحصن الذى لم يتزوج أليس ذلك دليلا على مواءمة أحكام الإسلام لكل فرد ولكل حالة ، ثم أن مستويات

الأخلاق تتفاوت بتفاوت درجات الإيمان فأخلاق المسلم وخلقه غير أخلاق المؤمن أو المحسن وخلقه ولهذا قيل : سيئات المقربين حسنات الأبرار .

ثالثا : الاعتدال :

تتسم قواعد الإسلام فى مجال الأخلاق كغيره من المجالات الأخرى ، ونقصد بالإعتدال إتخاذ الوسط الذى ينأى عن جانبى الإفراط والتفريط فليس فيها من التشدد ما يجعلها قواعد لا تطاق كما أنها ليست قواعد فيها السائب والعبث من الأمر وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ يقول : أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون ، أما عن هذه الوسطية فهى فى الحقيقة أهم سمات القواعد والأحكام الإسلامية عامة ، وشخصية الفرد المسلم سواء كان رجلا أو امرأة تتصف بالإعتدال طبقاً للمنهج الإسلامى فى تربية الخلق وتكوين السلوك فهى ليست شخصية المتزمت المتجهم المعسر لكل الأمور الجامد فى كل المواقف الصعب فى كل الحالات ، العابس الوجه فى كل لحظة ، كما أنها ليست شخصية العابث اللاهى فى كل الأوقات الذى لا يكف عن المزاح والضحك فى كل حين ، والذى يستهتر بكل أمر ولا يترك الخلود إلى الدعة والراحة ، فكلا الشخصيتين بعيد عن الخلق الإسلامى ، والأصل فى ذلك كما ذكرنا يعود إلى قواعد الإسلام فى مجال الأخلاق ويعود للأسوة الحسنة لنا فى شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وخلقه كذلك ، والله تعالى يقول: لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا(١) وعلى المؤمنين التشبه فى خلقه وسلوكه سواء مع الناس أو فى بيته وأهله ، مع الزوجة ومع الابنة ومع الحفيد ومع الاقارب ، كان عليه الصلاة والسلام يلاعب حفيديه : الحسن والحسين ويسابق السيدة عائشة فيسبقها مرة

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١ .

وتسبقه أخرى فيقول لها هذه بتلك ، كما كان يعاون أهل بيته ويقوم بما يخفف عنهم .

رابعاً : القيمة الذاتية للاخلاق :

الأخلاق فى الإسلام لها قيمة ذاتية فهى غايات تقصد لذاتها وليست وسيلة لتحقيق غايات أخرى ، فالأخلاق فى الإسلام لا ترتبط بقواعد المنفعة بحيث تدور معها وجودا وعدما وهى كذلك لا ترتبط بمذاهب اللذة التى عرفتها المذاهب الخلقية لدى بعض فلاسفة اليونان ، وإنما الأخلاق الإسلامية هى أهداف ينبغى السعى إلى تحقيقها بغض النظر عما يؤدى إليه إختلاف وجهات النظر بشأنها ومن الامثلة فى ذلك أن حجاب الانثى قاعدة شرعية لا يمكن إهمالها لأى سبب سواء بسبب العمل والتكسب أو الرغبة فى مجاراة الأعراف والتقاليد الفاسدة وأن أعظم المشاكل التى تصاب بها بعض الشعوب الإسلامية إنما يأتى بسبب ترك قواعد الأخلاق للرغبة فى تحقيق منافع مادية أو حضارية مع نسيان أمر هام هو أن تلك القواعد إنما تقصد لذاتها ولا يجب بأى حال قياسها أو ربطها بقيم وضعية أخرى . بل أن بعض الدول تدوس على القيم الخلقية الإسلامية من أجل السياحة أو التعليم . (التعليم المختلط فى الإعدادى والثانوى وما فوقهما) وقد تأكد للأمريكيين وهم من أكثر الشعوب تحرراً — أن إختلاط المراهقين والمراهقات فى المدارس أدى إلى نتائج وخيمة ومخزية ونشرت إحصاءات وتقارير عن حالات الحمل غير المشروع والإجهاض .

خامسا : عنصر الجزاء :

ومن أهم خصائص القواعد الأخلاقية فى الإسلام إرتباطها بالجزاء الإلهى ، سواء بالحسنى وبالفوز بنعيم الآخرة بالنسبة لإتباعها أو بالسوء وبعذاب الله ولعنته

لمن يخرج عليها ، ويمثل عامل الجزاء ركناً مكملا للأخلاق فى الإسلام ، لأن الباعث على التمسك بقواعد الأخلاق هو حرص المسلم على إرضاء الله تعالى ورغبته فى الفوز بحسن ثوابه ، وهذا الباعث له الأثر العظيم فى تقوية إيمانه ومعاونته على الصبر لتحمل ما يتطلبه السلوك الأخلاقى من مجاهدة للنفس وأخذها بما يخالف هواها أو رغباتها العاجلة أو نزعاتها الفطرية ويتمثل الجزاء كحقيقة ماثلة أمام المسلم لتبدو القواعد الخلقية أمراً عادلا متكاملا فمن نهى النفس عن الهوى فإنما ينظر إلى ما يعده لها الله تعالى ومن باع عن دنياه شيئاً فى سبيل الخير والبر فإنما باعه إلى الله تعالى وليستبشر ببيعه ، وبالثمن الذى أدخر له .

ومن المهم أن نلاحظ أن للجزاء كنتيجة أو أثر للعمل الأخلاقى قيمة معنوية كبيرة بحيث لا يعد لها أى أسلوب آخر ، سواء فى الحث على الخير والترغيب فيه أو فى الكف عن الشر ومنعه والتنفير منه ، وقد لا نحتاج إلى شاهد للتدليل على أن الزجر عن طريق القوانين والتشريعات الوضعية لا يجدى كثيراً مثلما تجدى عقيدة الجزاء الدينى وقد فشلت الولايات المتحدة الأمريكية فى منع الخمور عن طريق الحظر التشريعى كما فشلت آلاف القوانين والقرارات واللوائح فى مقاومة الإنحلال والإنحراف الخلقى فى كثير من المجتمعات ولكن الأمر الذى يتأكد نجاحه هو نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة عن طريق تربية الضمير الحى وغرس الخلق الإسلامى القوى الذى يحكم صاحبه بأكثر مما تحكمه الأوامر والقوانين .

على أن تمثل الجزاء أمام الإنسان فى كل أفعاله ليس أمراً ميسوراً لكل فرد ، وإنما هو يأتى ثمرة لتربية خلقية ولقدوة حسنة وبيئة صالحة تحيط بالمرء منذ حداثته وترافقه فى سنى حياته ومراحل عمره .

وقد يظن إنسان أن الجزاء ليس مما تتميز به قواعد الأخلاق الإسلامية وحدها

بل أن التشريعات الوضعية تضع هي الأخرى جزاءات على مخالفة نظمها الأخلاقية التى تقررها لمجتمعاتها ولكن شتان ما بين الجزاءين وما أعظم الفارق بين النظامين

١) فالأخلاق الوضعية إذا كان لها جزاءات فهى غير ثابتة ولا دائمة ، فما أكثر ما تتبدل وتتغير بتغير الحكومات أو بتغير الظروف والأعراف والعادات، وهذا لا يتيح لها فرصة الرسوخ والنجاح فى الوصول إلى مستوى العقائد الثابتة المستقرة فى وجدان أفراد المجتمع كما هو شأن القواعد الأخلاقية الإسلامية .

٢) ثم أن القوانين الوضعية لا تتناول من النواحى الخلقية إلا مسائل متناثرة لا تصل إلى الإحاطة الشاملة بكل مناحى الحياة الإنسانية ، فهى لا تعنى إلا بما يراه الناس ضروريا ولا تهتم إلا بما يشكون منه، أما ما يراه الناس موافقاً لأهوائهم فقلما تتدخل الحكومات للحد منه أو العقاب عليه ومن أمثلة ذلك أن كل حكومات العالم تعلم أن العرى جريمة خلقية وأن جميع الديانات لا تحله ، والمسيح عليه الصلاة والسلام كان يقول : من نظر إلى إمرأة أجنبية وهو يشتهيها فقد زنى بها ومع ذلك فما تجد تشريعاً يحرم العرى وكشف ما يحرم كشفه فى أغلب دول العالم فى الشرق والغرب على السواء ، ونفس الأمر ينطبق على الخمر ولكن الأخلاق فى الإسلام غير ذلك ، فإن قواعدها من الشمول بحيث لا تترك من حياة الفرد أو الجماعة أمراً إلا نظمته ووضعت أحكامه .

٣) والجزاء يتطلب توقيعه مشقات ونفقات مالية كبيرة بالنسبة للقوانين الوضعية : من رجال تحقيق وقضاة وسجون وجند وغير ذلك ، بينما يقوم الضمير الأخلاقى بما تعجز عنه القوانين والجنود ورقابة الإنسان لنفسه أهم وأجدى من الرقابة الخارجية عليه ، بل أن الكثير من الجرائم والآثام يمكن للناس ارتكابها فى

الخفاء وبعيداً عن أعين الشرطة وجنودها ، ولهذا فشلت أغلب القوانين التى وضعت لمنع تعاطى المخدرات ولمنع البغاء والإتجار بالاعراض ، وفشلت فى منع الرشوة أو الحد منها ، وفى المحافظة على السكينة العامة ومنع الإزعاج والإساءة للناس .

٤) ويلاحظ أن الجزاء فى القوانين الوضعية هو مجرد زاجر لمنع وقوع الجريمة الخلقية فحسب ، ولا يتجاوز فى أهدافه ذلك إلى الحث على فعل الخير ، فهو جزاء عقاب وليس جزاء ثواب بينما الجزاء الدينى فى الأخلاق الإسلامية جزاء عقاب وجزاء ثواب معاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى(١).

---

(١) سورة النجم : آية ٣١ .

المبحث الثانى

تطبيقات النظرية الأخلاقية

فى واقع المجتمع الاسلامى

نشأة المجتمع الاسلامى وعوامل قوته

أن أعظم ما يثير الدهشة والإعجاب ، ويفتح المجال للتأمل العميق ذلك التغير العظيم الذى أحدثه إعتناق الأمة العربية للإسلام ، فتحول العرب من أمة متنافرة غير منظمة ليس لها شأن أو تأثير فيمن حولها من الامم إلى أمة متحدة منظمة ، عرفت الحكم المستقر القوى لأول مرة ، ثم خرجت جيوشها تهزم الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية وتفتح الأقطار قطرا بعد قطر فى بضع عشرة سنة وليس لذلك كله من تعليل إلا إعتناق العرب للإسلام واتخاذه عقيدة راسخة وشريعة محكمة نافذة والتخلق بآرائه وأخلاقه العظيمة السامية .

وسوف نتناول بيان ذلك فى ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : نشأة المجتمع الإسلامى .

والمطلب الثانى : عن العقبات التى واجهته .

والمطلب الثالث : عن بعض صفاته وسماته .

المطلب الأول

نشأة المجتمع الإسلامى

أولا : المجتمع المكى :

بدأ المجتمع الإسلامى ظهوره فى مكة على صورة مجتمع دينى بحت ، ليس له أى صبغة سياسية ، وهذا أمر طبيعى ، فقد بدأت الجماعة الإسلامية فى مكة قليلة العدد ضعيفة خائفة ، ثم أن المجتمع نشأ نشأة متدرجة بدأت أولا بتقرير العقيدة ثم بث المثل العليا فى النفوس حتى إذا ما تهيأت لذلك أمكن بعد ذلك تنظيم المجتمع على أساس سليم .

وأهم ما يميز المجتمع الإسلامى الأول فى مكة هو ذلك التجانس التام بين أفراده، فقد كانت تجمع بينهم وحدة العقيدة الإسلامية وولاؤهم الله تعالى ورسوله ﷺ ، وكانت العقيدة الجديدة هى شغلهم الشاغل ومحور تفكيرهم واهتمامهم ليل نهار ، ولكن المجتمع المكى المشرك وقف فى وجه تلك الجماعة الإسلامية الناشئة وأحكم حولها حصاره حتى لا ينتشر تأثيرها ويقوى نفوذها وقد أتبع فى سبيل ذلك كل السبل من السخرية والإستهزاء إلى الإحراج بالأسئلة والإنكار إلى الإغراء والوعيد كما لجأوا إلى العنف والتعذيب . وقد أشفق الرسول عليه الصلاة والسلام على إتباعه فدعاهم إلى الهجرة إلى الحبشة حيث ملكها النجاشى كان عادلا صالحا وقال لهم عليه الصلاة والسلام : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكا لا يظلم أحد عنده ، حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه ' وكانت الحبشة تدين بالمذهب اليعقوبى الذى يعرف التثليث فى المسيحية وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة فى رجب من السنة الخامسة وكان المهاجرون يومئذ اثنى عشر

رجلا وأربع نسوة (١).

وقد تبع الهجرة إلى الحبشة أمر آخر زاد قريشاً تحاملا على الرسول ﷺ وصحبه، ذلك هو إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب وكان كلاهما قوياً جريئاً, فلجأت قريش إلى تدبير آخر للحد من إنتشار الإسلام, وهو كتابة صحيفة، وقعتها كل بطون قريش يتعاهدون فيها على بنى هاشم وبنى عبدالمطلب: ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً», وقد وضعوا تلك الصحيفة فى جوف الكعبة ثم حاصروا بنى هاشم والمسلمين فى شعب خارج مكة تسمى : شعب أبى طالب وقامت قريش على هذا الحصار الإقتصادى ثلاث سنين، ولكن على الرغم من أن المسلمين المحاصرين أجهدوا أيما إجهاد وكادوا يهلكون من الجوع فإنهم ثبتوا على موقفهم فى بطولة وظل النبى ﷺ يدعوا إلى الاسلام بين العرب (٢) وقد قبل دعوته من أهل يثرب إثنا عشر رجلا ومعهم إمرأة واحدة بايعوه عند مكان بين منى ومكة أسمه العقبة ولذلك سميت بيعة العقبة الاولى أو بيعة النساء (٣) وقد بايعوه على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم

---

(١) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية تأليف : الدكتور عمر فروخ طبعة ١٩٧٦ صفحة : ٥٣ .

(٢) دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة للدكتور أحمد إبراهيم الشريف ص : ٧٣ .

(٣) وذلك لأن نصوص هذه البيعة جاءت فى سورة الممتحنة آية ١٢ : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم ».

ولا يعصوه فى معروف فإن وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله وبعد عامين بايع من أهل يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وإمرأتان فى بيعة العقبة الثانية (٣ قبل الهجرة = ٦١٩ م) وإذ ذاع الإسلام فى يثرب فقد قرر الرسول ﷺ الهجرة إليها مع أبى بكر الصديق فى يوم الاثنين لإثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول (سبتمبر ٦٢٢ م) (١) وبالهجرة بدأ عهد جديد هو العهد المدنى .

ثانيا : المجتمع المدنى :

كان أول ما فعله الرسول ﷺ فى المدينة هو بناء المسجد وكان مسجداً بسيط البناء , فلم يكن غير فناء ضيق يحيط به جدار من اللبن ، وليس فيه غير مكان مسقوف ، يغطيه الجريد المثبت على جذوع النخل ، أما بقية أجزائه فكانت مكشوفة، وقد أفرد النبى عليه السلام الجزء المسقوف لبعض من جاء معه من مكه ولم يجدوا مأوى وسموا لذلك « بأهل الصفة » أى الذين يأوون إلى صفة(٢) المسجد ، وهو المكان المسقوف .

وبعد أن كان الرسول ﷺ يعيش وجماعة المسلمين الاول فى مكة فى عزلة تامة فى مجتمع مكة ، إذ بهم فى مجتمع المدينة وقد خرجوا عن تلك العزلة وإختلطوا بمجتمع المدينة وبمن فيه من اليهود ، وبعد أن كان المسلمون فى مكة جماعة دينية فحسب إذا بهم فى المدينة يصبحون مجتمعاً دينياً سياسياً يتألف من المهاجرين والأنصار ، ويتعايش مع باقى طوائف المدينة ، وأهم ما يميز ذلك

---

(١) التاريخ السياسى للدولة العربية تأليف الدكتور عبد المنعم ماجد الطبعة الرابعة ١٩٦٧ ص : ١٠٩ .

(٢) وصفة الدار جمعها صفف (الصحاح) ص ٢٦٥ .

المجتمع الجديد أن أصبح يمثل أمة لها كيانها ونظامها وقد كتب النبي ﷺ ميثاق تلك الأمة الذى عرف بالصحيفة نظم فيها شئون المهاجرين والأنصار وعلاقاتهم باليهود (١).

وهكذا أصبح الإسلام ديناً ودولة فى المدينة ، وأصبح للمسلمين حكم ثابت ، وكان ثمة مشكلة تواجه ذلك الحكم وهى تنظيم هذه الدولة الفتية الجديدة فيما يتعلق بمرافق الحياة المختلفة مثل : الإدارة والقضاء والجباية والدفاع والحرب والتنظيم الإجتماعى لمسائل الزواج والطلاق وكفالة اليتامى والإرث ، ثم حل المشاكل المتبقية من الجاهلية مثل الثأر والربا والزواج الفاسد ويضاف إلى ما تقدم العمل على التهذيب الإجتماعى بمقاومة السكر والميسر والفسق والخرافات . وقد جاء القرآن الكريم فى سوره المدنية بوجوه التشريع المختلفة التى عالجت كل تلك الأمور (١) ونظمت للمسلمين كذلك علاقاتهم الخارجية مع أصحاب العهود والمواثيق وتطبيق قواعد الحرب والسلم والحياد مما جعل للمسلمين أرقى نظام تشريعى عرفه العالم أجمع .

وعلى رأس تلك الأمة كان الرسول ﷺ ، يحكم من فيه بما أنزل الله تعالى من أحكام ، ويقضى فيما شجر بينهم ، ويفصل فى منازعتهم ويصرف زكاة أموالهم فى مصارفها لمن يستحقونها . ويعلمهم ويربيهم ، ويقود معارك الحرب مع أعدائهم أعداء الله ، ويرسل الرسل إلى القبائل وإلى حكام الدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام .

وقد نجح ذلك المجتمع الإسلامى الجديد أيما نجاح ، ولا ريب أن أقوى

---

(١) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية للدكتور عمر فروخ ص ٦٠ .

ما عاون على نجاحه أن الله تعالى ألف بين قلوب أفراده ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ثم ما اتسموا به من مناقب خلقية رفيعة جعلت المسلمين يتغلبون على العقبات والتحديات التى واجهها المجتمع الإسلامى ، وهو ما سوف نعرض له فى المطلب الثانى ثم نبرز فى المطلب الثالث السمات والخصائص التى بدت فى المجتمع الإسلامى وأظهرت نجاحه فى الإفادة من القيم الخلقية والمبادىء الأخلاقية التى جاء بها الدين الإسلامى الحنيف .

المطلب الثانى

العقبـــــات والتحديات

التى واجهها المجتمع الاسلامى

واجه المجتمع الإسلامى عقبات عديدة وتحـــديات كثيرة يمكن تقسيمها إلى قسمين أو نوعين من المشاكل .

أ ـــ المشاكل الداخلية .

ب ـــ والمشاكل الخارجية .

ا ـــ المشاكل الداخلية

تمثلت المشاكل الداخلية فى ثلاثة أمور هى :ـــ

١ ـــ قلة المال .

٢ ـــ كيفية التعامل مع الأعداء .

٣ ـــ توحيد المجتمع .

فاما بالنسبة للأمر الاول فقد تغلب المسلمون على نقص الأموال وقلة الموارد بالإيثار والبذل فى سبيل الله، فلم يؤثر أحد من الصحابة نفسه بمال من دون المسلمين، بل قدم كل واحد ماله للجماعة ، وعندما نزل المهاجرون بالمدينة لقيهم الأنصار أحسن لقاء وبذلوا فى سبيلهم كل مرتخص وغال ، حتى أن الرجـــل كان يطلق إحدى زوجتيه لكى يتزوج بها المهاجر .

٢ ـــ **وأما عن كيفية التعامل مع الأعداء** ، فقد داهن الرسول عليه الصلاة

والسلام أعداءه فى أول الأمر ؛ فعقد المعاهدات مع اليهود ومع بعض القبائل المشتركة من العرب ، كما عقد صلح الحديبيه فى عام ٦ هـ مع المكيين (١) ولمدة عشر سنين ، ونص فيه على أن يترك الخيار للناس فى أثناء هذه الهدنة فى أن ينضموا إلى المكيين أو إلى المسلمين وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أن يرجع بعد عام إلى مكة فيدخلها حاجا فى نفر من أصحابه ويمكث فيها ثلاث ليال فقط والا يكون مع المسلمين إلا سلاح المسافر. ولكن لا اليهود ولا المكيين حفظوا عهودهم مع المسلمين مما دعا إلى قتالهم وهزم اليهود كما تم فتح مكة عام ٨ هـ .

٣ — **اما المشكلة الثالثة** فكانت تتمثل فى كيفية توحيد المجتمع ، وقد كان العرب قبل الإسلام متعودين على الفرقة والتشتت ولا يعرفون غير مجتمع القبيلة وقد غير الإسلام من حياة العرب فأخذت روح الفردية تتضاءل وتحل محلها روح الجماعة ، وبعد أن كان العرب قبل الإسلام جماعات متفرقة وقبائل متنابذة، لا يجمعهم دين ولا حكومة ولا شريعة إجتماعية سامية منتظمة، جاء الإسلام فربط بين العرب ودعم الأمة العربية وأبرز وحدتها ومنحها نظما راقية فى السياسة والإجتماع والفكر والإقتصاد وفتح أمام هذه الأمة أبواب التاريخ والحضارة والإنطلاق (٢) . وقد أمتن الله على المسلمين بتلك النعمة ، نعمة الوحدة فقال تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (٣) .

---

(١) وكان ممثل المكيين فى هذا الصلح سهيل بن عمرو .
(٢) التاريخ الموحد للأمة العربية للدكتور على حسن الخربوطلى ص ٤٠ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

وبعد وفاة الرسول ﷺ حدثت فتنة الردة ولكن نجح أبو بكر الصديق فى القضاء عليها وكان من أشهر القادة الذين حاربوا المرتدين خالد بن الوليد والمثنى بن حادثة الشيبانى ويزيد بن ابى سفيان وعمر بن العاص وشرحبيل بن حسنه وقد أخفقت حركة الردة تماما وانتصر الإسلام على العصبية القبليـــة وعلى الروح الإنفصالية التى هددت وحدة المجتمع الإسلامى .

ب — المشاكل الخارجية

ترجع المشاكل الخارجية إلى أن المجتمع الإسلامى فى الجزيرة العربيـــة كان محاطا بقوى خارجية غير مسلمة تمثلت فى الفرس والروم وكانت الأولى تسيطر على العراق والثانية تسيطر على الشام ومصر ، كما كان يعيش على أطراف جزيرة العرب قبائل عربيه تدين لهاتين الدولتين بالولاء ولا تعرف شيئاً عن الإسلام بل وتقف منه موقف العداء .

وقد كان المسلمون يعطفون على أهل الكتاب من يهود ونصارى وكانوا يتمنون إنتصارهم على الوثنيين والمجوس ؛ فلما كانت جيوش الفرس تكتسح أراضى الدولة الرومانية المسيحية فى آسيا ومصر نزل الوحى مؤكدا إنتصار الرومان فى النهاية وذلك فى قوله تعالى فى سورة الروم : (الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) .

وقد تحقق ذلك ، ففى عام بدر انتصر المسلمون واستعاد الروم ما فقدوه من ممالك بل اجتاحوا بلاد الفرس ، وعلى الرغم من عطف المسلمين عـــلى الدولة الرومانية فما كانت لتستطيع السكوت على إستمرار إنتشار الإسلام وقد وقعت معها معركة فى مؤته ، وقد إستعد الرومان لغزو حدود الجزيرة العربيـــة ولـكن

المسلمين كانوا أسرع تحركا فى عهد ابى بكر الصديق فكر المثنى بن حارثة الشيبانى بعد أن انتهى من قتال أهل البحرين أن يسير بمن معه لقتال القبائل العربية التى كانت تعيش على تخوم شبه جزيرة العرب فى العراق خاصة والتى لم تكن قد دخلت فى الإسلام بعد ولم يكن مع المثنى سوى أربعة آلاف رجل فأشفق أبو بكر أن تصيبهم ملكة إذا لقوا جيوش الفرس فى عددهم وعدتهم ، من أجل ذلك أسرع أبو بكر فأمد المثنى بن حارثة بعشرة آلاف رجل بقيادة خالد بن الوليد (١) .

وتصدى الفرس والروم مجتمعين لقتال العرب وعاونهم فى ذلك عدد من القبائل العربية على الحدود ولكن خالد بن الوليد إنتصر فى معارك كثيرة منها ذات السلاسل والولجة وعين التمر ودومة الجندل وذلك فى عام ١٢ هـ (٢) .

ولما ثبتت أقدام المسلمين بعد تلك الإنتصارات كان ذلك مشجعاً لهم على إستمرار الفتح الذى تم فى عهد عمر بن الخطاب والذى امتد ليشمل فارس والشام ومصر .

---

(١) التاريخ الموحد للأمة العربية للدكتور على حسن الخربوطلى ص ٥٥ ،
(٢) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية للدكتور عمر فروخ ص : ٩٦ .

المطلب الثالث

سمات المجتمع الإسلامى وصفاته

كان للمجتمع الإسلامى الأول سماته المميزة ، التى جعلته مجتمعاً يتصف بالمثالية والنقاء والسمو ، وجعلته على مر القرون القدوة الصالحة لكل المجتمعات التى تجىء بعده .

وسوف نتخير من بين تلك السمات بعضها بعضاً عارضين لها وفق الترتيب الآتى : —

الفرع الأول : التلاحم والتآلف .
الفرع الثانى : الحيوية .
الفرع الثالث : المثالية .
الفرع الرابع : النمو المطرد .
الفرع الخامس : غلبة روح الجهاد .
الفرع السادس : يقظة الضمير .
الفرع السابع : تحقيق المساواة .
الفرع الثامن : إبتغاء الآخرة .
الفرع التاسع : الإيثار .
الفرع العاشر : الأخوة .

الفرع الأول

التلاحم والتآلف

إذا بحثنا عن سر تفكك المجتمعات وإنعدام التعاطف بين أفرادها لوجدناه يكمن فى أمر واحد هو **الانانية او حب النفس** ، فهى الداء العياء الذى يزرع الخصومات وينمى الحزازات ولا يتحقق معه فى المجتمع تلاحم وتآلف بين أفراده .

وقد جاء الإسلام فقضى على تلك النزعة المدمرة : نزعة الانانية ، وبين أن فيها إتباع الهوى والهلاك ، وإصلاح النفس لا يتم إلا بالتخلص من الهوى وكبت الشهوات والسمو عن النقائص الخلقية ، ولما تغلب المسلمون على نفوسهم وقهروا نقائصهم ونزعاتهم ، زال ما يحجب المرء عن أخيه من الأثرة وإنتفى الصراع والتكالب على المتاع الذى يوغر الصدور ويقسى القلوب وتمثل المسلمون قول الحق سبحانه وتعالى :

« إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(١) .

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وقد آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وآخى بين الأوس والخزرج فأصبح المجتمع الإسلامى وحدة متلاحمة ، وأخوة متحابة ، وإنتهت العصبيات التى ألفها الناس فى الجاهلية وكانوا يتفاخرون بها وتثور بينهم المنازعات من أجلها ،

---

(١) سورة الحجرات ـ آية ١٠ .

وقد قضى الإسلام على هذه العصبية المفرقة ثم تبرأ من كل من يدعو إليها فقال رسول الله ﷺ : ليس منا من دعا إلى عصبية ، وعلى هذا الأساس أوجد الإسلام تنظيما جديداً للناس فى المجتمع وأصبح المسلمون أمة واحدة متآخية لهم رب واحد وكتاب واحد وشريعة واحدة وهدف واحد يسعون جميعاً إلى بلوغه ويتكاتفون معاً لتحقيقه وهو نشر الإسلام وجعل كلمة الله هى العليا وجعل كلمة الذين كفروا السفلى .

ولم يدع رسول الله ﷺ باباً يضعف المجتمع ويفرق صفوفه إلا سده فالذين دخلوا الإسلام يطلبون الخير به ، وهم سماهم القرآن الكريم المؤلفة قلوبهم ، كانوا أصحاب سهم فى الصدقات ، وكان رسول الله ﷺ يتعهدهم دائماً تأليفاً لقلوبهم وضما لهم إلى صفوف المؤمنين .

وبذلك أصبح المجتمع الإسلامى مجتمعاً يسوده الحب والتآلف والتراحم يزهد فى الدنيا طلباً لما عند الله تعالى ويتمثل أفراده دائماً قول الحق عز وجل : إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون (١) .

وكذلك قوله تعالى : وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً

---

(١) سورة يونس — آية ٢٤ .

وخير أملا (١) ولا عجب أن يكون هذا شأن مجتمع ينزل عليه وحى الله تعالى، ويعلمه ويربيه رسول الله ﷺ ، وهو الذى يقول : لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحـــابيتم ؟ أفشوا السلام بينكم .

وقال معاذ : سمعت رسول الله ﷺ يقـــول : قال الله تبارك وتعـــالى : « وجبت محبتى للمتحابين فى ، والمتجالسين فى ، والمتزاورين فى ، والمتبادلين فى» وقال رسول الله ﷺ :

وما تحاب إثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه (٢) .

---

(١) سورة الكهف — آية ٤٥ — ٤٦ .
(٢) دعوة الإسلام للشيخ سيد سابق ص ١٢٦ .

الفرع الثانى

حيوية المجتمع الإسلامى

حفل المجتمع الإسلامى بعوامل القوة التى جعلته حياً دائما متجدداً ولقد أتى عليه من المحن والشدائد ما يوهن القلوب ويضعف العزائم ويزلزل النفوس، فلم تزده المحن والشدائد إلا ثباتاً ويقينا وصبرا وتسليما لله تعالى. فى مكة لقى النبى وأصحابه من المشركين بمكة أذى كثيراً، روى أن خبابا قال: أتيت النبى ﷺ وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة، ولقد لقينا من المشركين شدة فقلت ألا تدعو الله فقعد وهو محمر وجهه فقال لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله (١).

ولقد أعان المسلمين على تحمل الأذى والتغلب على المحن وتخطى الفتن ما أمرهم به الله تعالى من الصبر والمصابرة وتحمل المكاره، يقول عز وجل: يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (٢) وكذلك اعتقاد المؤمنين أن تلك الشدائد هى إختبار لهم من الله تعالى مصداقا لقوله عز وجل: ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم .(٣)

ولقد كان الصبر والصلاة أعظم العوامل فى قوة المجتمع الإسلامى وحيويته

(١) صحيح البخارى ح ٤ ص: ٢٣٨.
(٢) سورة آل عمران. آية: ٢٠٠.
(٣) سورة محمد. آية: ٣١.

وقدرته على الصمود والتجلد ، يقول تعالى :ـــ

« يا أيها الذين آمنوا إستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١) ولو تأملنا فى سر تلك القسوة التى اكتسبها المجتمع الإسلامى والتى جعلته يتصف بالحيوية والتجدد لما وجدنا غير الإيمان الذى غرسه رسوله الله ﷺ فى أفراده وهداهم سبيله ، فلم تفلح قوى البغى والشر فى القضاء عليهم ، عندما كان المسلمون قلة لا تتجاوز أصابع اليدين أمام قريش بكثرتها ومتكبريها وأغنيائها ومترفيها ، قال عمار بن ياسر : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر (٢) ثم أى قوة أعظم من أن يواجه المسلمون فتن اليهود والمنافقين فى المدينة ـــ فيتغلبون عليها وينتصرون عليهم ويحققون العزة التى وعدهم بها الله : ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٣) .

أن مجتمعا يواجه كل قوى الشر فى داخل جزيرة العرب ، ثم يواجه كل قوى الظلم ـ والبغى فى خارجها وينتصر فى هذا الزمن القصير على الفرس والروم لهو مجتمع قوى بالله مملوء بالحيوية التى ترد منه عوامل الوهن والضعف والإنحلال وصدق الحق سبحانه وتعالى حيث يقول : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (٤) .

---

(١) سورة البقرة . آيات : ١٥٣ ـــ ١٥٧ .

(٢) صحيح البخارى جزء ٤ صفحة ٢٤٠ .

(٣) سورة المنافقون . آية : ٨ .   (٤) سورة آل عمران . آية : ١٣٩

الفرع الثالث
مثالية المجتمع الإسلامى

كم حار المفكرون والفلاسفة فى البحث عن المجتمع المثالى وهل يمكن أن يقوم على ظهر الأرض وكيف يمكن له أن يقوم وذهبت نظرياتهم وأفكارهم سدى ، لأن ما تخيلوه لم يكن ليتحقق ولأن ما يضعه البشر لا يمكن أن يرقى إلى ما يأتى به وحى الله تعالى الذى خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه ويحقق له الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة .

لقد أفلح الإسلام فى خلق المجتمع المثالى النموذجى ، ولمن يتخيلون أن المثالية لا يمكن أن تتحقق أن يتطلعوا إلى ذلك المجتمع الإسلامى الأول لكى يدركوا أن المثالية تحققت فيه .

غير أنه ينبغى لنا أن نحدد المقصود بالمثالية لكى نعلم مقدار بعد المجتمعات الأخرى عنها ، وكم من مجتمعات بلغت من الثراء والتقدم الحضارى أقصى ما ينال وهى مع ذلك أبعد عن مجرد التطلع إلى المثاليات . إنما المثالية فى مجتمع إذا توفر فيه أمران :

الأمر الأول : أن تكون له قيم عليا سامية كالعبادة والعدل والحب والإيثار .

والأمر الثانى : أن ينجح فى تحقيق تلك القيم وتحويلها من عالم الأفكار والآراء إلى عالم المشاهد المحسوس .

فلا يكفى لقيام المجتمع المثالى ووجوده أن تكون لديه مثل عليا بلغت الغاية من السمو والإرتفاع إذا لم تكن تلك المثل مما يؤخذ به فى مجال العمل والتطبيق ، فلن تعدو أن تكون مجرد شعارات لا تنفع وتضعف المجتمع ولا تقويه .

كما لا يكفى لقيام المجتمع المثالى أن يسعى بكل قواه إلى الاخذ بأسباب القوة أو الثراء أو الهيمنة والنفوذ ، دون أن تكون له قيم رفيعة ومثل عليا حقيقية يتمثلها حين تحقيق تلك الغايات وحتى حين ينجح فى بلوغ قمة القـــوة والثراء والنفوذ وهو لا قيم عنده فإنه لا يلبث أن يصيبه الوهن والإنهيار كما رأينا فى إنهيار العديد من الإمبراطوريات :

ولكن المجتمع الإسلامى الأول قد بلغ ما لم يبلغه أى مجتمع إنسانى فى تاريخ البشرية القديم والحديث على حد سواء ، فلم يحدث أن قام مجتمع فضائل الصدق والصبر والمساواة والعدل والرحمة كما قام المجتمع الإسلامى وتطابقت النظرية مع التطبيق العملى كما تطابقت فيه .

الفرع الرابع

النمـــو المطرد للمجتمع

لو تأمل إنسان حالة المجتمع الإسلامى عند نشأته الأولى فى مكة لما كان بوسعه أن يصدق أن ذلك المجتمع الصغير الضعيف سيهزم أكبر إمبراطوريات الأرض، أى الفرس والروم ، بل ولما وصل به الظن إلى أن يعود أولئك المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم وتركوا مكة ، إلى مدينة البيت الحرام مرة أخرى، وانهم يدخلونها آمنين أعزة منتصرين غالبين ، ولكن هذا كله هو ما تحقق لذلك المجتمع القوى العجيب وهو ما كان يبدو بعيداً فى أعين المنـــافقين المتخاذلين المتخلفين , وقد وصف الله تعالى كل ذلك حيث يقـــول : سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقـولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً أن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً (١) .

وليس أدل على نمو المجتمع الإسلامى نمـواً سريعاً متزايداً من ذلك التغيير الكبير الذى طرأ عليه فى سنين قليلة فقد إزدادت أعداد المسلمين وتضاعفوا مرات كثيرة وفى ذلك يقول عز وجل : إذا جاء نصر الله والفتـــح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا .(٢)

---

(١) سورة الفتح — آية ١١ — ١٢ .

(٢) سورة النصر — آية ١ — ٣ .

كما إزدادت الموارد المالية حتى أصبح للمسلمين بيت المال تتجمع فيه الأموال من مصادر مختلفة هى : —

١ — أموال الزكاة .

٢ — أموال الصدقات .

٣ — أموال غنائم الحرب وهى نوعان : —

أ — الغنائم التى يستولى عليها الجيش المنتصر بعد معركة .

ب — الفىء وهو ما أستولى عليه المسلمون من مال ومتاع وأرض بلا قتال ولا هجوم .

٤ — أموال الجزية التى كانت تؤخذ من أهل الكتاب (١) .

وأخيراً فقد إتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، فبعد أن كان المسلمون كالغرباء فى وطنهم مكة ، يخافون أن يتخطفهم الناس إذا بهم فى أقل من نصف قرن يصبحون وأرض المسلمين تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى نهر السند شرقاً ومن جبال طوروس شمالا إلى بلاد النوبة جنوباً .

(١) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية تأليف الدكتور عمر فروخ ص ٨٨ .

الفرع الخامس

غلبة روح الجهـــاد

كان الجهاد من أبرز سمات المجتمع الإسلامى الأول، وصحيح أنه لم يكن أحد من المسلمين يجبر على الدخول فى الجيش الإسلامى، إذ كان الأمر متروكا للرغبة فى التطوع فإن الجيش الإسلامى كان فى أيام الرسول ﷺ يشمل مجموع الرجال القادرين على حمل السلاح، بل كان يسارع إلى صفوف المجاهدين الفتيان والأحداث وأصحاب الأعذار فى التخلف عن القتال لحرص الجميع على أداء ذلك الواجب المقدس والفوز بإحدى الحسنيين : الإستشهاد أو النصر على أعداء الله. ولم يكن الجهاد قاصراً على الجهاد بالنفس فحسب بل كان هناك الجهاد بالمال ، فكان من الصحابة من يجاهد بثلث ماله أو بنصفه أو بكل ما يملك ، كما فعل أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان منهم من يجهز الجيش الخارج إلى الغزو من ماله كما فعـــل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يكن الباعث على الجهاد رغبة من رغبات الدنيا ولا حاجة من حاجات النفس ، وإنما كان الباعث والغاية أن تكون كلمة الله هى العليا وأن يفوز المجاهد برضوان الله فذلك عنده أكبر من كل ما عداه .

الفرع السادس

يقظة الضمير

تميز المجتمع الإسلامى الأول بيقظة ضمير أفراده ، يقظة لا زالت تعد مضرب المثل فى المثالية والسمو ، وقد ظهر ذلك فى كل مناحى الحياة الاجتماعية ، فهذا ماعز بن مالك يأتى رسول الله ﷺ ويقول يا رسول الله ظلمت نفسى وزنيت وأنى أريد أن تطهرنى ويطلب إقامة الحد عليه فيحد صابرا محتسباً وكذلك فعلت الغامدية التى قال عنها رسول الله ﷺ بعد رجمها : « .. لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » لقد ساقهما الضمير إلى الرجم دون أن يكون شاهدا على كل منهما إلا الله تعالى .

وبعد الفتح الإسلامى لفارس أتى إلى عمر الكثير من الغنائم التى يخف حملها ويغلو ثمنها ، أداها بأنفسهم جنود مخلصون لوجه الله لا يريدون جزاءا ولا شكورا ، فقال عمر رضى الله عنه فى إعجاب وتقدير ، أن قوماً أدوا هذا الأمناء، وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر بنا راع من الجبل ، فقال له : يا راعى بعنى شاة من هذا الغنم . فقال إنى مملوك فقال : إختبارا له — قل لسيدك أكلها الذئب . فقال الراعى : فأين الله ؟ فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا مع المملوك فاشتراه من مولاه واعتقه وقال : أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة ،

هذا الضمير هو الذى جعل عمر فى عام المجاعة المعروف بعام الرمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى أسود جلده فيكلمه بعض الصحابة فى ذلك فيقول : بئس

الوالى أنا إن شبعت والناس جياع .. ويحدثنا الشعبى أن عليا رضى الله عنه ضاعت منه درع فوجدها عند نصرانى فاقبل به إلى القاضى « شريح » يخاصمه وقال على : هذه الدرع درعى ولم أبع ولم أهب . فقال شريح للنصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال النصرانى : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب فالتفت شريح إلى على وقال : يا أمير المؤمنين ، ألك بينة ؟ .. فابتسم على وقال : أصاب شريح مالى بينة ، فقضى بالدرع للنصرانى ، فأخذها ومشى خطوات ثم رجع ، فقال أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه ، فيقضى عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والدرع والله درعك يا أمير المؤمنين ، سقطت منك وأنت منطلق إلى صفين ، فقال على : أما إذا أسلمت فهى لك ، وهكذا كان الضمير المؤمن هو الذى يحكم أمير المؤمنين وهو الذى يحكم القاضى وهو الذى يتحكم فى أفراد ذلك المجتمع الإسلامى (١) ه

(١) الإيمان والحياة تأليف الدكتور يوسف القرضاوى ص : ٢٢٠ ه

الفرع السابع

تحقيق المســـاواة

جاء الإسلام بالدعوة إلى المساواة بين الناس جميعاً :

ووضع قاعدة الربوبية لرب واحد ويوحده الإنسانية لهدف واحد وهو عبادة الله وحده وتوحيده ، ولما كان الناس جميعاً ينتسبون لأب واحد هو آدم وآدم من تراب ، فقد نادى الإسلام بالقضاء على كل مظاهر التفرقة بين البشر التى إخترعها الإنسان إتباعا للهوى وجعل بها الناس طبقات وأصنافاو ذلك باعتبار السادة والأراذل ، والأغنياء والفقراء ، واللون والعنصر ، والعربى وغير العربى . قضى الإسلام على كل ذلك فقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) فلا فضل إلا بالتقوى ، وقد ترتب على تلك المساواة التامة بين الناس ، ثمرتها العملية وهى المساواة بينهم فى الحقوق والواجبات (٢) .

وقد قرر الرسول ﷺ مبدأ المساواة وأكد عليه فى حجه الوداع فعن أبى نظره قال : حدثنى مع من سمع خطبة النبى فى وسط أيام التشريق .. فقال : يا أيها الناس أن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا أسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى .. إلا هل بلغت.

---

(١) سورة الحجرات . آية ١٣ .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر محمود شلتوت صفحة ٤٧٢ .

.. اللهم فاشهد قالوا بلغ رسول الله ﷺ أخرجه أحمد ورجاله (رجال الصحيح) (١).

والمساواة فى الإسلام يترتب عليها نتائج وآثار هامة نجملها فيما يلى :

أولا : قيمة الإنسان واحدة ، من حيث هو إنسان ، لا فرق بين غنى وفقير وعالم وجاهل وذى حسب وغير ذى حسب ، وسيد وخادم : يقول عليه الصلاة والسلام : خدمكم خولكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليكسوه مما يلبس .. ولذلك فإن الإسلام لا يقر شعور إنسان بتميزه عن غيره ، والخيرية لغة أبليس فهو أول من قال : أنا خير منه .. يمقتها القرآن ويلعنها رب العالمين ..

ثانيا : المسلمون أمام شريعة الله سواء ، وهذا ما يعبر عنه فى عالمنا المعاصر بالمساواة فى الحقوق والواجبات وفى الحصول على المزايا وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص .

ثالثاً : لا يقر الإسلام أى نوع من التفرقة على أساس القيم المادية ، كالثراء أو القوة أو الجنس أو الجاه ، ولكن يقر بعدم المساواة فى القيم المعنوية كالدين والتقوى والعلم . بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقول تعالى : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » والأخذ بهذا المعيار فى تحقيق المساواة يؤدى إلى غلبة القيم المعنوية على المجتمع فلا يسوده الجهلاء ولا الأغنياء ولا أهل الجاه والمال والنفوذ .. وإنما يسوده ويسوسه أهل الخلق والتقوى والعلم .

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين الهيثمى . جـ٣ ص٢٦٦ دار الكتاب العربى .

الفرع الثامن

إبتغـــاء الدار الآخرة

الدعوة لدين جديد تتطلب مشقات كبيرة وتضحيات عظيمة لأنها تقابل دائماً بعداوة شديدة من الكفار والمشركين والمجرمين ، يقول تعالى : وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصـــيرا (١) . والنبي والذين استجابوا لربهم وآمنوا بما جاء به هم الذين يتحملون ما لا يطيقه إلا المؤمنون حقاً والمجاهدون الصابرون . وقد قامت دعوة الإسلام على جهاد شاق وإيثار للآخرة على الدنيا وتضحية بالأنفس والأموال والأهل وكل نفيس واثير لدى المؤمنين. وقد قدموا كل ذلك راضية نفوسهم مطمئنة قلوبهم قانعين بما عند الله وبوعده مستيقنين أنه تعالى لا يخلف الميعاد .. وقد اثنى الله تعالى على حسن عملهم وأخبر عن رضاه سبحانه وتعالى عنهم فقال عز من قائل : لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيهـــا ذلك الفوز العظيم (٢) ، عرف صحابة رسول الله ﷺ قصر عمر الدنيا بالنسبة للخلود الدائم عنـــد رب العالمين فكانوا أصبر الناس على البلاء وأثبتهم فى الشدائد وأعضاهم نفساً فى الملمات. ولم يطمعوا أن تكون دنياهم جنة قبل الجنة ويمثلوا قول الحق سبحانه وتعالى : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » (٣) « وما الحياة الدنيا إلا متاع

(١) سورة الفرقان : آية ٣١ .
(٢) سورة التوبة : آية ٨٨ — ٨٩.
(٣) سورة النساء : آية ٧٧ .

الغرور ، (١) وعرفوا من سنه الله فى الذين خلوا من الأنبياء والمرسلين أنهم أشد الناس بلاء فى الدنيا وأقل الناس إستمتاعاً بزخرفها فلم يطمعوا أن يكونوا خيراً منهم ولهم فيهم وفى رسول الله ﷺ أسوة حسنة يقول الحق سبحانه وتعالى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا أن نصر الله قريب (٢) . ويقول تعالى : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً (٣) وترك المهاجرون ديارهم وأموالهم وعشيرتهم وقرابتهم وأهاليهم إبتغاء وجه الله وإبتغاء الدار الآخرة ، غير آسفين ولا نادمين، وبذل الانصار فى سبيل الله دورهم وأموالهم وأهلهم، وكلا أرض الله تعالى وفيهم يقول عز وجل « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم (٤) والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٥) .

لقد استجابوا لله وللرسول ﷺ ولم يؤثروا عليهما شيئاً (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) ويحبون من يحبهم الله ورسوله ويبغضون من يبغضونهم إمتثالا لقول الحق سبحانه وتعالى : لا تجد قوماً يؤمنون

---

(١) سورة آل عمران : آية ١/٥ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢١٤ .
(٣) سورة الأحزاب : آية ٢١ .
(٤) سورة الانفال : آية ٧٤ .
(٥) سورة الحشر : آية ٩ .

بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون (١) . وهكذا ضحوا بالقرابات وبالأرحام فالأرحام لا تجدى شيئاً فى الآخرة إذا كانت سبباً فى أن يحبط العمل ويضيع الإيمان ومن قبل ضحى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالقوم وبالقرابة فى سبيل الله تعالى يقول عز وجل : لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم انا برآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله شىء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (٢) وصدق رسول الله ﷺ « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه » .

---

(١) سورة المجادلة : آية ٢٢ .
(٢) سورة الممتحنة : آية ٣ — ٤ .

الفرع التاسع

الإيثـــار

كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فى الإيثار على النفس ، ومن أروع صور الإيثار ما قام به الأنصار فى المدينة مع إخوانهم المهاجرين من مكة حيث آثروا المهاجرين على أنفسهم حتى أن من كان عنده إمرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم ووقاهم الله شح النفس فتغلبوا على ما جبلت عليه من حب المال وبغض الإنفاق ، حتى أن الله تعالى أنزل فيهم قوله : والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١).

وقال رسول الله ﷺ للأنصار : أن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم فقالوا أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله ﷺ أو غير ذلك : قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا نعم يا رسول الله وقوله تعالى : ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٢) يعنى فقرا وحاجة أى يقدمون المحتاجين على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم . وقد ثبت الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقـــوله : « ويطعمون الطعام على حبه » وقوله تعالى « وآتى المال على حبه » فان هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به وهؤلاء آثروا

---

(١) سورة الحشر . آية : ٩ .

(٢) الخصاصة والخصاص يعنى الفقر (الصحاح ص : ١٧٧) .

على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ومن هذا المقام تصدق أبو بكر الصديق رضى الله عنه بجميع ماله فقال له رسول الله ﷺ « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال رضى الله عنه « أبقيت لهم الله ورسوله » وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم رضى الله عنهم وأرضاهم قال البخارى حدثنا يعقوب بن ابراهيم بن كثير حدثنا أبو أسامه حدثنا فضيل بن غزوان حدثنا أبو حازم الأشجعى عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يارسول الله أصابنى الجهد فارسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال النبى ﷺ « ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟ » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخر به شيئا فقالت والله ماعندى إلا قوت الصبية قال فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى نطفىء السراج ونطوى بطوننا الليلة : ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله عز وجل من فلان وفلانه — أوضحك — من فلان وفلانه « وأنزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وكذا رواه البخارى فى موضع آخر والترمذى والنسائى من طرق عن فضيل بن غزوان . وعن جابر عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ؛ واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم : وعن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً » وقال سفيان الثورى عن طارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن الأسدى قال كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول : اللهم قنى شر نفسى » لا يزيد على ذلك فقلت له فقال إنى إذا وقيت بشح

نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل وإذا الرجل : عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه رواه بن جرير (١) .

والمتأمل فى إيثار الصحابة على أنفسهم يعرف أن ذلك الإيثار سببه الحب ، فالإيثار وليد الحب ، حب بعضهم بعضاً ، وانعدام الاثرة والانانية ، لان الانانية هى تفنى المقدرة على حب الغير وإيثاره عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : طعام الاثنين كافى الثلاثة فطعام الثلاثة كافى الاربعة « متفق عليه » « وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : طعام الواحدة يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة وطعام الأربعة يكفى الثمانية » وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما نحن فى سفر مع النبى ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل رواه مسلم (٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ ٤ — ٣٣٨ .
(٢) رياض الصالحين للإمام النووى - طبعة دار الفكر - ص ١٧٠ .

الفرع العاشر

الاخـــوة

جاء الإسلام بصراط مستقيم ـ يجمع الله بين من هدى إليه برباط واحـــد ليكونوا أخوة متحابين، قال تعالى : فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا(١) وهو سبحانه وتعالى يأمر عباده بالأخـوة وبأن تلك هى العلاقة التى ينبغى أن تكون بينهم ، إنما المؤمنون أخوة (٢) والأخوة التى يربط بها الإسلام معتنقيه هى من أوثق الروابط ، تزول أمامها جميع الفوارق من نسب عريق ومال وفير وجاه عريض إلى غير ذلك مما تواضع عليه الناس واعتبروه مما يميز بينهم .

ولكن وفقاً لنظرية الإسلام فإن أى إنسان مهما كان عـريق النسب أو كثير المال أو كان ذا شأن فإنه أخ لمن كان دونه نسباً أو أقل منه مالا أو شأناً .

آثار الاخوة :

والأخوة كما جاء بها الإسلام ليست مجرد مشاعر نفسية أو إعتبارات معنوية لا تتجاوزهما إلى أبعد من ذلك بل أن ثمة آثار عملية تترتب عليها فى السلوك والمعاملات بعضها ينبغى تركه وتجنبه والبعض الآخر يتعين عمله والقيام به .

وسنبدأ أولا بذكر ما توجب الأخوة تركه ثم نبين ما توجب فعله وعمله .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

(٢) سورة الحجرات : آية ١٠ .

أولا : ما توجب الأخوة تركه :

١) توجب الأخوة الإسلامية أن يترك المسلم كل ما من شأنه الحط من شأن أخيه وتحقيره ، ويقول عليه الصلاة والسلام ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ، ويتصل بذلك عدم السخرية منه والإستهزاء به ، فيقول تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون(١).

٢) ترك الغيبة وسوء الظن : ولعرض المسلم حرمته فى غيبته فلا ينبغى أن يغتاب أو يساء به الظن بلا مبرر ومجرد الإستماع لأى غيبة أو مس بالأعراض يكسب المستمع إثما ، يقول عز وجل : يا أيها الذين آمنوا إجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا (٢) .

ويقول ﷺ : (ما من امرىء يخذل مسلما ، فى موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موضع يحب فيه نصرته .. وما من امرىء نصر مسلما إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته (٣) .

٣) حرمة المال : ولا يقتصر الأمر على ترك المساس بالأمور المعنية أى بالعرض والكرامة والشرف ، بل يحرم على المسلم أن يمس مال أخيه المسلم إلا

---

(١) سورة الحجرات ص ١١ .
(٢) سورة الحجرات ص ١٢ .
(٣) عناصر القوة فى الإسلام فضيلة الشيخ سيد سابق ص ١٨٢ .

بإذنه وبحقه ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه وقد قال عليه الصلاة والسلام : لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه وتعظم الحرمة ويكبر الجرم إذا كان مال يتيم ، فهذا التوعد بعظم العذاب أنظر قول الحق عز وجل أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيراً (١) .

كما حرم الله تعالى أخذ مال المسلم بغير وجه حق فقال تعالى : ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون (٢) .

٤) عدم المساس بجسم المسلم وبسلامته فكل المسلم على المسلم حرام وأول الحرمة دمه .. كما قال عليه الصلاة والسلام .. ويقول تعالى : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ (٣) ..

ثانيا : ما توجب الاخوة عمله :

١) إن حقوق الأخوة الإسلامية لا تقف عند كف الأذى ومنع الشر عن المسلم والمحافظة على حرمة دمه وماله وعرضه ، بل أن لتلك الأخوة تبعات وهى تعرض على المسلم واجبات ينبغى عليه القيام بها وأول هذه الواجبات أن يهتم كل أخ بأمر أخيه . أن يعنى بشأنه والدفاع عنه والذياد عن حاجته والعمل الدائب على ترقية حاضره وإعداده لمستقبل أعز وأكرم قال تعالى والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض (٤)

---

(١) سورة النساء : آية ١٠ .
(٢) سورة البقرة : آية ١٨٨ .
(٣) سورة النساء : آية ٩٢ .
(٤) سورة التوبة : آية ٧١ .

وروى البخارى والمسلم عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضـــو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . ومن مظاهر هذا الإهتمام ألا يدع المسلم أخاه للأحداث تتحكم فيه وتنال منه ، بل عليه أن يبـــذل له من ذات نفسه وذات يده وأن تدفع كل أذى يصيبه أو شر يقع عليه وأن يحفظ أمانته ويصدق معه الحديث ويوفى له بما عاهده عليه أو وعده به ففى الحديث : لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ويقول تعالى : يا أيهـــا الذين آمنوا أوفوا بالعقود (١) ويقول عز وجل : يا أيها الذين آمنوا لا تخـــونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٢) ويقول تعالى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها (٣) .

٢ : خفض الجناح :

والتواضع وخفض الجناح ولين الجانب كل ذلك واجب على كل مسلم لأخيه المسلم ، فيحسن خطابه ومعاملته ، ويعمل على زيادة الود وتأليف القلوب ، فكم من كلمة أصلحت موقفاً وكم من تسامح جلب المودة وزاد فيها ولا يكون لمسلم أن يتكبر على أخيه المسلم والله تعالى يقول: واخفض جناحك للمؤمنين(٤) . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : إن الله أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد (٥) .

---

(١) سورة المائدة : آية ١ .
(٢) سورة الأنفال : آية ٢٧ .
(٣) سورة النساء : آية ٥٨ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .
(٥) عناصر القوة فى الإسلام لفضيلة الشيخ سيد سابق ص ١٨٦ .

وقد آخى الرسول ﷺ بين المسلمين فى المجتمع الإسلامى الأول وذلك بالتوجيه الحسن وبالقدوة والأسوة الحسنة ، وآخى بين المهاجرين والانصار فساروا إخوانا متحابين فى الله وضرب الصحابة رضى الله عنهم أروع الأمثلة فى حسن الاخاء وجميل المعشر مما عاون على بناء مجتمع متكاتف متآزر جاهد فى سبيل الله حتى حقق لهم النصر .

الفصل الخامس

بعض القيم الأخلاقية الإسلامية

أولا : الصبر

تغلب المسلمون فى أول الدعوة الإسلامية بمكة على كل ما لاقوه بالصبر فصبروا على أذى الكفار والمشركين من قريش وتحملوا الأذى والسخرية والإستهزاء بهم وتعذيبهم ليردوهم من بعد إيمانهم كافرين فما وهنوا لما أصابهم وما زادهم ذلك كله إلا إيمانا والتفافا حول الرسول ﷺ . والرسول نفسه عليه الصلاة والسلام قد صبر كثيراً على المعارضين لرسالته والمتنكرين له وحثه الله تعالى على الصبر والتأسى بمن سبقه من الرسل ، فيقول عز وجل : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم(١) ويقول تعالى : اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب(٢) .

ولقد كان صبر الرسول ﷺ والمسلمين معه هو القوة المعنوية التى انتصروا بها على قوى الشر المادية الظالمة وفى كل ما ينصح به الإسلام أتباعه يعنى دائما بالقوة المعنوية فى الدرجة الأولى ، يقول تعالى : يا أيها الذين آمنوا إستعينوا بالصبر والصلاة فى مواجهة الأعداء وفى مقابلة أزمات الحياة وشدائدها التى تتمثل فى الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، ثم يعد بالنصر فى القتال وباجتياز الشدائد والأزمات فى سلام لأولئك الصابرين .. وهذه

---

(١) سورة الأحقاف آية ٣٥ .

(٢) سورة ص آية ١٧ .

الشدائد وتلك الأزمات ما هى إلا إبتلاء من الله تعالى يمتحن به عباده ويمحص به قلوبهم ويرفع به درجاتهم .. يقول عز وجل ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١) .

وقد صبر المسلمون مع رسول الله ﷺ على أعدائهم فى كل المواقف كما صبروا كثيرا فى القتال ، ووعد الله الصابرين بأن يغلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين المشركين فيقول سبحانه وتعالى : يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون (٢) .

ويمكننا أن نجمل المواطن التى صبر فيها المجتمع الإسلامى الأول فيما يلى :

(١) الصبر على الأذى والضرر من المشركين والكافرين .

(٢) الصبر على الطاعة لله وحسن عبادته .

(٣) الصبر على فقد وترك الأموال والأهل بالهجرة من مكة إلى المدينة ؛

(٤) صبر الأنصار واحتمالهم مشاركة المهاجرين لهم فى كل ما يملكون .

(٥) صبر المسلمين كافة فى معاركهم مع الكفار والمشركين .

ويمكن لنا أن نجمل صور الصبر كلها فى نوعين : صبر الإنسان على ما يكره ،

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٥ — ١٥٧ .

(٢) سورة الأنفال آية ٦٥ ؛

وصبره عما يحب : على أن الصبر بنوعية يتطلب قوة العزيمة وضبط النفس لتحمل المتاعب والمشقات والآلام . وربما يتساءل بعض المفكرين : أيهما أكثر مشقة : الصبر على ما يكره الإنسان أم الصبر عما يحبه ؟

غير أنه ينبغي القول أن التفرقة بينهما دقيقة ؛ لأن الإنسان يكره ما يكرهه لأنه يحرمه مما يحبه ، فالمرء يكره الموت لأنه يحب الحياة ، ويكره الجوع لأنه يحب الطعام ويكره السهر لأنه يحب النوم . أما إذا تساوى الأمران عند إنسان فلا يكون ثمة ما يكره ولا ما يحب ، فمن لا يحب الحياة يستوى عنده العيش والموت ومن يعاف الطعام يستوى عنده الجوع والشبع ومن يألف الأرق يستوى عنده النوم والسهر .

ومع هذا تبقى لهذا التقسيم لنوعى الصبر قيمة فيما يتعلق بالصبر على الفعل والصبر على الكف ، فالأول صبر على ما تكره النفس والثانى صبر عما تحب وتهوى ، وذلك لأن التكاليف بالفعل يسبب مشقة للنفس إذا لم يكن مما تهواه كما أن الكف والترك فيه مشقة كذلك إذا كان كفا عما تميل إليه النفس . وتبقى المسألة الجوهرية فى كل ذلك هى النفس ورغباتها ، فمن زهدت نفسه هان الصبر عليه وسهل عنده لأن نفسه ضعيفة التعلق بالرغبات :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

وأصعب ما يكون الصبر ثقيلا على ذوى النفوس الأمارة ، والرغبات القوية والشهوات الملحة . على أن ذلك ليس معناه أن الصبر خلة لا يمكن التوصل إلى اكتسابها إلا بزهد النفوس وضعف الرغبات ، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، ولكن عند التحقيق يتبين أن زهد النفس وضعف رغباتها هو بذاته مرتبة لا يتم الوصول إليها إلا بصبر ومصابرة وجهد ومجاهدة لا يطيقها جميع

الناس .. لأن الإنسان لا يولد زاهدا بطبعه ولا تكون نفسه قانعة بفطرتها .. على أن لذلك إستثناء ينبغى التنبيه إليه : وهو أنه إذا وجد إنسان فقدت نفسه الرغبة فى إحدى الرغبات أو الشهوات دون مجاهدة منه لها ، فلا فضـــل له فـيما يتصف به إزاءها ولا يعد بهذا واحدا من الصابرين . فمن تعاف نفسه طيب الطعام لسقم عنده لا يعد من الزاهدين ، ومن لا يعرف كيف يتكلم بما يقنع به السامعين لا يحسب بين أصحاب الحكمة وإيثار الصمت عن الكلام ..

و ن هنا ندرك أن وزن الصبر هو دائما وفق ميزان شخصى وليس على أساس قاعدة واحدة تجرى على جميع الأفراد ، وتقدير درجة الصبر وقوته يتوقف على إنسان بحسب حالته وظروف النفس والجسم والنعم المتاحة على حدسواء . ولهذا كان من يؤتى المال على حبه أفضل ممن يؤتيه وعنده منه الكثير ، ومن يعف فى شبابه خيرا مم يكون عفافه بعد زوال الصبوة وحـلول المشيب .

ويتصل بذلك أن نبين ماذا يعين على الصبر ويقويه لدى الإنسان : إن فلسفة الصبر تقوم فى الحقيقة على اعتباره دائما صراعاً بين أمرين أو بين طرفين ، وما يجعل كفة الصبر ترجح هو تغليب أمر على أمر أو طرف على سواه ، فالمجاهـد فى سبيل الله يتصارع فى نفسه حب الحياة وحب الإستشهاد فى سبيل الله ، فإذا تغلب الآخير صبر على القتال ولم يبال بالموت حيثما جاء .

وقل مثل ذلك فى الصائم والقائم والمجاهد بماله والكاظم الغيظ والمحسن إلى من أساء والقرآن الكريم حين يخاطب المؤمنين فإنما يذكرهم بالأمر الذى قد لاتميل نفوسهم إليه أو بالطرف الذى لا يدور بخـلدهم أن يؤثروه ، فإذا تنبهوا لذلك إنزاح عنهم طائف الشيطان وتذكروا فإذا هم مبصرون وإذا هم صابرون ! يقول تعالى : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم

وأموال إقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين (١) .

ويقول جلا وعلا : ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم (٢) .

وعندما سمعها أبو بكر الصديق قال بلى ، إنى لأحب أن يغفر الله لى . وعاد إلى خيلة سطح وإكرامه إمتثالا لأمر الله تعالى رغم ما كان من دور فى حادثة الافك مع إبنته عائشة ولذلك فإن إختيار الصبر وابتلاء الناس به ليس مثل ورقة إمتحان واحدة لجميع الممتحنين ، وإنما هو إبتلاء لكل فرد بحسب نفسه ، ويعلم درجة الصابر وفوزه منزل الإبتلاء ، رب العالمين ، لأنه وحده العليم بما فى كل نفس وما تؤثره على كل سواء . فهذا إنسان يؤثر المال على نفسه وعلى ولده ، وهذا يؤثر صحة بدنه وفراغ عيشه على كل ما عداهما وثالث يؤثر بنيه على نفسه وما ملكته يداه ، فالصبر لدى كل واحد من أولئك يقاس فى الحقيقة لدى إبتلائه فيما هو أثير لديه .

للصبر باعث وغاية :

على أن الصبر ، وهو شطر الإيمان لا وزن له عند الله تعالى إلا إذا إقترن بباعث وغاية فى النفس ، فأما الباعث فهو إبتغاء مرضاة الله وأما الغاية فهى حسن

---

(١) سورة التوبة آية : ٢٤ .
(٢) سورة النور آية : ٢٢ .

جزائه ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (١) .

وعن غاية الصبر يقول تعالى : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (٢) .

مواضع الصبر :

تتعدد المواضع التى تتطلب الصبر فى حياة كل إنسان ، ويمكن أن نجملها فيما يلى :

١ — الصبر على شهوات النفس :

وذلك فيقول الحق سبحانه وتعالى : والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٣) ويقول تعالى الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين (٤).

٢ — الصبر على الشدائد :

ويكون ذلك بتحمل الجهاد ومشقاته والصبر فى المكاره ، كالحرب وغيرها وفى ذلك يقول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا (٥). ويقول جلا وعلا : « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .. » (٦) .

(١) سورة الرعد . آية : ٢٢ .
(٢) سورة الزمر . آية : ١٠ .
(٣) سورة المؤمنون . آية : ٥ ، ٦ .
(٤) سورة آل عمران . آية : ١٣٤ .
(٥) سورة آل عمران . آية : ٢٠٠ .
(٦) سورة البقرة . آية : ١٧٧ .

ويقول تعالى : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين (١) .

ويقول سبحانه وتعالى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٢) .

٣ — الصبر على فتنة الناس :

وفى ذلك يقول تعالى : وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا (٣) .

٤ — الصبر على زوال النعم :

وفى ذلك يقول الحق جل وعلا : ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (٤) .

٥ — الصبر على مصائب الحياة :

سواء كانت المصيبة فى النفس أو المال أو الصحة أو طمأنينة القلب أو حظوظ الدنيا وإلى هذا أشار الذكر الحكيم فى قوله تعالى : فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٥) .

---

(١) سورة محمد . آية : ٣١ .
(٢) سورة آل عمران . آية : ١٤٢ .
(٣) سورة الفرقان . آية : ٢٠ .
(٤) سورة البقرة . آية : ١٥٥ .
(٥) الأخبات : الخشوع يقال اخبت لله تعالى أى خشع . مختار الصحاح ص : ١٦٧ . سورة الحج . آية : ٣٤ و ٣٥ .

٦ — الصبر كخلق نفسي :

وقد أثنى الله تعالى على الصبر كصفة فى عباده وسمة مميزة لنفوسهم حين يصبح طبيعة وخلقاً يتحلون به ، كأنهم الجند المرابطون فى سبيل الله ، والرضى بأحكامه وفى أولئك يقول تعالى : أن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات (١) وقد جعل الله تعالى الصابرين محل رضوانه وموضع حبه وعلامة فوز أصحابه :

يقول تعالى : والعصر ان الانسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٢).

ويقول تعالى: ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. ويقول جل علاه : إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير (٣) .

نماذج من الصبر :

ومن أعظم مواضع الصبر التى ينبغى على المؤمنين تمثلها ، كل بما يتفق مع حالته ووضعه ، ما كان من أولى العزم من الرسل ، وأولهم بالذكر محمد ﷺ وكيف صبر على الأذى والتكذيب والاستهزاء من الجاهلين الذين لا يعقلون وقد حثه الله على الصبر : فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل (٤) وفى قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مواضع للعبر فى مجال الصبر تهز الوجدان وتحيي النفوس :

١ — فقد صبر إبراهيم عليه السلام على إجرام قومه وهمهم بإحراقه .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٥ .
(٢) سورة العصر .
(٣) سورة هود : آية ١١ .
(٤) سورة الأحقاف : آية ٣٥ .

٢ — وتلقى بالصبر والرضى أمر الله تعالى أياه بنقل زوجته وولده إلى جوار الكعبة بواد غير ذى زرع .

٣ — وتلقت هاجر صابرة أمر الله وفعل زوجها بتركها وحيدة مع طفلها إسماعيل .

٤ — وصبر إبراهيم عليه السلام حين أمره ربه بذبح إبنه وامتثل للأمر خاشعاً .

٥ — وأطاع إسماعيل صابراً أمر الله وفعل أبيه وسلم نفسه لأبيه ليفعل ما يؤمر به .

أو لا يجدر بنا كمسلمين أن نتذكر مواطن الصبر كلها حين نذكر أنبياء الله ورسله وحين نؤدى شعائر الله لاسيما فى العمرة والحج .

ثانيا : الصدق

تعريفه :

الصدق لغة ضد الكذب وقد صدقه وتصادقا فى الحديث والمودة والصديق (بالكسر) الدائم التصديق وهو أيضاً الذى يصدق قوله بالعمل (١) . ويمكن تعريف الصدق بأنه الإخبار بالحقيقة أو فعل ما يدل عليها .

أهميته :

الصدق من أسمى وأهم الصفات الخلقية وكفى به أنه من أفعال الله سبحانه وتعالى، يقول سبحانه : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» (٢) ويقول تعالى: الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب

(١) مختار الاصحاح : ص ٣٥٩ .
(٢) سورة آل عمران : آية ٩٥ .

فيه ومن أصدق من الله حديثاً (١) ثم هو من صفات الأنبياء والمرسلين والله تعالى يصفهم به فى قوله : يوسف أيها الصديق (٢) . وفى قوله تعالى : وأذكر فى الكتاب إبراهيم انه كان صديقاً نبيا(٣). ويقول جل وعلا : فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا (٤) .

والكذب من علامات النفاق : فالمنافق إذا حدث كذب ، ولا يكون المؤمن كاذباً لأن الكذب يناقض الإيمان .

أنواعه :

يتخذ الصدق صوراً عديدة وأنواعا مختلفة ، أهمها ما يلى :

١ — الصدق فى الوعد أى الوفاء بالوعد والعهد وألا يقول المؤمن غير ما يعمل ولا يعمل غير ما يقول .

٢ — الصدق فى القول وفيما يخبر به المرء عن نفسه وغيره .

٣ — الصدق فى نقل الأفكار والآراء العلمية وذكر المصادر التى أخذ عنها الكاتب أو المؤلف ما يكتبه ويسمى ذلك الأمانة العلمية وعدم التحريف أو التحوير فيما ينقل . وخاصة فى مجال التشريع وقد قال رسول الله ﷺ من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار وكذلك عدم إخفاء الحقائق وعدم كتمان العلم عن طالبيه ومستحقيه .

---

(١) سورة النساء : آية ٨٧ .
(٢) سورة يوسف من آية ٤٦ .
(٣) سورة مريم : آية ٤١ .
(٤) سورة مريم : آية ٤٩ — ٥٠ .

(٤) الصدق فى أداء الشهادة وعدم الجنوح إلى قول الزور وشهادة الزور من أعظم الموبقات وقد قرنها الله تعالى بالشرك فقال سبحانه وتعــالى : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » .

ولكن ما الذى يدفع بعض الأفراد إلى الكذب ؟ إن الدوافع إلى الكذب عديدة وأهمها ما يلى :

١ — المحافظة على حياة الإنسان والحرص على البقاء .

٢ — رغبة الإنسان فى تحقيق مصلحة مادية أو أدبية لنفسه أو لذويه .

٣ — الغرور وعدم الرغبة فى الظهور بالمظهر الحقيقى .

٤ — الكبرياء والرغبة فى التعالى عن طريق إيهام الغير بغير الواقع .

٥ — الميل إلى المبالغة لاستثارة الغير أو لإضفاء صفات معينة على الوقائع .

٦ — التجميل ولصق صفات غير حقيقية للشىء الموصوف .

٧ — الرغبة فى إثارة شعور الغير .

٨ — التعود على المبالغة بغير هدف وهو ما يسميه البعض « التهــويل المجانى » .

٩ — وهناك الكذب المرضى ، وهو كذب مجرد عن أية بواعث سوى ذلك الباعث المرضى عند صاحبه بحيث لا يستطيع أن يصدق ولا يستطيع إلا أن يكذب حتى ولو كان الكذب يضره والصدق يفيده ويسمى علماء الجريمة هذا اللون باسم المجرم السيكوباتى .

وللصدق مثل كل فضيلة طرفا إفراط وتفريط ، فالإفراط يكون بالصراحة

الجارحة لمشاعر الآخرين بغير مبرر وفضح معايبهم بقسوة فى كل حقيقة بواجب أن تقال . وليس كل ما يعرف يقال ، وكل ما يقال حضر أهله أو جاء أوانه . أما التفريط فيكون فى المبالغة فى التحوط والتحفظ والتواء أساليب التعبير مما يؤدى إلى النفاق أو إلى السذاجة والحماقة (١) .

وهكذا كان شأن المسلمين الأولين : الإقتداء برسول الله ﷺ فى طاعة الله لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر كثيرا (٢) وساروا على قاعدة وجوب الإتباع فى العقائد والعبادات ورعاية المصالح التى يراها أولو الحل والعقد فى المعاملات وعلى الرجوع إلى الكتاب والسنة عند حصول النزاع إمتثالا لقول الحق عز وجل : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا . (٣)

ثالثا : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وصف الحق سبحانه وتعالى أمة محمد ﷺ بأنها خير أمة أخرجت للناس فقال تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٤) .

فبين الله سبحانه أن هذه الأمة خير الامم للناس ، فهم أنفعهم لهم وأعظمهم إحسانا إليهم ، لأن كل أمورهم خير نفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

---

(١) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى . المرجع السابق ص ١٨٧ .
(٢) سورة الأحزاب . آية ٢١ .
(٣) سورة النساء . آية ٥٩ .
(٤) سورة آل عمران . آية : ١١٠ .

المنكر ، وأقاموا ذلك بالجهاد فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهـذا كل النفع للخلق .

كما أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو من صفات المؤمنين ، يقول عز وجل : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض : يأمرون بالمعـــروف وينهون عن المنكر . (١)

وأمر الله تعالى المسلمين بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقال تعالى: ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٢) قال الضحاك : هم خاصة الصحابة كما تشمل المجاهدين والعلماء ، وقال أبو جعفر الباقر قرأ رسول الله ﷺ:

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » ثم قال « الخير اتباع القرآن وسنتى » رواه ابن مردويه . والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الامة متوجهة لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الامة بحسبه كما ثبت فى صحيح مسلم عن ابى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وفى رواية « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وعن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال : والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم (٣) .

ولقد كان رسول الله ﷺ قدوة حسنة للصحابة رضوان الله عليهم فى الأمر بالمعروف

(١) سورة التوبة : آية ٧١ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٤
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ : ص ٣٩٠ .

والنهى عن المنكر ، يقول تعالى : الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون(١) فبالرسول ﷺ أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر وإحلال كل طيب وتحريم كل خبيث . وتحريم الخبائث يندرج في معنى النهي عن المنكر كما أن إحلال الطيبات يندرج في الأمر بالمعروف .

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة لان الله تعالى قد أخبر انهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر فلو اتفقوا على إباحة محرم أو إسقاط واجب أو تحريم حلال أو اخبار عن الله تعالى أو خلقه بباطل ، كانوا متصفين بالأمر بالمنكر والنهى عن المعروف (٢) .

وقد تأسى الصحابة بالرسول ﷺ واقتدوا به ، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتناصحوا فيما بينهم ووفوا بما بايعوا عليه رسول الله ﷺ ذلك البيعة التي حدث عنها الوليد عباده بن الصامت فقال : (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا (٣) ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله الا أن تركوا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم (٤) .

---

(١) سورة الاعراف . آية : ١٥٧ .

(١) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيميه - دار الكتاب الجديد - ص ٩ .

(٢) الاثره : الانفراد بالشيء عمن له فيه حق والاختصاص بالمشترك .

(٣) رياض الصالحين للإمام النووى - ص ٦٨ .

وإذا كان المجتمع الإسلامى قد قام ومن قواعده الهامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فانه ينبغى التنبيه إلى أنه كان مجتمعـــاً نقياً سليم الفطرة ولذلك كان ما تراه عقول أفراده من منكر حقاً وما يرونه معروفا هو معروف فى حقيقته ، أما إذا فسدت الضمائر فى المجتمع واختلت الأمور فإن الحكم على المعروف والمنكر قد يغدو مقلوباً وغير سديد ، والمعروف هو ما تتفق العقول على عدم إنكاره ، أما المنكر فهو كل جريمة إجتماعية ، أى كل جريمة تتجاوز آثارها الشخص الذى أرتكبها إلى المجتمع الذى يعيش فيه، كالزنا والقتل والسرقة والغيبة والنميمة والكذب والوشاية وشهادة الزور .

وإذا أقترنت الفاحشة بالمنكر كما فى قوله تعالى : لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر(١) كأن القصد من الفحشاء أو الفاحشة هو جريمة الزنا وحـــدها ، أما المنكر فيبقى عاماً يشمل الجريمتين الأخيرتين : القتل والسرقة (٢) .

كما يشمل المنكر كل ما تستنكره العقـول السليمة وتأباه النفـــوس الزكية والفطرة النقية .

---

(١) سورة النور : آية ٢١ .

(٢) من مفاهيم القرآن للدكتور محمد البهى ـ ص ٢٣٩ .

القسم الثانى

الأخلاق المقارنة

نتناول فى القسم الثانى من هذا الكتاب ، دراسة الأخلاق المقارنة ، أى دراستها فى الديانات السماوية التى كانت قبل الإسلام وأوردنـا منهـــا ما كان فى الديانتين اليهودية والمسيحية وسوف نجعل ذلك فى مبحثين ثم نخصص مبحثاً ثالثاً للأخلاق فى الفكر اليونانى القديم .

ونختتم هذا القسم لمبحث رابع يتناول دراسة بعض القيم والمسائل الأخلاقية دراسة مقارنة وقد تخيرنا منها مسألتين هامتين هما : الفضيلة والضمير ونجعلهما فى مطلبين .

المبحث الاول

الاخلاق فى الديانة اليهودية

أبرز ما ترتب على ظهور الديانة اليهودية ، هو أن الإنسان أصبح لا شأن له بالبحث عن القواعد الأخلاقية ومحاولة وضعها وصياغتها ، فقد تولت أحكام شريعة موسى عليه الصلاة والسلام تلك المهمة ، غير أن ذلك التحول عن العقائد الوثنية والقواعد الأخلاقية اليونانية اللاتينية لم يتم فى سهولة وفى وقت وجيز ، فقد كان عسيراً تحويل الناس عن معتقداتهم الوثنية من ناحية وإقناعهم بقبول شريعة السماء من ناحية أخرى ، ليس فى مجال الأخلاق فحسب بل فى كل جوانب الحياة الإنسانية ولذلك ظل للفكر اليونانى اللاتينى تأثيره وامتزج بالدين اليهودى الجديد ، فظهرت العقائد الدينية والنظم الفلسفية التى تمثلت فى يهودية « فيلون » ، وأكثر ما ظهر هذا الإمتزاج فى الاسكندرية حيث امتزجت آراء روما واليونان والشام فى المدنية والعلوم والدين ، واتصل الدين بالفلسفة إتصالا وثيقاً كان من نتائجه ظهور عقائد لا هى من الفلسفة المحضة ولا هى من الدين الخالص وكان وراء ذلك عاملان :

الاول : هو ميل اليهود إلى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربى الذى كان متأثراً بالعلم اليونانى .

والثانى : أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية وبين القضايا الدينية المحضة (١). على أن الجانب الأخلاقى فى ذلك كله ، وهو ما يهمنا ، نجد فيه إتجاهات وآراء جديدة .

---

(١) مبادىء الفلسفة . أ. س. رابوبرت : المرجع السابق ص ١١٧ :

جدت فى التوراة وتضمنتها ثلاثة أسفار منها هى : الخروج والاخبار والتثنية . وأول ما يلاحظ عليها تعارضها مع الكثير من أخلاقيات الفلسفة اليونانية خاصة لدى الرواقيين والابيقوريين . ويمكن أن نلمس ذلك على الخصوص فيما يتعلق بالأخلاق التى وردت فى الوصايا العشر :

(١) لا يكن لك آلهة أخرى أمامى .

(٢) أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك .

(٣) لا تقتل (٤) لا تزن (٥) لا تسرق .

(٦) لا تشهد على قريبك شهادة زور .

(٧) لا تشته إمرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك .

(٨) من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلا .

(٩) ومن سرق إنساناً وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلا .

(١٠) ومن شتم أباه وأمه يقتل قتلا (سفر الخروج) .

فلا نجد فى تلك الأحكام القوية روح المسالمة والسعى إلى السكينه اللذين سادتا العديد من المبادىء الخلقية فى الفلسفة اليونانية القديمة خاصة لدى سقراط والرواقيين ، كما عرفت الإنسانية معنى الحرمة والتحريم وإنتهى عهد الإباحية وإنطلاق الغرائز والشهوات وطلب اللذات بغير ضوابط أو قيود . وظهرت فكرة الخطيئة التى تدنس المخطىء ويمكن التكفير عنها بالهبات والقرابين .

على أنه يلاحظ أن اليهودية لم تقض على نظام الرق بل ظل قائمـا فى ظلها ، فأباحت التوراة الإسترقاق بطريق الشراء أو بسبب الحرب ، وجعلت للعبرى أن يستبعد العبرى إذا افتقر فيبيع الفقير نفسه للغنى ، كما أباحت أن يقدم المدين

نفسه للدائن حتى يوفى له الثمن ويظل عبدا لديه لمدة ست سنوات يتحرر بعدها في العام السابع ، وأباحت التوراة للعبري أن يبيع بنته فتكون أمة للعبري الذي يشتريها (١) .

ونلمس العزوف عن نصائح الزهد التي شاعت في ثنايا الفلسفة الأخلاقية اليونانية فيما جاءت به الديانة اليهودية مثل : ثروة الغني مدينته الحصينة ومثل : سور عال في تصوره أمثال ١٨ : ١١ .

— الغني يكثر الأصحاب والفقير ينفصل عن قريبه أمثال ١٩ : ٤ .

على أن النظرة للمرأة تبدو قاسية بالنسبة لذات الخلق السيء .

— السكنى في أرض برية خير من امرأة مخاصمة حردة .

— المتراخي في عمله هو أخو المسرف ١٨ : ٩ .

على أن الشريعة اليهودية لم تقتصر على ترك الزهد والتسامح فحسب ، بل إنها أخذت بمبدأ الثأر المتشدد ، فالعين بالعين والسن بالسن ، وإذا كانت قد دعت إلى حب الأصدقاء فقد دعت إلى بغض الأعداء على أن أكبر ما يستلفت النظر هو النص على أن العمل السيء لا يقتصر أثره والجزاء عليه على فاعله فحسب بل أن الجزاء يتعداه إلى ذريته كذلك .. ففي نصوص التوراة : حرمت عليكم الأصنام والتماثيل وتصوير ما في السماء أو في الأرض أو في قاع البحر . لا تعبدوا شيئا منها ولا تقيموا الشعائر لها لأني الرب إلهكم الإله القوي الغيور الذي يثأر من الآباء العصاة ويأخذ بجريرتهم أبناءهم وأحفادهم إلى الجيل الثالث والرابع حيث

---

(١) مقارنة الإديان : اليهوديه للدكتور أحمد شلبي صفحة ٢٩٥ الناشر مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الرابعة .

أنهم أبغضوه بالمعصية . ويمنح الغفران لمن أحبوه وحافظوا على فروضه ويسبيهم يمنح هذا الغفران لأبنائهم وأحفادهم بل إلى ألف جيل من ذريتهم (١) .

ويمكننا بعد ما أسلفناه أن نجمل النظرية الأخلاقية اليهودية فيما يلي :

أولا : أصبحت الأخلاق ذات مصدر سماوي وأن الله تعالى هو الذي يقرر ما يكون خيراً وما يعد شراً وبذلك أفسحت أفكار النظريات الأخلاقية الوضعية المجال للمبادىء الدينية لتحل محلها .

ثانياً : كما أنه أصبح أمام البشر نظامان أخلاقيان : النظام اليهودى السماوى والنظام الإغريقي اللاتيني الوضعي وقد نشب بينهما الخلاف في أول الأمر ثم عمل رجال الدين والمفكرون على المزج بينهما بعد ذلك .

ثالثاً : إتسمت المبادىء الأخلاقية اليهودية بالعدل الثأرى (٢) وبتأكيد شخصية الفرد والمحافظة على حقوقه .

رابعا : تميزت القواعد الأخلاقية اليهودية بالتباين الكبير بالنسبة للنظريات الأخلاقية اليونانية سواء فيما يتعلق بنظرية القيم الخلقية أو بالأهداف وبالوسائل التى تؤدى إليها أو بأساليب السلوك عامة .

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة تأليف أندريه كرسون . المرجع السابق صفحة ٩٣ .

(٢) ويقصد به العدل في القصاص ، أى الثأر من الجاني بما يساوى جنايته .

المبحث الثانى

الأخلاق فى الديانة المسيحية

مهدت الديانة اليهودية السبيل لظهور الأخلاق التى مبعثها وحى السماء ، ثم جاءت بعدها الديانة المسيحية بقواعد خلقية تتناسب والعصر الذى جاءت فيه .

وأهم ما تتميز به القواعد الخلقية فى المسيحية أمران :

الأول : يتعلق بالقيم .

والثانى : يتعلق بالسلوك .

وسوف نشير فيما يلى إلى كل منها .

أولا : القيم فى المسيحية :

لأول مرة يجد البشر قيما جديدة لا عهد لهم بها لا فى فلسفة اليونان ولا فى شريعة اليهود ، جاءت بها المسيحية ، فإذا كان ما يهم الإنسان هو سعادته فإن تلك السعادة ليست فى هذا العالم . فليست الأرض إلا منفى ، أما مملكة الله فليست فى عالمنا الأرضى بل هى فى العالم الآخر . وهكذا جعلت المسيحية كل قيم الحياة الدنيا لا تساوى شيئاً بجانب القيم الخالدة فى الحياة الخالدة . ولهذا فإن الإهتمام بهذا العالم الآخر هو الذى ينبغى أن يستحوذ على كل رغبات الإنسان وآماله ويسيطر على سلوكه وأفعاله وأفكاره . ففى الإنجيل :

(١) لا تجمعوا النفائس حيث السوس والصدأ يتلفان كل شىء ، وحيث اللصوص ينقبون ويسرقون ، « لكن أجمعوا وأكثروا النفائس فى السماء حيث السوس والصدأ لا يتلفها وحيث اللصوص لا ينقبون ولا يسرقون » وفيه أيضاً :

(٢) ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان إنجيل متى ٤ : ٤

(٣) ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه انجيل متى١٦:٢٦

(٤) لا يقدر أحد أن يحترم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدروا أن تخدموا الله والمال .

(٥) لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس انجيل متى ٦:٢٥

فالمسيحية تدعو إلى ترك متع الحياة الدنيا والزهد فى نعيمها وعدم التعلق بالمال، والمسيح عليه السلام ينصح أتباعه قائلا : أترك ما لك واتبعنى . والمحبة قيمة حرصت عليها المسيحية . فى الإنجيل وصية جديدة أنا أعطيكم : أن تحبوا بعضكم بعضاً إنجيل يوحنا : ١٣ : ٣٤ .

ثانيا : الوسائل الخلقية (السلوك) :

دعا المسيح عليه الصلاة والسلام إلى تغيير شامل فى النفس الإنسانية يؤثر على السلوك الفردى والإجتماعى ، لأتباعه ، ويتجلى ذلك من نصائح الإنجيل ومنها :

(١) طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات إنجيل متى ٥:٣

(٢) طوبى للحزانى لأنهم يتعزون إنجيل متى ٥ : ٤

(٣) طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض إنجيل متى ٥ : ٥

(٤) طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون إنجيل متى ٥ : ٦

(٥) طوبى للرحماء لأنهم يرحمون متى ٥ : ٧

(٦) طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله متى ٥ : ٨

على أن الفارق الجوهرى بين المسيحية واليهودية يتجلى فى مسألة الجـــزاء ، فبينما أخذت اليهودية بقاعدة الجزاء ، فالعين بالعين والسن بالسن، نجد المسيحية تدعو إلى مقـابلة الشر بالخير والرد على السوء بالحسنى :

١ — أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا إلى بعضكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم أو يطردونكم — متى ٥ : ٤٤

٢ — لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً — متى ٥ : ٣٩

٣ — فان جاع عدوك فاطعمه وإن عطش فأسقه لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه — رومية ١٢ : ٢٠ (١)

وهكذا نجد أن فى المسيحية من تعاليم الزهد ورياضـــة النفس ما يذكرنا بمبادىء الفلسفة اليونانية واللاتينية فى مجال الأخلاق خاصـــة آراء سقراط وأفلاطون والرواقيين وشيشرون . وهو ما ظهر أثره فيما بعد من إمتزاج تلك الفلسفة الأخلاقية بالديانة المسيحية . وقد ظهر هذا الإمتزاج منذ القرن الأول الميلادى ووجد له تبريراً أن الإيمان يحتاج إلى الفهم وإلى الأدلة العقليـة ثم أن الإيمان لا يناقض العقل وظهرت ثمار ذلك فى القرون الخمسة الأولى للمسيحية فى الإنتاج اليونانى للقديس « كليمان » الاسكندرى والقديس «جريجوار دى نازينز» والقديس « جريجوار دى نيس » وحيث ظهر الإنتـــاج اللاتينى « لجوستين » وأرنوبا والقديس « امبرواز » والقديس « أوغسطين » .

ومنذ القرن الثالث عشر ، بعد فترة الركود العقلى الذى ساد القرون الوسطى،

---

(١) حكمة الأديان الحية ـ المرجع السابق ـ صفحة ١٥٧

أخذ الغربيون فى دراسة الشروح العربية لفلسفة أرسطو وعلى الخصوص شروح ابن رشد وتكونت مدارس « البير الكبير » والقديس « توماس الاكوينى » ودون سكوت وأخيرا مدرسة جيوم دوكام وقد أخذت تلك المدارس لا عن أرسطو فحسب بل وعن أفلاطون والرواقيين والأفلاطونية الحديثة ، وبجهود «توماس الاكوينى» عند وجه الخصوص أمكن صهر كل تلك المذاهب والفلسفات الأخلاقية مع المبادىء المسيحية ، وصاغ المؤرخ المعاصر جيلسن ذلك المذهب وأبان أصالته (١) .

الجانب التطبيقى فى الاخلاق المسيحية :

أشرنا فيما سلف إلى الأخلاق النظرية كما جاءت بها تعاليم الديانة المسيحية وأغرب ما نلمسه عند النظر فى الأخلاق العملية والسلوك الواقعى لمعتنقى هذه الديانة هو البون الشاسع بين النظرية والتطبيق وبين المبادىء والواقع لا فى عصرنا الحاضر فحسب بل وعبر عصور التاريخ أيضاً .

وأما بالنسبة لتاريخ الشعوب المسيحية فيكفى أن نذكر الحروب الصليبية التى شنوها على المسلمين فى الشرق وما جرى فيها من مذابح خاصة فى القدس وفى معرة النعمان حيث كانت خيولهم تجرى فى سيول من الدماء بشوارع القدس وحيث ذبحوا النساء والشيوخ والأطفال وزاد ضحاياهم فيها على مائتى ألف مسلم شهيد . بل ولا ننسى مذابح المسلمين فى الأندلس بعد إنتصار المسيحيين فيها وأيضا ما فعله الإستعمار المسيحى بشعوب البلاد الإسلامية من أندونيسيا وشرق آسيا شرقاً إلى الجزائر والمغرب غرباً ، ولقد قامت فى أوربا الجمعيات الثورية التى غايتها القضاء على من تراهم أعداء للمسيحية ووسيلتها الدماء والمقاصل

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، المرجع السابق صفحة ١٠٠ .

وكان أشهرها جمعية الصليب المقدس فى تورينو بإيطاليا بل ولا ننسى ما ارتكبه المسيحيون الكاثوليك ضد المسيحيين البروستانت خاصة مذبحة باريس فى ٢٤ / ٨ / ١٥٧٢ التى دبرها لهم .. فأين هذا كله ، وما نراه الان فى الغرب المسيحى ، وما هو قائم فى أمريكا بالنسبة للزنوج والسود والملونين والهنود الحمر من مبادىء المسيحية .

ومن قول المسيح عليه السلام : أحبوا أعداءكم باركو لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ، لقد أصبحت تلك النصائح وغيرها مجرد كلمات يرددها القسس فى الكنائس دون أن تجد لها صدى فى الواقع العملى ثم أين قول المسيح من نظر إلى امرأة وهو يشتهيها فقد زنا بها مما هو مشاهد الآن فى الحياة الأوربية المسيحية من العرى وانطلاق الشهوات ؟ على أنه ليس مما يدخل فى مجالنا الآن ونحن نتحدث عن الأخلاق أن نتتبع العوامل التى أدت إلى هذا الواقع ، ولا أن نبحث عن سبل تلافيها ، فذلك موضوع آخر ، ولكن ترك المسيحيين الغربيين لمبادىء المسيحية وقواعدها وأخلاقياتها إنما يدل على أنهم آثروا الحياة الدنيا ونعيمها على الآخرة وعلى أن تعاليم المسيحية لم تعد تلبي حاجاتهم الحاضرة ومعيشتهم المعاصرة فانصرفوا عنها .

الرهبنة فى المسيحية :

على أن مما يستلفت الإنتباه أنه فى مقابل هذا الخروج عن تعاليم المسيحية والعمل بما يناقضها نجد ، ومنذ زمن بعيد إتجاهاً آخر مخالفاً لهذا الإتجاه ومتطرفاً فى تطبيق تلك التعاليم والتشدد فيها ، ونعنى به الإتجاه نحو الرهبنة وإيثار حياة الأديرة ، ويقتضينا تناول هذا الإتجاه أن نبين نشأته .

نشأة وتطور الرهبنة :

عانت المسيحية منذ بدء ظهورها من الإضطهاد ، وقد لقى المسيح عليه السلام من صنوف العداء والتنكر الكثير، خاصة من اليهود الذين ساموا حوارييه وأنصاره صنوف القسوة والتنكيل ، ولما انتشرت المسيحية إستمر إضطهاد المؤمنين بها من جانب أباطرة الرومان الذين اعتبروهم إمتدادا لليهود محل بغضهم الشديد ، ولأن أولئك الأباطرة كانوا وثنيين يمقتون كل دين سماوى ، ومما زاد فى إضطهاد المسيحيين أنهم كلما أوذوا وحوربوا إزدادوا تمسكا بعقيدتهم وتعصباً لها وأعلنوا أن هدفهم هو القضاء التام على العقائد الوثنية وتحطيم الحضارة والثقافة الرومانيتين لوقوفهما فى وجه رسالة السماء .

وقد كان أفظع أعمال التنكيل التى لقيها المسيحيون فى القرن الأول تلك التى قام بها « نيرون » (٦٨ م) فقد كان يلقى بهم أحياء للوحوش الضارية تنهش أجسامهم وكان يأمر فتطلى أجسامهم بالقار وتشعل فيها النار لتكون شعلات فى الإحتفالات التى كان يقيمها فى حدائق قصره .

وفى القرن الثانى الميلادى أعلن أن المسيحيين أنجاس ليس لهم الحق فى إرتياد المحال العامة واستمر التنكيل بهم بجعلهم يواجهون السباع والوحوش تطلق عليهم فى ملاعب روما ليتشفى بمرآهم آلاف المشاهدين الوثنيين .

وفى القرن الثالث الميلادى وفى عهد الإمبراطور دقلديانوس لقى المسيحيون من إضطهاده الكثير ، إذ أمر بهدم الكنائس وأسقط حقوقهم المدنية باعتبارهم نجس ودنس ، كما قبض على الكهان ورجال الدين وملأ بهم السجون ، وقتل الآلاف ولذا أطلق على عهده « عصر الشهداء » (٢٨٤ م) .

ولم ينعم المسيحيون بالهدوء إلا فى القرن الرابع الميلادى عندما أصدر

الإمبراطور مراسيم التسامح والعفو عن المسيحيين (٣١١ — ٣١٣ م) ثم اعتنق هو نفسه المسيحية بعد ذلك بعشر سنوات . ويمكن لنا أن نلاحظ ما يلي حول إضطهاد المسيحيين :

أولا : أن تعاليم المسيحية بإهمال الجسد والتخلى عن المتع والرغبات وإذلال الفرد المسيحى نفسه فى سبيل ملكوت الله ، كل ذلك كان من العوامل الهامة التى عاونت المضطهدين على تحمل آلام الإضطهاد وصنوف التعذيب والتنكيل القاسيين وكان المسيحيون يجدون القدرة والأسوة فيما يتمثلونه من تعذيب المسيح عليه السلام ويجدون العزاء فى إقتران الإيمان بالمسيحية بما تصوروه من الصلب والصليب .

ثانيا : وعندما انتهى إضطهاد المسيحيين فى مستهل القرن الرابع يشعر الكثيرون من المسيحيين بالتعاطف الشديد مع أولئك الذين ذاقوا ويلات التعذيب فى سبيل نشر المسيحية ، واعتقدوا أن المسيحى الحق هو من يبذل نفسه وينبذ متع جسمه فى سبيل دينه ، خاصة وقد أصبح الصليب علامة على التعذيب والقتل وشعاراً للمسيحية ، فاشتاق الآلاف إلى أن يضحوا بتمتعهم فى الحياة بعد إذ فاتهم التضحية بالدماء ، وبدأت بذلك الرهبنة فى الظهور .

تطور الرهبنة :

لم تكن الرهبنة من تعاليم المسيحية الأولى إذن ، وإنما ظهرت فى القرن الرابع الميلادى . ويمكن تعريف الرهبنة بأنها ترك إختيارى للمشاركة فى الحياة الاجتماعية والإنقطاع للعبادة المسيحية والتضحية برغبات النفس وشهواتها تقرباً للمسيح وتشبهاً به وخدمة لعقيدته . ولم تقم الرهبنة كما هى اليوم مرة واحدة وإنما مرت بمرحلتين متتاليتين :

ففى المرحلة الاولى : بدأت الرهبنة بالهرب من الحياة الاجتماعية والبعد عن الناس وهجر العيش فى المدن والقرى المليئة بالدنس والآثام والشرور والإلتجاء إلى الجبال والبرارى والصحارى للعيش فيها بجوار صخرة كبيرة أو فى كنف أعشاب وشجيرة أو داخل كهف أو مغارة ، على أن الجدير بالملاحظة هنا أن الخروج لم يكن جماعيا بل كان يتم بصورة فردية ، ويهدف به الفرد إلى تحقيق ثلاثة أهداف :

الأول : البعد عن بواعث الخطيئة وعوامل الوقوع فى الآثام وسط حياة الجماعة بتركها إلى الحياة الفردية الجماعية .

الثانى : حمل النفس على حياة التقشف والحرمان حيث الحياة فى الجبال والبرارى بغير المتاع والأثاث وبأزهد الطعام واللباس .

الثالث : إتاحة الفرصة للنفس لكى تتفرغ للمحاسبة والتصفية ، والتأمل فى رحلة الحياة وفى ملكوت الله بعيداً عن شواغل النفس ، حيث لا أسرة ولا زواج ولا إنشغال بأقارب أو أصدقاء .

وبمرور الزمن كثر عدد المترهبين وشعروا أن حياتهم فى جماعات صغيرة أفضل لهم وبذلك إنتقلوا بالرهبنة إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية : شعر المترهبون (١) أن حياة الوحدة القائمة فى القفار والجبال تؤدى إلى مخاطر عديدة ، منها عدوان اللصوص والمجرمين والوحوش فضلا عن صعوبة الحصول على القوت والماء فى أغلب الأحيان ، ولذلك فقد اتجهوا إلى أن

(١) الراهب : المنقطع للعبادة ومصدره الرهبة والرهبانية . والذهب التعبد مختار الصحاح صفحة : ٢٥٩ (رهب) .

يبنى كل راهب لنفسه صومعة ولا بأس أن يعيشوا فى صوامع متجاورة ، ثم انتهى الأمر إلى إحاطة عدد من تلك الصوامع بأسوار عالية ، وبذلك نشأ نظام الدير (١) وأصبحت تلك الأديرة تحمل أسماء القديسين والشهداء أو حواريى المسيح تخليداً لذكراهم وأصبح لها بمرور الزمن نظام داخلى تسير عليه ولا زال نظام الرهبنة قائما حتى وقتنا الحاضر ومن أهم أسسه عدم الزواج والتبتل .

غير أن البعض لا يميل إلى جعل نظام الرهبنة نظاماً مسيحيا صرفا ، فعلى الرغم من أن المسيح عليه السلام قال : إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى ، ومع أن المسيح نفسه كان يصعد إلى الجبل حين كان يريد أن يصلى أو يعظ مريديه وكذلك يوحنا المعمدان كان يعيش فى البرية ، نقول على رغم ذلك كله فإن البعض يرى — فى مجال مقارنة الأديان — أن المسيحيين قد اتبعوا المنهاج والسلوك الهندى دون تحريف ، فإن الترهب والتبتل وتعذيب الجسم هى سياسة الهندوسية والبوذية (٢) ، وإن كان يبدو لى أن هذا الرأى لا يزال يفتقر إلى الأدلة التى تؤيده ، هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن نظام الرهبان نشأ فى مصر أولا ثم انتقل منها إلى إيطاليا وفرنسا وغيرهما من الدول .

تقييم الأخلاق فى المسيحية :

نلاحظ على نظرية الأخلاق فى المسيحية ما يلى :

---

(١) مقارنة الأديان المسيحية : للدكتور أحمد شلبى الطبعة الرابعة عام ١٩٧٢ مكتبة النهضة المصرية . صفحة ٢٠٩ .

(٢) مقارنة الأديان المسيحية . للدكتور أحمد شلبى المرجع السابق ص ٢٠٩

أولا : أن الفكرة الأولى فيها تقوم على إنكار حقوق الفرد فى الحياة الطبيعية وفى تلبية حاجاته الضرورية ونزعاته النفسية الفطرية وفلسفة الأخلاق فى المسيحية تقوم إذن على قاعدة الكبت كبت الرغبة فى الإنتقام من المعتدى (من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . متى : ٥ : ٣٩) وكبت مشـــاعر الإنسان الطبيعية فى أن يبغض الإنسان من يبغضه . ولاشك أنه من العسير على الإنسان العادى أن يحب جميع الناس ومن بينهم أعداؤه .

ثانياً : لم تستطع المسيحية أن تحافظ على نقاء المصادر الأخلاقية فيهـــا طويلا ، إذ ما لبثت أن دخلتها أفكار وضعية عديدة لفلاسفة ومفكرين كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ثالثاً : تركز إهتمام الأخلاق فى المسيحية بالفرد ، وبالأخـــلاق الفردية خاصة وقد أكد هذا الإتجاه أن المسيح عليـــه والسلام قد أكد أن المسيحية لا شأن لها بإصلاح المجتمعات ، ولا بمسائل الحكم : « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ولذلك نجد جانب الأخلاق الاجتماعية خافتاً ضعيفـــاً فى التعاليم المسيحية .

رابعاً : وقد كان نتيجة للمنحى الفردى فى الأخلاق المسيحية وترك إصلاح الجماعة ، ولعسر المنهج الأخلاقى المسيحى وتشدده ، أثراً ملموساً فى إنقسام المجتمع المسيحى إلى قسمين متناقضين تماما : القسم الأول يمثل الأقلية المتشددة من الرهبان ورجال الكنيسة والقسم الثانى يمثل أغلبية المجتمـــع ،لم يستطيعوا الإنصياع لأخلاقيات المسيحية وتعاليم الكنيسة فعاشوا على أسس جديدة من التشريعات والأخلاق الوضعية ، أو القضيتين الأساسيتين : أى قضية تحديد الخير الأعظم وقضية تحديد الواجب أى السلوك الذى يوصل إليه .

والجدير بالملاحظة أن الفكر الغربي في مجال الأخلاق قد ترسم هذا الطريق نفسه والذي سلكته الفلسفة اليونانية وظلت آراء الفلاسفة والأخلاقيين متأثرة به هناك حتى بعد ظهور الديانة اليهودية ثم المسيحية ثم إنتشارهما ولهذا فسوف نقسم هذا الفصل إلى مطلبين نتناول في الأول منهما النظريات الأخلاقيـــة في الفلسفة اليونانية ونتناول في المطلب الثاني نظرية الأخـــلاق في الديانتين اليهودية والمسيحية .

المبحث الثالث

النظـــريات الاخـــلاقية

فى الفكر اليونانى القديم

لا يتسع المجال لعرض ما حملته النظريات الفلسفية اليونانية فى الأخلاق ، ولذا فسوف نقصر الكلام على مدارس خمسة تمثل جل إتجاهات الفكر اليونانى القديم فى هذا المجال ، وهى مدارس تضم آراء متميزة ومذاهب تقترب حيناً وتبتعد عن بعضها حيناً آخر ، وسنذكر منها مدارس سقراط وأفلاطون وأرسطو ثم مدرستى الابيقوريين والرواقيين جاعلين لكل منها فرعا مستقلا .

الفرع الأول

الفكر الأخلاقى عند سقراط

يعد سقراط مؤسس الفلسفة الأخلاقية فى العالم الغربى وتتمثل أفكاره فى إعتماد الفضائل الخلقية على أربع قواعد أساسية هى :

١ ــ معرفة النفس ٢ ــ العلم ٣ ــ القناعة ٤ ــ العمل.

١ ــ فأما معرفة النفس فقد اعتبرها سقراط ركيزة النجاح فى الحياة. وتتحقق بتمثل الإنسان للقاعدة المكتوبة على معبد « دلفى » والتى تقول: «أعرف نفسك بنفسك » فمتى عرف الإنسان نفسه عرف ما يصلح له وما لا يصلح وقصر أقدامه على ما يعلم ونأى عما لا تقدر نفسه على بلوغه فنأى بها عن الزلل والخطأ ويتجنب بذلك الشقاء ويمكنه الوصول إلى حسن تقدير الأمور وفهم الأشخاص. وإذا كان هدف الإنسان هو السعادة فلو تأمل الإنسان لتحقق من أن السعادة ليست شيئاً مادياً ، بل هى شىء معنوى أو حالة نفسية أخلاقية تتمثل فى قدرة الإنسان على التوفيق بين ما يرغب فيه وبين ما يملكه بالفعل ، ونلمس من هذا كيف يحبذ سقراط القناعة فهو يقول :

ما هى السعادة ؟ إنها ليست الجمال ولا القوة ولا الثراء ولا المجد ولا شيئاً يماثل ذلك ، فكم من مرة كان الجمال فيها ضحية لغاو متهتك وكم من مرة غرت القوة أشخاصاً فتهوروا فى مشاريع لا طاقة لهم بها ، فباء كاهلهم بالشقاء ! وكم من أشخاص بعث فيهم الثراء نوعا من الرخاوة طغت مضاره على ما كانوا يأملونه من نعيم ! وكم من أشخاص كان إسمهم ملء السمع والبصر فكان مجدهم وثقة الناس فيهم عاملين فى ضياعهم ونجد تفصيل آراء سقراط تلك فى محاوراته

وهـــو يرد على « انتيفـون » بأنه لا يرى السعادة فى الرفاهية والأبهة كما يراها انتيفون ، وإنما يراها فى الزهد ويقول إذا كان من صفات الإله أنه لا يحتاج إلى شىء ، فإن ما يقرب من الألوهية أن لا يحتاج الإنسان إلا إلى القليل ، وبما أنه لا أكمل من الله فإن القرب منه قرب من الكمال . فليست الثروة إذن وليست السعادة إلا الإنسجام بين رغبات الإنسان وظروفه وكلما قلت الرغبات كثر إمكان الوصول إليها ، ليس موطن الثراء والفقر كما يقول « انتسيتين » فى بيوتنا وإنما فى نفوسنا وليست السعادة فى مجرد إكتناز الذهب والفضة لذاتها وإنما هى فى سلوكنا الحكيم تجاه حاجاتنا ورغباتنا » . على أن فلسفة سقراط الأخلاقية قد تضمنت عبارتين يبدو معناهما غامضاً وهما قوله :

١ — لا يعمل الإنسان الشر باختياره .

٢ — والفضيلة ثمرة العلم .

ولكن موازنتها بباقى أقواله يزيل عنها الغموض ، فهو إذا كان يقول أن السلوك الخير يتمثل فى سير الإنسان فى السبل المؤدية إلى السعـادة بعد معرفة طبيعتها معرفة واضحة ، أما الشر فهو الحيدة عن ذلك ، فإذا نظرنا على ضوء ذلك إلى قوله : لا يعمل الإنسان الشر باختياره فإن معناها يكون : لا ينصرف الإنسان عن سعادته باختياره لأن العاقل لا يختار طريق الجحيم على طريق السعادة إلا جاهلا أو منخدعا .. كذلك يفهم الإنسان كيف تكون الفضيلة ثمرة العلم ؛ فإن من يجهل طبيعة السعادة الحقيقية ويجهل السبل والطرق الموصلة إليها لا يمكنه إلا أن يخطىء ما يبحث عنه ، ولكنه إذا عرف السعادة وعلم السبل الموصلة إليها فكيف يتصور انصرافه عن الخير الذى يتطلع إليه .

وهذا هو نفسه ما ينقله « أكزونوفون » من كلام سقراط : « أن من يميز ، من بين كل الأعمال الممكنة ، العمل الذى يتلاءم مع مصلحته ، فإنه لا يتردد فى الإختيار ، وحينما يعمل الإنسان الشر فإنه يكون جاهلا بمقدار ما هو آثم » .

الفرع الثانى

أفلاطون

رغم إعجاب أفلاطون بأستاذه سقراط فإنه لم يؤيده فى كل آرائه ، **بل** خالفه فى عدد من المسائل ومن تلك المسائل التى خالفه فيها مسألة الصلة بين الفضيلة والعلم فقد أنكرها أفلاطون فى كتابه « مينون » ورأى أن العلم ينتقل من عقل إلى عقل عن طريق البراهين والأدلة وليست الفضيلة كذلك ، فإن أفاضل أثينا لم يمكنهم ، لمجرد الدروس التعليمية أن يصيروا أبناءهم فضلاء مثلهم ، فليس العلم إذن — فى رأى أفلاطون — هو الذى يصير الرجل فاضلا ، وإنما الفضيلة ترجع إلى إلهام وبصيرة يشوبها قبس من التحمس الدينى . ثم أن أفلاطون قد جعل للدين مكانة بالنسبة للأخلاق تربو على ما فعل سقراط ، وهو يتكلم عن مصير الأرواح بعد الموت وعن الحساب الذى ينتظرها والثواب والعقاب ويؤكد أننا سنعود بعد الموت لحياة أخرى جديدة فى أجساد لا يفنيها البلى . بيد أنه يتفق مع أستاذه فى جوانب من فلسفته الأخلاقية، كما يظهر فى كتابه «فيليب» أبرز كتبه فيها ، فيحول معنى الخير المطلق كما حدده سقراط فى السعادة ولكنه ينتهى إلى أنه ليس الخير وليست السعادة فى اللذة وحدها أو فى العلم وحده ، وينبغى ألا نبحث عن السعادة فى عنصر واحد نعتقد أنه هو المكون لها ، وإنما يجب البحث عنها فى إئتلاف عنصرى العلم واللذة ، ثم هو يدعو إلى التخير بين العلوم وإنما الحكمة من بينها هى التى توصل للسعادة أما اللذة فيقول عنها : أن بعض اللذات ليس لها من اللذة إلا الإسم ، وما هى إلا فترات تنصل بين ألمين ، كلذة الأجرب حين تحك جسده ، أو الرجل الذى يأكل أو يشرب حين يجوع

أو يعطش ، فمثل تلك اللذات لا تعـــدو أن تكون بهيمية كـدرة مثقلة بالألم والإضطراب .

ثم يقول : أن هناك لذات صافية نقية ليست إفاقة بين ألمين ، لم تسبقها أية رغبة ، فليست الشهوة مصدرها وأنه من أدرك العلم يجب أن يكون مصدراً أساسياً لسعادته فعليه أن يتجنب إتباع الشهوات البهيمية الوضعيه التى تؤدى إلى الخلل فى النشاط العقلى ولاشك أن العلم والحكمة لا ينسجمان مع الشهوات التى تترك الأرواح مضطربة .

وهكذا يذهب أفلاطون إلى أن الخير المطلق إن هو إلا تنسيق وانسجام بين العناصر التى يتكون منها أما العلاقة بين تلك العناصر فهى علاقة تتصـــل بناحية الجمال .

ونجد نموذجا آخر لفلسفة أفلاطون الأخلاقية يتمثل فى كتابه الجمهورية وفيـــه يرى — لتنظيم علاقة الفـرد بالمجتمع — تقسيم المجتمـــع إلى ثلاث طبقـات :

١ — الطبقة الحاكمة وهى تمثل العقل ويسميها الطبقة الذهبية .

٢ — الطبقة التى تحمى المجتمع ، أى الجيش وهم أصحاب العواطف الكريمة ويسميهم الطبقة الفضية .

٣ — الطبقة التى تقوم بالإنتاج وتشمل الزراع والصناع والتجار ويطلق عليها أفلاطون الطبقة النحاسية .

وقد رسم قواعد التربية والأخلاق والنظام السياسى فى مؤلفه ذلك على هـذا

الأساس ليحقق المدينة الفاضلة فى تصوره ؛

على أنه مما لا شك فيه ، أنه مثل أستاذه سقراط لم يجعل الإعتبارات الدينية دخــلا فى حسن السلوك وإنما المعول عليه عندهما هو الحرص على تحقيق السعادة .(١)

(١) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة تأليف أندريه لرسون وترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والاستاذ أبو بكر ذكرى . دار الكتب الحديثة . الطبعة الثانية صفحة ٤٩ .

الفرع الثالث

أرسطو

على قدر ما قارب أفلاطون أستاذه سقراط فى فلسفته الأخلاقية على قدر ما تباعد أرسطو عن الإثنين معاً : فإذا كان سقراط قد جعل السعادة أمراً نفسياً داخليا يدور مع الفضيلة وحدها وجوداً وعدماً فإن أرسطوا قد دعم السعادة باللذات المشروعة والحظوظ الدنيوية المادية ، فبرهن أرسطو على أنه عملى ذو فلسفة واقعية تخالف فلسفة أفلاطون المثالية . بيد أنه لا ينكر قيمة العلم وأثره فى تحقيق الخير والسعادة ، ويقول أن حياة الإنسان المتعلم أرقى من حياة غيره وهو يقضى وقته بطريقة أجمل مما يقضيه بها هؤلاء الذين يسعدون فى الحياة جاهلين .. ورأى أرسطو أن ثمة فضائل جوهرية وهى التى لا تتحول بالإفراط فيها أو الإسراف إلى رذائل : ويعنى بها الذكاء وهو عادة الإدراك الدقيق للقواعد العلمية وكذلك التبصر وهو عادة التقدير الصحيح لكل شىء وأخيراً الحكمة والمهارة وهما فى العلوم أرقى درجات الكمال . والفضائل الأخلاقية لا تسمى عنده فضائل أخلاقية إلا إذا كانت عادات مستمرة على أن أبرز ما يميز فلسفته الأخلاقية هو فكرته عن الوسط العدل ، فجميع الفضائل الأخلاقية لا تعدو أن تكون أوساط الأمور .

ففى كل أفعال الإنسان جانبان ينبغى الإبتعاد عنها وهما الإفراط والتفريط ، أما الفضيلة فهى الوسط بينهما .

وقد عدد أرسطو نواحى الإفراط والتفريط التى تؤدى إلى الرذائل فى عدد من الصفات الخلقية ووضع معها الوسط العدل الذى يتعين على الحكيم إتباعه .

فمن رذائل الإفراط :

(١) التهور (٢) الشهوانية

(٣) الغرور (٤) الإدعاء الكاذب

(٥) الشراسة (٦) المجاهة

ومن رذائل التفريط فيها :

(١) الجبن (٢) البلادة

(٣) الخسة (٤) ضعة النفس

(٥) الضعف (٦) الملق

أما الفضائل التى يمثلها الإعتدال بالحد الوسط لرذائل الإفراط والتفريط السابقة فهى :

(١) الشجاعة (٢) الإعتدال

(٣) العزة (٤) السراوة

(٥) الحلم (٦) المجاملة

وينتهى أرسطو إلى القول بأن أنواع الخير ثلاثة :

أ — خير خاص بالنفوس وهو أساسى وجوهرى وما عداه تابع له .

ب — خير خاص بالأجسام ولا يرى أرسطو إهمالها بل يحبذ الحرص على الصحة وتوفير المال والحاجات الضرورية .

ج — وخير خارجى وعيبه أنه لا يمكن التعويل عليه فى تحقيق السعادة لأن الإنسان لا يملكه ولا يسيطر عليه كالشهرة مثلا (١) .

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة . المرجع السابق صفحة ٥٩ .

الفرع الرابع

الأبيقوريون والأخلاق

تزعم أبيقور (٣٤٠ ق.م) مذهباً غير أخلاقي في الفلسفة الأخلاقية ، جعل منه الحد الأكبر لكثير من الملحدين والزنادقة الذين أتوا بعد ذلك ، فهو يرى أن شقاء الإنسان نابع من مسألتين تنغصان حياته وهما : الإيمان بأن الآلهة يهتمون بأمر بني البشر ثم الفزع من الموت الذي يتهددنا في كل لحظة ، ولهذا فهو قد نادى بتحرر النفوس من هاتين الفكرتين المؤرقتين ، ورأى أن الآلهة لا تعنيهم أمور البشر وعقاب المخطىء وإثابة المحسن وأن الحياة تسير وفق قوانين طبيعية ولكن الله تعالى قد أعماه فلم يسأل نفسه ومن الذي خلق تلك الطبيعة وخلق قوانينها ؟ أما الموت فقد دعا إلى عدم الفزع منه ، لأنه ينكر كل حياة بعده ، بل تفنى ذرات الروح كما تفنى ذرات الجسد ، وما دام الأمر كذلك في رأيه فإن الخير المطلق عنده هو اللذة والشر المحض هو الألم ، وما دام الإنسان في رأيه قد تخلص من الألم بقتل الضمير الذي يذكره بالله تعالى وبنسيان الموت الذي لا شيء وراءه — فإن السعادة تكون بالحصول على اللذات ويكون الأخلاقي هو الذي يعلم البشر فن الحصول على اللذة وتجنب الألم .

ولتجنب الألم قسم رغبات الإنسان إلى ثلاثة أنواع هي :

١ — الرغبات الطبيعية الضرورية ، وهي ذلك النوع من الرغبات الذي لا مناص من تحقيقه وإلا عرض المرء نفسه للهلاك ومثلها رغبات النوم والشرب والأكل .

٢ — الرغبات الطبيعية التي ليست بضرورية : وهي التي يكون مبعثها بواعث وغرائز قوية في النفس مثل الرغبة الجنسية والرغبة في الجمع وهي ليست لازمة لضمان حياة الإنسان كالرغبات الطبيعية .

٣ — الرغبات التي ليست طبيعية ولا ضرورية ، وهي التي تتولد في الإنسان بتأثير البيئة الإجتماعية مثل الرغبة في الحصول على إعجاب الآخرين ومثل الرغبة في الطموح والشهرة أو البخل واكتناز المال .

وقد جعل أبيقور إرضاء الرغبات الطبيعية واجب أما الرغبات الطبيعية التي ليست بضرورية فهذه لا تترك تماماً وليس هناك ما يمنع الحكيم من إشباعها وإن تركها أولى .

أما النوع الأخير من الرغبات التي ليست بطبيعته وليست بضرورية فإن من الجنون إرادة إرضائها فإنها كثيرة لا تحصى وتتطلب من المتاعب والشقاء لا يكاد ينتهي . وهو بذلك يقترب من سقراط في فلسفة القناعة ويتمثل بقوله لانتيفون « إن القناعة تسعد القانع » وهو مثله كذلك في بنائه الفضائل على التبصر الذي يؤدي إلى الإعتدال والفرار من الألم وتحقيق الحياة الساكنة (١) .

ثم لا ينبغي أن ننسى أن مذهب أبيقور في الأخلاق كما أشرنا إليه يتفق في الحقيقة مع منهج فلسفته المادية ، ذلك أن أبيقور اقتفى أثر ديمقريطس واضع الفلسفة المادية التي تنكر الروح وتعتبر النفس والفكر والعقل والشعور أعراضا للمادة .

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة تأليف أندريه كرسون وترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ أبو بكر ذكري صفحة ٦٧ .

ورغم مادية الأبيقوريين ورغم أن فلسفتهم الأخلاقية قائمة على تحقيق اللذة للإنسان فإنه من الجدير بالذكر هنا أنهم كانوا يرون أنه طالما أن بعض اللذات يعقب ألماً فإنه لابد من تنظيم رغبات الإنسان فى اللذة بحزم ، ومن ذلك تنتج جميع الفضائل فإن صحة البدن واطمئنان العقل هما أعظم سعادة فى الحياة (١) .

---

(١) مبادىء الفلسفة تأليف أ.س. رابورت وترجمة أحمد أمين الطبعة الخامسة ١٩٤٩ صفحة ٧٥ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

الفرع الخامس

الرواقيون والأخلاق

مؤسس مذهب الرواقيين هو الفيلسوف اليونانى « زينون » (٣٤٢ — ٢٧٠ ق. م.) ، وكان يعلم أصحابه فى رواق مزخرف فى أثينا فسموا بالرواقيين، وتقوم آراءهم الأخلاقية على النهج الذى سلكه سقراط فى التعويل على العقل وإعتباره أساس الفضيلة ، طالما أنه يسيطر على شهوات النفس ، ويتوافق مع الطبيعة ، غير أن أهم ناحية تميز الفلسفة الأخلاقية للرواقيين هى إيمانهم بالروح بجانب المادة ، وليست الروح فى حشد الإنسان فحسب ، بل فى العالم كله . بحيث تبعث الحياة والحركة فى كل الأجرام والأشياء ، وهذه الناحية بالذات تميزهم تماماً عن الفلسفة الابيقورية وتجعلهم معهم على طرفى نقيض ، على أن ذلك الإيمان بالروح عند الرواقيين لا يعنى أن نظرية الأخلاق عندهم تقوم على أساس دينى ، بل يعنى أنهم من أصحاب المذهب الاثنينى لا الواحدى (١) . ويذهب زينون إلى أن الفضيلة فيها الغناء عن كل شىء، وأن الحكيم يقضى حياته فى وفاق مع الطبيعة مستقلا حراً ، بين جنبيه نفس يعتز بها وإن إلتحف ببردة فقير ، وقد هداه عقله إلى أنه ليس بوسعه أن يبدل الطبيعة أو أن يغير فيها ، فآثر التوافق معها والسير وفقاً لها ولم يبدد طاقته وقوته فى محاربة الطبيعة كما يفعل الحمقى والرواقى مسالم مستسلم لا يهيجه شىء ولذلك شاع فى الغرب إطلاق إصطلاح « رواقى » على كل إنسان إعتاد أن يقابل كل الأشياء بهدوء وطمأنينة رغم ما يحيط

(١) نسبة إلى الاثنين : ذلك أن الفلسفة المادية تعتبر أصل الأشياء هو المادة، بينما عند الرواقيين أصلها اثنان : المادة والروح ويمكن أن يكون الواحديون من أصحاب فكرة أن أصل الأشياء الروح فحسب .

فيه من خطر وألم لأنه يعتقد أن كل شيء قدرته الطبيعية فهو خير له (١) لأن الطبيعة تتجه نحو السعادة والسعادة عند الرواقيين هي الـ Ataraxle وهذه الكلمة تعني حرفياً : «عدم وجود الاضطراب» وتعني السلام الداخلي والطمأنينة كما تعني الإتزان الأخلاقي لنفس قد رضيت عن ذاتها ورضيت عن الأشياء ورضيت بالحياة، إنها هدوء القلب، وهذا ما يسميه «ديكارت» الرضى ويسميه «سبينوزا» الغبطة .. ولكن كيف يمكن الحصول على تلك الحالة أو هذا المستوى النفسي ؟ رأى الرواقيون أن مبعث الإضطراب عند الإنسان يرجع إلى أمرين :

الاول : هو شعوره بنقص ما فيما يعتبره شرفا ونبلا بالنسبة إليه ، أو مسألة حيوية تهم ذاته ،

والثاني : تعلق النفس برغبات لا سبيل إلى تحقيقها والجري وراء ما لا جدوى من السعي لبلوغه . وفن السعادة عند الرواقيين يقوم على التخلص من هذين العاملين السالفي الذكر فيزول الاضطراب ويحل بالنفس الوئام .

وبالنسبة للأمر الأول ، فالرواقيون ينصحون بأن يسعى الإنسان إلى إزالة النقص الذي تشعر به نفسك طالما أن في وسعك ذلك ، ولا تجعل أي شيء يحول بينك وبين عمل ما تراه لازما لشرفك ضروريا لذاتك وكرامتك ، وكمثال لذلك أبحث لمعرفة ما يجب عليك عمله بالنسبة للعلاقات الطبيعية التي بينك وبين الآخرين. هذا الشخص مثلا هو والدك ، يجب عليك إذن رعايته ، والخضوع له في كل أمره واحتمال ما ينالك منه من شتم ولطم ، إنه أب سيء الخلق ليس لك أن تهتم بمعرفة ما إذا كانت الطبيعة قد منحتك أبا طيباً ، لأن هذا تدخل منك فيما لا يتعلق بك

---

(١) مبادىء الفلسفة أ. س. رابوبرت ـ المرجع السابق ـ ص ٧٤ .

لأنه قدرك ، أماما يتعلق بك فهو ما ينسجم مع الشرف وهو أن ترعى نحوه واجب الأخوة كيفما كان سلوكه معك . مثال آخر : أخوك غير عادل نحوك ، إبحث عن علاقتك الطبيعية به ، لا تفكر فيما يفعله بك ، إنما فكر فيما يجب عليك نحوه لتكون فى علاقتك به منسجما مع نواميس الطبيعة وعن هذا الطريق تعرف فى وضوح ما ينبغى عليك إذا كان لك جار ، أو زميل فى العمل أو رفيق فى السفر ، أو إذا كنت مواطنا أو مسئولا أو قائدا ، وبذلك يزول السبب الأول فى إضطراب النفس وفى جعلها بمنأى عن السعادة .

ومعنى تلك الفلسفة الأخلاقية للرواقيين أن يقوم المرء بالواجب المفروض عليه من ناحية وأن يكف فى نفس الوقت عن التعلق بما لا طاقة له أزاءه من ناحية أخرى هذا ويرى الرواقيون أن العواطف لا تخرج عن كونها أحكاما وهى أربعة : الحب والكراهية والأمل والخوف ، وكلها ترجع إلى آراء أو أحكام : أليس حب شىء ما يعنى الحكم بأنه حسن وبأنه يجب أن يطلب ؟ أليس كره شىء ما ، معناه الحكم على هذا الشىء بأنه سيء وأنه يجب أن يتحاشى ويترك ؟ أليس الأمل فى شىء معناه الحكم بأن ما تعتبره قيما قد يكون له حظ من التحقق ، وأن ما نعتبره سيئا قد يكون من الممكن تحاشيه . فليست العواطف إذن — فى رأيهم — إلا أحكاماً .. ثم هم يرون أن كل إنسان حر فى أحكامه .. والمهم أن النتيجة لذلك هى أن إضطراب النفس ليس مبعثه الأشياء أو الأحداث وإنما يرجع إلى الآراء التى يكونها كل منا عنها . وينصح الرواقيون بأن لا يحاول المرء أن يجعل الأمور تسير منسجمة مع رغباته وإنما عليه أن يحاول أن يرضى بما يقنع ، فإن فعل نعم بالسلام الداخلى ، فعل المرء أن يقنع وعليه أن يزهد .

ولاشك أن فى فلسفة الرواقيين معان أخلاقية نافعة ، وإن أكثر النقد يوجه نحو رأيهم فى العواطف واعتبارها مجرد أحكام ، وقد ظل لآرائهم تأثيرها فى

أوربا ، حتى العصر الحديث ، خاصة لدى ڤيني وديكارت وفاترلينك وغيرهم(١)

وبقى الآن أن نعقب على الفلسفة الأخلاقية القديمة لدى اليونان ، وأول ما نلاحظه أن المبادىء الأخلاقية التى حملتها فلسفتهم لم تستند إلى دين سماوى ورغم ذلك نجد البعض منهم قد دعوا الناس إلى التمسك بالقيم الخلقية وإلى الزهد والقناعة وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن الأديان السماوية تتفق مع الفطرة الإنسانية فقد اهتدى الفلاسفة بفطرتهم إلى عديد من المبادىء التى جاءت بها أديان السماء ، وأكبر وهم وقعوا فيه هو اعتبارهم أن الغاية من الحياة هى تحقيق اللذة للإنسان،

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة : اندريه كريسون . المرجع السابق ص٥٧

المبحث الرابع

دراســـة مقـــارنة

حول بعض القيم الأخلاقية

المطلب الأول

الفضيـــلة

تعريفها :

القضل والفضيلة ضد النقص والنقيصة والإفضال بالإحسان(١) ويقال رجل مفضال وامرأة مفضالة على قومها إذا كانت ذات فضل سمحة وفاضلة مفضلة أى عليه بالفضل (٢) فالفضيلة إذن مشتقة من الفضل وهو الزيادة ، والبحث فيها قديم منذ عهد فلاسفة اليونان ، فهى عندهم مشتقة من الأحسن ، وفى اللاتينية تشتق من الرجولة والشجاعة ، كما تدل فى الإنجليزية على القوة ، ويعرف معجم لالاند الفضيلة بأنها الإستعداد الراسخ لإرادة الخير أو عادة فعل الخير(٣) .

ومن العلماء من يعرف الفضيلة بأنها الخلق الطيب الذى يعتاده إرادة الإنسان فالإنسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذى إعتاد أن يختار وأن يعمل وفق ما تأمر به الأخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب واضحاً: فالفضيلة

---

(١) مكارم الأخلاق للإمام الطبرانى تحقيق الدكتور فاروق حماده صفحة : ٣٦ طبعة دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء .

(٢) مختار الصحاح للرازى صفحة ٥٠٦ .

(٣) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى . المرجع السابق ص١٤٢

صفة نفسية والواجب عمل خارجى وعلى هذا يقال : فلان أدى الواجب ولا يقال أدى الفضيلة بل يقال حاز الفضيلة أو إتصف بها .. وقد تطلق الفضيلة على العمل ذاته فيقال : أعمال فاضلة أو فضائل الأعمال(١). وبعد أن أوردنا تعريف الفضيلة نتناول فيما يلى بيان أنواع الفضائل ثم نبين هل الفضيلة خلقية أو مكتسبة.

أنواع الفضائل :

(١) رأى أرسطو أنه يوجد لدى بعض الأفراد ما سماه : الفضائل الجوهرية وهى تلك التى لا تتحول بالإفراط فيها أو الإسراف إلى رذائل مثل الذكاء وهو عادة الإدراك الدقيق للقواعد العلمية وهو الخبرة الجيدة باستنباط النتائج التى تترتب على أى قاعدة منها ومنها : التبصر ، وهو عادة التقدير الصحيح لكل شىء وأخيرا الحكمة والمهارة وهما فى العلوم أرقى درجات الكمال .

وتلك كلها فضائل عقلية أو نظرية ولكن أرسطو يذكر معها نوعا آخر من الفضائل هى الفضائل العملية التى تنشأ عن ضبط السلوك حسب العقل ، ويسميها كذلك الفضائل الأخلاقية وهى لا تسمى كذلك إلا إذا كانت عادات مستمرة . والفرق بين نوعى الفضائل عند أرسطو ـ أى بين العقلية والعملية ـ هو أن الأخيرة لا تعدو أن تكون أوساط الأمور (٢) كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، ونرى ابن مسكويه متأثراً برأى أرسطو فى كتابه عن الأخلاق إذ يعدد الفضائل على أنها تمثل الوسط العدل بين طرفين أو حدين كلاهما بعيد عن الفضيلة فالسخاء وسط بين التبذير والبخل والشجاعة وسط عدل بين التهور والجبن ، ويلاحظ أن الوسط

---

(١) الأخلاق لاحمد أمين . المرجع السابق صفحة ١٦١ .

(٢) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة لاندرية كرسون ـ المرجع السابق ـ ص ٦٣ .

العدل ليس وسطاً حسابياً إذ أن معنى إعتباره وسطاً عدلا أنه الوسط الملائم ، ولا شك أنه أقرب إلى أحد الطرفين دائماً من الآخر ، فالسخاء أقرب إلى التبذير منه إلى البخل والشجاعة أقرب إلى التهور منها إلى الجبن وهكذا ولكن هناك فضائل عديدة لا يظهر فيها أنها أواسط بين رذائل - مثل الصدق والعدل - فليس هناك إلا كذب أو صدق وليس هناك إلا عدل أو ظلم أما قول ابن مسكويه أن العدل وسط بين الظلم والانظلام فهو لعب بالألفاظ دعاه إليه تصحيح كلام أرسطو فليس الانظلام إلا أثراً للظلم .

(٢) وتقسيم الغربيين للفضائل تجعلها ثلاثة أصناف :

أ — الفضائل اللاهوتية وموضوعها : الله تعالى ، وهى الإيمان والرجاء والمحبة .

ب — الفضائل العقلية وموضوعها أمور تتعلق بالملكات العقلية فى الإنسان مثل التمييز والحكمة .

ج — الفضائل الأخلاقية وعلى رأسها الفضائل الأصلية الأربعة : الفطنة والشجاعة والعدل والعفة .

(٣) أما تقسيم الفلاسفة للفضيلة ، فهو تقسيم لها حسب الموضوع كما يلى :

أ — فضائل شخصية . مثل العفة والشجاعة .

ب — فضائل تتعلق بالعلاقات بين الناس مثل : الأمانة ، الأدب ، التواضع .

ج — فضائل إجتماعية تتعلق بالأسرة والمهنة والوطن أو الأمة أو

المجتمع (١) مثل الإخلاص فى العمل والإحسان والإيثار .

(٤) وللمحدثين تقسيم ثلاثى آخر للفضائل يجعلها كما يلى :

أ ــ فضائل شخصيه : تشمل : ضبط النفس (الشجاعة) وتهذيب النفس (الحكمة) .

ب ــ فضائل إجتماعية : تشمل : العدل والإحسان .

ج ــ فضائل دينية : تشمل ما توجبه علاقة الإنسان بخالقه (٢) أى ما يتعلق بالعقيدة والعبادات .

والذى يبدو لنا أن ما حدا بالأخلاقيين إلى تقسيق الفضائل يعود إلى أمرين :

الاول : هــو النظر إلى آثارها السلوكية . فتلك الآثار هى التى تظهر أصنافها .

الثانى : ما ظهر من أنه من النادر تماما أن نعثر على إنسان يجمع كل أصناف الفضائل بدرجات متساوية ، اللهم إلا فى جماعة الرسل والأنبياء ، وإنما كل إنسان ميسر لما خلق له ، وتميل نفسه إلى صنف من الفضائل أكثر يتفق مع ميوله وإستعداداته وهداية الله تعالى له . وبذلك نفهم مغزى وصف الرسول عليه الصلاة والسلام لإيمان أبى بكر الصديق بأنه وحده يعدل إيمان أمة . فلا ريب أنه جمع من أصناف الفضائل جميعا ما لا نجده إلا فى أفراد أمة (من الصالحين) متعرفين . ومن الخير لمن هداه الله إلى نوع من الفضائل ألا يقصر همته عليها ،

---

(١) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى ـ المرجع السابق ـ ص ١٥٤ .

(٢) الأخلاق لأحمد أمين ـ المرجع السابق ـ ص ١٥٧ .

يل يسعى إلى العلو بنفسه فى أنواع الفضائل الأخرى ، حتى لا نرى من هوفاضل فى العبادات مذموم فى المعاملات أو العكس ، أو من يتزين بالفضائل العقلية وليس له فى مجال العملى منها نصيب .

هل تكتسب الفضائل ؟

هذا الموضوع شغل الفلاسفة منذ أمد بعيد ، وأجمع فلاسفة اليونان فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد على أن الفضيلة يمكن أن تتعلم وتكتسب ولكنهم اختلفوا فى الوسائل إلى تعلمها :

أ — فالسفسطائيون وعلى رأسهم هيباس وبرودكليس رأوا أن الفضائل تتعلم بالممارسة والتدريب على أيدى معلم الفضيلة .

ب — أما سقراط وتلميذه أفلاطون فقد رأوا أن الفضيلة هى العلم وأنها تبعاً لذلك تتعلم وتكتسب كسائر العلوم . ويرى أفلاطون أن الحكيم والجاهل كليهما يسعى إلى الخير ولكن الحكيم يعرف حقيقته بينما الجاهل لا يعرف إلا الظواهر فيتصور أن الخير هو اللذة فالفضيلة إذن عند أفلاطون هى العلم بالخير :

ج — وفى العصر الحديث أنكر فشته أن تتعلم الحكمة وأخذ شوبنهور يقول سنكا : لا يتعلم المرء أن يريد . أما جتنكليفتش فيتساءل :

هل تكتسب الفضيلة أم لا ؟ والجواب : كلا الأمرين معاً : وسيبقى الجواب متردداً بالضرورة ، أن الفضيلة لا تعلم لأنه لا شىء جوهرياً يتعلم : فالمرء يتعلم حسن المعاملة ولكنه لا يتعلم حسن الحركة ، ويتعلم الأدب Politesse لا الرقة Delicatesse ويتعلم تعازى التماسيح ، لا صدق الدموع وتلقائية التعاطف . انها أمور ينبغى أن يشتاقها الإنسان ، أمور لا تحدث بحسب الطلب أو التوصية .«

ولا يغني عنها أي مجهود عقلي أو دراسة.(١) »

د : وفي الاسلام : لا نجد سنداً للرأي الذي يقول بأن الفضائل يمكن أن تكتسب وتلقن في جميع الناس بدرجة متساوية ، وهو ما ذهب إليه بعض مفكري اليونان، والرأي يحمل في طياته تناقضه ، ولا يحتاج إلى أدلة لدحضه ، إذ لو صح لكان الأفراد المتشابهين في نشأتهم وتعلمهم متماثلين في فضائل نفوسهم ، وهذا لا يحدث حتى في الأسرة الواحدة ، فقد تجد الفرق بين الشقيقين فيها فرقا ظاهراً وقد يكون أحدهما فاضل النفس والآخر لا حظ له من الفضيلة .. ولكن الصحيح أن الأفراد يختلفون في الطبع والجبلة (٢) وفي ميولهم النظرية ولولا ذلك ما وصى الرسول ﷺ بحسن التخير في الزواج ففي الحديث : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ، ففي الحديث تنبيه إلى أثر العوامل العرقية والسلالية في ظهور أعراض الخير والشر . كما أن الرسول ﷺ يقول فيما رواه أبو هريرة : الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وإذا كنا نسلم بتفاوت الناس في العقول والذكاء ونرى تفاوتهم في صفات الجسد ، أفلا يكون صحيحاً تفاوتهم كذلك في مراتب النفوس واستعداد القلوب ؟ والله تعالى يقول : « وإنما يستجيب الذين يسمعون » .

ثم أنظر إلى من ترى : فمن الناس ذو الحزم والأخرق ، والرزين، والأحمق ،

---

(١) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوي - المرجع السابق - ص ١٥٧ .

(٢) الجبلة بكسر الجيم والباء وتسكينها الخلقة ومنه قوله تعالى : « والجبلة الأولين » والجمع الجبلات - مختار الصحاح - ص ٩١ .

والراشد والسفيه ، والغضوب والحليم والمتشائم والمتفائل والشجاع والرعديد، ترى ذلك حتى فى الصغار والصبيان . ونجد الرسول ﷺ يقول : « ان بنى آدم خلقوا على طبقات شتى ، ألا وأن منهم البطىء الغضب سريع الفىء ، والسريع الغضب سريع الفىء، والبطىء الغضب بطىء الفىء فتلك بتلك ، ألا وأن منهم بطىء الفىء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطىء الغضب سريع الفىء وشرهم سريع الغضب بطىء الفىء » .

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن والخبيث والطيب » .

فماذا يبقى لمتسائل بعد كل ذلك ؟ ثم تأمل قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (١) .

ففى هذا الحديث جملة فوائد تتعلق بالفضائل :

الاولى : أن لكل إنسان طبيعة كالمعدن ، وألا تتغير المعادن برغبة الإنسان، فلا تتحول الفضة إلى ذهب، ومن هنا فمن العسير تغير جبلة كل إنسان وما فطرت عليه نفسه .

ثانيا : أن فى الحديث دليلا على ذلك ، إذ أن الصحابة كانوا قبل الإسلام فى الكفر والشرك ، وجب الإسلام ما قبله ، وأصبحوا بنعمة الله أخواناً ، ولكنهم تفاوتوا رغم أن مصدر العلم والفقه واحد وهو الرسول عليه الصلاة

---

(١) الأخلاق الإسلامية للميدانى - المرجع السابق - ج ١ - ص ١٦٧ .

والسلام ». وهذا معنى قوله عليه السلام . . خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام . . .

ثالثا : أنه لا يصح الركون إلى أن الفضائل لا تكتسب وأن كل انسان يسلك حسب فطرته وجبلته ، ونترك التعليم والتلقين والقدرة ، فنحن لا نعرف جبلات النفوس ، ولا نعرف من هو بحاجة إلى التلقين ممن هو عنه في غنى ، ومن هنا وجب تعليم كل من يحتاج إلى التعليم ، وسيتم التفاضل حسبما تتفاضل ملكاتهم ونفوسهم ، وهذا مغزى قوله عليه السلام : إذا فقهوا ...

المطلب الثانى

الضمـــير

إحتل البحث فى الضمير جانباً كبيراً من إهتمام الأخلاقيين فى كل العصور ، وليس البحث فيه قاصراً على علماء الأخلاق فحسب بل إنه يشغل كذلك الفلاسفة وعلماء النفس ورجال الدين والقانون ، ونحن حين نرجع إلى اللغة نجد أن لفظ الضمير يعنى السر داخل الخاطر وأضمر فى نفسه أمراً أى أخفاه والجمع والضمائر ولم يجد البحث فى الضمير مجالا عند الفلاسفة المسلمين ولا عند أدباء العـــرب ، مما يتطلب أن يخص الآن بعناية أكبر لأنه من الموضوعات الأخلاقية الهامة ، وفى ذلك يجد للضمير تعريفات منها : ملكة التمييز بين الخير والشر ويعرفه بوارك بأنه معرفة الخير والشر وهو عند لوسن : ملكة الإقرار والإستهجان (١) .

أما العرب فقد استعملوا لفظ القلب أو الباطن أو السريرة بدل الضمـــير ويرى البعض أن إصطلاح الضمير بمعناه الراهن هو وليد القرن التاسع عشر : وأن العرب قد استعملوا عوضاً عنه كلمة « زاجر » التى تؤدى معناه بعض الأداء فقالوا : من لم يكن له من نفسه زاجر ، لا تنفعه « الزواجر » .

ويميز الغربيون بين الضمير الخلقى والضمير النفسى .

ويرى الدكتور ابراهيم مدكور أنه ليس فى الإنسان ضمـــيران : يفصل أحـــدهما فى الأحـــكام الخلقيـــة ويتـــولى الآخـــر الأحـــوال

---

(١) الأخلاق النظـــرية للدكتور عبد الرحمن بدوى . المرجـع السابق صفحة ٥٣ .

النفسية (١) . ولكن الذى نراه أن التفرقة بينهما ممكنة على أساس أن الضمير إذا كان يراد به الرقابة على النفس وتوجيهها فإن المسائل التى تخضع للقواعد الأخلاقية هى من وظيفة الضمير الخلقى وأما أحوال النفس التى لا صلة لها بالأخلاق فهى وظيفة الضمير النفسى وذلك - مثل الرضا أو الغضب أو الندم أو الحزن لغير سبب خلقى مع أن النتائج والآثار فى النوعين واحدة أى بالنسبة للضمير الخلقى والضمير النفسى .

أن وعورة البحث فى الضمير تكمن فى أنه أمر غيبى فالبحث فيه إنما يبنى على الحدس حينا أو على النظر المجرد حينا آخر ، ولذلك فليس الغموض قاصراً على تعريفه وإنما يزداد كذلك بالنسبة للبحث فى كنهه وطبيعته ،

حقيقة الضمير وطبيعته :

إذا إستعرضنا آراء المفكرين فى حقيقة الضمير فإننا لا نجد إلا آراء مختلفة بعضها عن بعض وسنشير إليها بإيجاز :

١) فنحن نجد أولا من يبحثون فى الضمير من الناحية الخلقية أو التكوينية بمعنى البحث عما إذا كان فطريا أو أنه يتكون بمرور الزمن وتعاقب المواقف والتجارب . فإذا سلمنا بأنه فطرى لم يكن للمواقف والمؤثرات التى تمر بالإنسان دخل فى تكوينه .

٢) وحتى بالنسبة لمن يقولون بتكوين الضمير فإن منهم من يقول أن تكوينه راجع إلى قوانين نفسانية أو بيولوجية وهذا رأى علماء النفس .

---

(١) فى الأخلاق والإجتماع للدكتور ابراهيم مدكور . الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة ٧٤ ص ٠٠

٣) أما فرويد ومدرسة التحليل النفسى فعندهم أن الضمير هو حاصل أو ثمرة الضغوط الأبوية على الطفل ، وهى ضغوط تتألف من أوامر ونواه وتحريمات يتكون منها ما يسمونه الأنا الأعلى الذى يسبق تكوين الضمير الأخلاقى ولا يتكون الضمير الأخلاقى إلا من سن الثامنة عشرة فى رأيهم .

٤) ولكن لعلماء الإجتماع رأى آخر خلاصته أن الضمير حصيلة آلاف الضغوط الإجتماعية على الفرد من المنزل والمدرسة والعرف والتقاليد الاجتماعية وسلطان الثقافة والحضارة .

وما الضمير الفردى إلا إنعكاس الضمير الجماعى الذى ولد فيه الفرد وبه نشأ وتكون وذلك لان المجتمع فى رأيهم حقيقة فوق الأفراد التى يتألف منها وليس هو حاصل جمع لهؤلاء الأفراد بل له ذاتية خاصة تعلو على حاصل جمع الأفراد .

٥) وقد عارض بعض علماء الأخلاق مذهب علماء الاجتماع السالف وقالوا أن الحياة الإجتماعية لا تخلق الضمائر بل تكيفها وتشكلها (١) .

والحقيقة بعد الإشارة إلى تلك الآراء جميعها أن الضمير هو نافذة النفس الإنسانية على العالم ، وأن القول بأنه صورة من العقل فيه مبالغة وذلك لأن العقل أحكامه لا تتغير ومنطقه ثابت بينما الضمير يتبدل بين لحظة وأخرى ، ثم أن الضمير ليس إدراكا فحسب بل هو شعور بل إن جانب الشعور هو الغالب فيه ، فمن يرتكب جريمة خلقية كالزنا أو شرب الخمر لاشك أن عقله يدرك خطأ ما يفعله ولكن ضعف صوت ضميره هو الذى يدفعه إلى مقارنة الإثم ، حتى إذا

---

(١) الأخلاق النظرية الدكتور عبد الرحمن بدوى المرجع السابق ص ٦٠

ما استيقظ الضمير ندم وشعر بحزن وأسى ، أما تكوين الضمير فلا أحد يستطيع أن ينكر أثر العوامل الخارجية فيه وأولها تأثير البيئة كالأسرة ، وليست كل بيئة بمؤثرة ، بل هى بيئة من يعجب بهم الإنسان ويتقبل بحب توجيههم ، ومن هنا نفهم السر فى أن إبن المجرم قد يكون متدينا إذا أبغض سلوك أبيه واحتفظ لنفسه مسلكا آخر كما ذكرنا من قبل ، والإسلام قد إهتم بتكوين الضمير وأبان أهميته ، وأنه صلاح الشخصية كلها ، وفى ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام .. ألا وأن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ، إلا وهى القلب .. ولاشك أن المقصود بالقلب هو الضمير .

ويقول عليه الصلاة والسلام « البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع الناس عليه » وهذا الحديث يدل على أن فى النفس الإنسانية حسا خلقيا بالإثم ولذلك يكره فاعل الإثم أن يطلع عليه الناس ، وهذا الحس الأخلاقى هو الضمير .

وقال عليه الصلاة والسلام « البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وافتوك » فهذا الحديث أيضا فيه إشارة الضمير الأخلاقى وفى المعنى نفسه قوله عليه الصلاة والسلام « دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » .

ونشير أخيراً إلى الحديث الشريف الذى يشير صراحة إلى الحس والضمير الأخلاقى وهو قوله عليه الصلاة والسلام .

« ضرب الله فيك صراطاً مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعند رأس الصراط داع يقول : إستقيموا على الصراط ولا تعرجوا ، وفوق ذلك داع يدعو كلما هم عبد أن

يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ».
ثم فسره فأخبر : «أن الصراط هو الإسلام وأن الأبواب المفتحة محارم الله
وأن الستور المرخاة حدود الله ، وأن الداعى على رأس الصراط هو القرآن
وأن الداعى من فوقه واعظ الله فى قلب مؤمن ، فهذا الواعظ الذى فى قلب كل
مؤمن هو الحس الأخلاقى : أى الضمير (١) .

سابعا : الارادة :

تقسم أعمال الإنسان من حيث الإرادة إلى أعمال إرادية وأعمال لا إرادية
فالأعمال اللاإرادية لا يحاسب المرء عليها ، وذلك لانتفاء القصد وذلك مثل
ما يصدر عن النائم وما يحدث نتيجة الغلط أو الإكراه .

وقد أشار إلى ذلك حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : رفع عن أمتى الخطأ
والنسيان وما استكرهوا عليه ، أما الأعمال الإرادية فهى مناط المسئولية
الأخلاقية وذلك مثل الغيبة والسخرية والإستهزاء والكذب والبر والإحسان .

تحليل الارادة :

الإرادة هى المظهر النزوعى فى السلوك الإنسانى وعلماء النفس يقسمون الفعل
إلى مراحل ثلاث يمر بها هى الإدراك ثم الوجدان ثم النزوع ، فالفكرة تأتى أولا
ثم تنفعل بها النفس ، فإذا قوى الإنفعال إلى درجة معينة أدى إلى النزوع أو
العمل الإرادى - فالمرء قد يكون أمامه أفكار لأعمال متنوعة ، كالتنزه أو الدرس
أو زيارة قريب له ، وما تنفعل له نفسه أكثر يقدم عليه ، فإذا كان وقت إمتحان

---

(١) الأخلاق الإسلامية تأليف عبد الرحمن حسن جنكه الميدانى الجزء الاول
صفحة ٦٧ .

غلب الدرس وإذا كان له رغبة ملحة فى رؤية قريبه فضل ذلك على سواه وهكذا. ويلاحظ أن الميل إذن غير الإرادة وكثيراً ما تحدث ميول متعارضة كما فى هذا المثال ولكن الميل الذى يتغلب هو الذى يسمى الرغبة . ثم يلى الرغبة العزم والتصميم وهو ما يسمى بالإرادة التى يتبعها العمل ، وللإرادة نوعان من العمل فقد تكون دافعة وقد تكون مانعة أعنى أنها تارة تدفع قوى الإنسان إلى العمل كأن تحمله على الكتابة أو الخروج للنزهة أو تمنع الفرد عن السلوك كأن تمنع المرء عن الخطابة أو التحدث .

والإرادة بنوعيها منبع لكل الخيرات والشرور فجميع الفضائل والرذائل ناشئة عن الإرادة . فالصدق والعفة ناشئان عن إرادة الفضائل وترك الكذب أو الغيبة ناشىء عن إرادة تجنب الرذائل ، والذى يحرك الإرادة قد يكون باعثاً داخلياً فى النفس ، وقد يكون غاية يسعى إليها المرء ، فإذا عاونت محتاجاً إلى المعاونة فقد تقول أن الباعث لك على المعاونة هو الشفقة بالمحتاج وقد تقول : الباعث هو مساعدة المحتاج . فالشفقة هى الباعث الدافع والمساعدة هى الباعث الغائى (الغاية) (١) .

وفى الإسلام نجد أن الباعث ينبغى أن يكون دائماً باطنياً ومقصوداً به وجه الله فى كل أمر وكذلك الشأن فى الغاية ينبغى أن تكون ثواب الله ورحمته أو الخوف من غضبه وعذابه . ولا يجوز أن يقترن بالبواعث النفسية أو الغايات ما يفسد العمل الأخلاقى كالرغبة فى إمتداح النفس وتزكيتها أو إرضاء الناس أو الخوف منهم .

---

(١) الأخلاق للأستاذ أحمد أمين ـ ص ٥١ .

حرية الارادة :

ولا يتصور قيام الأخلاق والمسئولية عن السلوك الأخلاقى دون التسليم بحرية إرادة الإنسان ، ودون أن ننساق إلى البحث والجدل فى القضاء والقدر ، نقول أن الإنسان حريته فى إختيار أى السبيلين يسلك لقوله تعالى « وهديناه النجدين » وقوله سبحانه « انا هديناه السبيل أما شاكراً وأما كفوراً » (١) وقوله جل وعلا « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » (٢) ويذكر أن فريقاً من الناس قد اشتكوا إلى عبد الله بن عمر وقالوا : يا أبا عبد الرحمن إن أقواماً يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون : كان فى علم الله فلم نجد بداً . فغضب ابن عمر قائلا : سبحان الله العظيم قد كان فى علمه أنهم يفعلونها ، ولم يحملهم علم الله على فعلها (٣) . فالمسلم يتحمل مسئوليته الأخلاقية وإرادته هى عمله يوزن به ويحاسب عليه ولو حللنا الافعال التى تكون السلوك الخلقى لكل فرد لوجدناها تنقسم إلى نوعين : إما إمتناع عن فعل ما توجب الأخلاق فعله . وإما فعل ما توجب الأخلاق تركه وعدم فعله ، وهذان القسمان يمثلان الجرم الأول لكل من إبليس وآدم ، بإمتناع الأول عن فعل ما يجب وهى السجود ، وقيام الثانى بفعل ما لا يجب وهو الإقدام على الأكل من الشجرة .

على أن الإرادة ليست مجرد موهبة ، بل إنها تتطلب تنميتها وعلاج ضعفها ويكون ذلك بحمل النفس على فعل ما تكره وترك ما تحب وتهوى ، وفى احكام

---

(١) سورة الإنسان : آية ٣ .

(٢) سورة القيامة : آيتان ٣ — ٤ .

(٣) الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى للدكتور أحمد صبحى - المرجع السابق - ص ١٥٥ .

العبادات ما يساعد الإنسان على تقوية إرادته من صوم وصلاة وزكاة وحج .
وأما الإنسان الذى يترك نفسه لما تهوى فلا شك أنه سوف يصيبه ضعف الإرادة
ويصبح عاجزاً عن السيطرة على سلوكه الأخلاقى وتوجيه نفسه الوجهة السليمة
فى الحياة : ولهذا كانت الإسلام موجهة بالدرجة الأولى إلى تزكية النفس وتهذيبها
حتى تتمرس بالفضائل وتقوى فيها إرادة الخير ، وليس يكفى أن توجه العناية
إلى توجيه السلوك الظاهر فحسب ، لأنه إذا لم يكن صادراً عن إقتناع داخلى
وعزيمة وإرادة ... فلا قيمة له ولا جدوى منه وسرعان ما ينهار .

المراجع العربية

١ — القرآن الكريم

٢ — صحيح البخارى

٣ — مسند الترمذى

٤ — مسند ابن ماجه

٥ — تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل - الطبعة الأولى ١٩٦٠

٦ — تفسير القرآن العظيم — لابن كثير

٧ — تفسير البيضاوى — للبيضاوى

٨ — تفسير المنار — محمد رشيد رضا

٩ — اسماء الله الحسنى — فخر الدين الرازى

١٠ — الأدب المفرد — محمد بن إسماعيل البخارى

١١ — الإسلام وبناء المجتمع الفاضل — د. يوسف عبد الهادى أبو الشال

١٢ — دراسات إسلامية — محمد عبد الله دراز

١٣ — وجود الله — د. يوسف القرضاوى

١٤ — الإيمان — د. محمد نعيم ياسين

١٥ — الأخلاق النظرية — د. عبد الرحمن بدوى

١٦ — الأخلاق — الأستاذ أحمد أمين

المراجع الأجنبية

١ — المشكلة الأخلاقية والفلاسفة — أندريه كريسون، ترجمة د. عبد الحليم محمود والأستاذ / أبو بكر ذكرى

٢ — الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية — ليفى بزيل، ترجمة د. محمود قاسم

٣ — علم الأخلاق إلى نيقوماخوس — لأرسطو، ترجمه عن اليونانية بارتلمى. وعربه أحمد لطفى السيد